الثورة العرابية

محمد مورو



الثورة العرابية

محمد مورو

مُقَدِّمَة

الثورة العرابية ظُلمت من الجميع من الذين كرهوها، ومن الذين دافعوا عنها؛ فالذين كرهوها فقدوا الموضوعية في تقييمها افتروا عليها وعلى زعيمها أحمد عرابي.

والذين كرهوها عن قصد وسوء نية أمرهم مفهوم ومعروف فهم يكرهون أي ثورة وخاصة إذا كانت ثورة إسلامية شاملة كالثورة العرابية، وهؤلاء يعملون لحساب الاستعمار الذي تتعارض مصالحه مع أي ثورة إسلامية؛ لأنها خطر على وجوده.

والذين كرهوها عن حسن نية فافتروا على زعيمها وافتروا على الثورة فقد خدموا الاستعمار دون أن يدروا؛ لأنهم في سبيل إدانة الثورة العرابية أدنوا كل ثورة وشككوا في جدوى كل مقاومة ثورية للاستعمار، وهذا بالضبط ما يريده الاستعمار، وهكذا انسحبت إدانة هؤلاء إلى الحاضر والمستقبل، والثورة العرابية ظلمت أيضا من الذين دافعوا عنها؛ لأنهم دافعوا دفاعا أشبه بالإدانة بل ربما أسوأ

وخرجوا بالثورة عن أهدافها الحقيقية وأسبابها الحقيقية وبين الذين كرهوا والذين دافعوا ضاعت حقيقة الثورة، وضاع ما يمكن أن تستفيده الأجيال من دروس الثورة وعظاتها بل وأخطائها، وفي رأينا أن الثورة العرابية ثورة إسلامية شاملة.ومحاولة إسلامية للتخلص من النفوذ الأوربي، وإقامة قاعدة للنهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية في مصر، تكون نواة للبعث الإسلامي أو على الأقل عصا غليظة في عجلة المشروع الاستعماري الذي كان يصعد بسرعة في ذلك الوقت، وبديهي أن للثورات أخطاء، ولزعمائها أخطاء وليس هناك من معصوم من الخطأ اللهم إلا رسول ﷺ.

ويبقى أن نعتز بتلك الثورة وأن نستفيد بدورها وتجاربها،

د. محمد مورو

القاهرة، ١٧ مارس (١٩٩٠)

جـذور لا تمـوت

ظاهرة الثورة الإسـلامية عمومـا، وفـي مصـر خصوصا، غير قابلة للتصفية أو الاجتثاث، قد تخبو أحيانا، أو تتعرض لعمليات البطش ولكنها تظل كامنة فـي أعمـاق التربة تظهر مرة بعد مرة ولتأخذ صورا وأشكالا متعددة.

ولا سبيل للقضاء على تلك الثورة إلا بالقضاء علـى الشعب المصري كله، كان محمد علي قـد وجـه ضـربات شديدة لحركة الجماهير المسلمة في مصر سواء عن طريق القمع والاستبداد أو عن طريق تصفية المؤسسات الثوريـة مثل الأزهر أو حتى عن طريق ضرب البنيـان الاجتمـاعي الذي يعطي للثورة وحركة الجماهير بعدا وعمقا.

و أكدت أوربا المتربصة تلك العمليـة عـن طريـق الاختراق الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي بهدف ترويض الأسد ونزع أظافره وأسنانه ليسهل بعد ذلك احتلال مصر التي استعصت مرتين على الغزو الأوربي (الفرنسي ١٧٩٨ ـ ١٨٠١) والإنجليزي (١٨٠٧) واستغرقت عملية الترويض تلك عشرات السنين واستخدمت أوربـا عشـرات

الوسائل في تحقيق ذلـك، ولكن وبرغم هذا، كانت حركـة الشعب المسلم في مصر تنمو وتتقد تحت التراب وتحـاول قدر الاستطاعة اختراق هذا الحصار الحديدي الذي شـكلته قوى الاستعمار المتربص وقوى الاستبداد الداخلي المتمثـل في أسرة محمد علي والمتعاونين معها، وقد عبرت حركـة الشعب المسلم عن نفسها ضد محمد علي بأكثر من وسيلة، وبأكثر من أسلوب؛ فالمثقفون مـن أول الجبرتـي كـانوا يعارضون سياسات محمد علي في جلساتهم واجتماعـاتهم، وإن كانت تلك المعارضة ظلت محصورة في نطـاق ضـيق بسبب القمع والاستبداد وقوة القبضة البوليسية لنظام حكـم محمد علي.

كان هؤلاء المثقفين يطلقون على محمد علـي لقـب باشا النصارى، وهو مصطلح يعبر ويلخص رؤية مجموعة المثقفين لمجمل سياسات محمد علي، وهذا المصطلح يعبـر عن رأي تلك المجموعة في عمليات التغريب وامتداد النفوذ الأجنبي إلى مصر والصدام مع الخلافة الإسلامية العثمانية، وهو مصطلح شديد التركيز وشديد الدلالة في وقت واحـد، مما يؤكد أن درجة الوعي السياسي لدى هـؤلاء المثقفـين

المعارضين كانت عالية ويؤكد أيضا قدرة تلـك المجموعـة على صياغة شعاراتها في عبارات مختصرة، بل قـل فـي عبارة واحدة مختصرة أو بالتحديد فـي كلمتـين تحمـلان المضمون المتكامل لأسباب معارضتهم لمحمد علي، ومـن البديهي أن تلك الحركة قد تعرضت لأبشع عمليات المطاردة أو محاولات الاستقطاب والإفساد و الجبرتـي نفسـه دفـع الثمن غاليا، فقد مات ابنه مسموما في ظـروف غامضـة، وعبرت حركة الشعب المسلم في مصر عن نفسها أيضا عن طريق الاحتفال والاهتمام بالسيد عمر مكرم عندما سمح له بالعودة من منفاه في دمياط إلى القاهرة سنة (١٨١٩) حيث تزاحم الناس على بابه وهنأه الشعراء بقصائدهم مما جعـل محمد علي يقرر نفيه ثانية إلى طنطا.

وعبرت حركة الشعب المسلم في مصر عن نفسـها أيضا سنة ١٨٢٢ عندما هاج السكان أستياءا مـن فـرض ضريبة جديدة على المنازل و اصطدموا بجنود محمد علي.

وذهبت الجموع إلى دار الشيخ العريسي شيخ الأزهر ليتكلم عنهم لرفع الضريبة، وقد استطاع محمـد علـي أن

يقمع هذا الحركة بقسوة وأن ينفذ قراره بتحصيل الضريبة، وانتفاضة (١٨٢٢) تمثل تلخيصا هاما لأحوال مصر في ذلك الحين، فإذا كانت الجماهير المسلمة قد تعودت على الثـورة على الظلم واللجوء إلى الأزهر وفرض مطالبها، فأنها فـي هذه الانتفاضة فشلت في فرض تلك المطالب؛ لأن الأزهر لم يعد كما كان. والأوضاع لم تعد كما كانت فمحمد علي كـان قد نجح في ضرب نفوذ الأزهر و تصفيته كمؤسسة حاضنة للثورة وكقيادة طبيعية للجماهير. وعبرت تلك الحركة أيضا عن نفسها في انتفاضة شاملة اندلعت في الوجه القبلي مـا بين أسنا وأسوان سنة (١٨٢٤) واستطاعت تلك الحركة أن تنزل هزيمة مؤقتة بجند محمد علي إلى أن أستطاع إخمادها وعبرت تلك الحركة أيضا عن نفسها بعمليـات الهـروب الجماعي والفردي التي مارسها الفلاح المصري كنوع مـن الرفض السلبي للظلم والاستبداد أو شكل من أشكال الامتناع عن العمل في مزارع أسر محمد علي والمتعـاونين معهـا وهو أسلوب كان يصيب نظام الحكم بخسائر اقتصادية كبيرة جدا حيث يحرمها من قوة عمل كانت تـدر عليـه عائـدا اقتصاديا كبيرا.

وقد يبدو أن عملية الهروب شكل من أشكال اليأس ليس إلا ولكنها في حقيقتها كانت شكلا من أشكال المقاومة الواعية، فالفلاح الذي كان يهجر أرضه كان يعرف أن هناك عقوبة قاسية تنتظره بسبب هذا الهروب ومـع ذلـك كـان يختار الهروب رغم تلك العقوبة كنوع من الرفض الـواعي واليأس معا، وإذا حاولنا أن نستخرج دلالات الأرقام، نجـد أنه في عام واحد وهو عام(١٨٥٥) هجر فلاحو الشـرقية والدقهلية وحدهم مساحة من الأرض تبلغ(٦٦,٨٦٦) فدانا [١].

ومن المعروف أن هؤلاء الهاربين كانوا من صـغار الملاك جدا بحيث لا يتجاوز ما يملكه أحدهم بضعة قـراريط أو نصف فدان ونادرا ما يمتلك فدانا كاملا ومن المسـتحيل أن يملك أكثر من فدان، إذا فقد هجر الأرض في عام واحـد

---

* كما قدرها جرجس حنين – نقلا عن د٠ علـى بركـات ٠ مصـر للمصريين – ص ٢٤٧ مركز الدراسات السياسـية والاسـتراتيجية – الأهرام٢ ١٩٨ بمناسبة مرور مائة عام على الثورة العرابية.

قرابة مائة ألف فلاح في الشرقية والدقهلية وحـدها، فكـم كان عدد الهاربين من كل مصر، يمكننا أن نسـتنتج أنهـم زادوا عن المليون فلاح،ويمكننا أن نسـتنتج حجـم تلـك الهجرة بحساب عدد من يعولهم هؤلاء الهاربين مـن أولاد ونساء ليسوا في سن العمل.

وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الهروب كانـت ظـاهرة جماعية وواسعة جدا، مما يؤكد أنها كانت حركة رفض واع وأن كان يائسا . على أن حركة الشعب المسلم في مصر في تلك الفترة، استخدمت أيضا أسلوب المطالبة بالأراضـي عن طريق العرائض الجماعية ونقلا عـن الـدكتور علـى بركات أستاذ التاريخ بجامعة المنصورة في مقال لـه فـي كتاب - صدر عن مركز الدراسات الاسـتراتيجية بـالأهرام بمناسبة مرور مائة عام على الثورة العرابية- فإن أهـالي ناحية طنطا وميل الطير بالمنيا قد تقدموا بعرائض جماعية عام (١٨٥١) للمطالبة باسترداد الأراضي التـي اغتصـبها سامي باشا من أراضي معمـور الناصـيتين المـذكورتين، وتشير شكوى أخرى إلى قيام أهالي دروة وأبـو الحسـن دقهلية - بتقديم عريضة جماعية سـنة(١٨٥١) للمطالبـة

باستعادة الأراضي التـي اغتصـبها صـبحي بـك، وفـي سنة(١٨٤٩) تقدم أهالي قريـة نزلـة الفلاحـين بالمنيـا بعرائض للمطالبة بالأراضي التي أغتصـبها يوسـف عبـد الشهيد بالقوة الجبرية (٥٠٠ فدان) ثم تجـددت تلـك العرائض عام(١٨٦٦) ثم في عام(١٨٧١) وعـام(١٨٧٥) (١٨٧٦) ثم (١٨٨١) وفي هذا العام ذاتـه (١٨٨١) قـام عدد من الفلاحين بمحاولة إغراق تلك الأرض عن طريـق قطع أحد الجسور، وفي قرية الجعـافرة بمديريـة الفيـوم تقدم(٩٤) من أهل القرية بعريضة سنة(١٨٥٦) للمطالبـة باسترداد أراضيهم التي أستولي عليها معجون بك.

وفي قرية قونجيل (دقهلية) تقدم الأهالي بعـرائض للمطالبة باسترداد أراضـيهم التـي أغتصـبها الخـديوي عباس،وقد جدد الأهالي تلك المطالب والعـرائض وتقـدموا بها إلى مجلس شورى النواب (١٨٨٢)، وكان الأهالي قـد امتنعوا عن العمل في تلك الأرض عدة مرات مثل الفتـرة (من ١٧ جماد الأول ١٢٧٢هـ إلى ٥ شعبان سـنة ١٢٧٢ الموافق ١٨٥٦).

وفي قرية معصرة داود تقدم الأهالي بعرائض سنة(١٨٧٨) للمطالبة باسترداد أراضيهم التي أغتصبها الخديوي إسماعيل خلال عمليات تكوين الدائرة السنية.

وفي قرية قرموط البهو دقهلية رفض الفلاحون الذين يزرعون أراضي القرية تسليم الأرض التي يزرعونها بعد أن قام قومسيون الأملاك الأميرية بتأجيرها جملة إلى اثنين من كبار الملاك هما الأخوان ميخائيل وواصف جريس.

وفي ناحية بني شقير بمدرية أسيوط طالب مشايخ الناحية باسترداد أطيانهم التي سبق أن استولي عليها واصف خياط.

على أن حركة المطالبة بالأرض ما لبثت أن تحولت إلى انتفاضات واسعة وعمليات ثورية للاستيلاء على الأرض في إطار الثورة العرابية، وخاصة بعد انحياز الخديوي وكبار الملاك إلى الإنجليز، وسوف نناقش ذلك في إطار مناقشة الثورة العرابية.

الجذور تجد من يرويها

وإذا كانت حركة الشعب المسلم في مصر قد عبرت عن نفسها برغم كل الظروف القاسية فأنـه ومـع بدايـة السبعينيات من القرن التاسع عشر، كانت هناك العديد مـن العوامل التي مهدت لانطلاق حركة الشعب المسلم من جديد.

كانت تجربة محمد علي قد انهارت وانهـارت معهـا قبضة السلطة الحديدية فأصبحت أقل قوة، وأصبحت مصفاة النظام المستبد تحتوي على كثير من الثقوب الواسعة التـي اندفعت من خلالها حركة الشعب المسلم في مصر في ذلـك الوقت، وإذا كان النظام المستبد قد سمح بقدر من التعلـيم والبعثات بهدف الحصول على مـوظفين لتـدعيم جهـازه الإداري أو تلبية حاجات الجيش فإن هؤلاء المتعلمين الذين جاءوا من القرى والمدن المختلفة أصبحوا عنصرا هاما من عناصر توعية الشعب والمطالبة بحقوقه.

وإذا كان عدد المدارس الحكومية في سنة(١٨٧٥) قد بلغ(٤٨١٧) مدرسة بهـا (٦٠٤٨) مدرسـا و (٢٧٧٧٢) طالبا فإن المدارس غير الرسمية المتمثلـة فـي الكتاتيـب

المنتشرة في كل قرية وحي وشارع كانت عشرات الألوف، أضف إلى ذلك الأزهر الذي ظل مدرسة هامة من مـدارس الوعي والثورة والمحافظة على الذات برغم كل ما تعـرض له، وكان علماء الأزهر الصـغار والمتوسـطين يقومـون بدورهم التقليدي في التعليم والتوعية في كل مـدن مصـر وقراها ولن يكون من المبالغة في شيء أن نقـول أن كـل مصري نال شيئا من التعليم على يد هؤلاء العلمـاء أقلـه معرفة مبادئ القراءة وشيء من الفقه وحفظ القرآن كله أو بعضه، وإذا تأملت في فقرة كتبها عرابـي فـي مذكراتـه تقول:" إنه تعلم في كتاب القرية وأن نصف قريته على الأقل كانوا من المتعلمين"، نجد أن هذه الفقرة تؤكد انتشار التعليم في مصر في ذلك الوقت.

فإذا كان سكان القرية على الأقل من المتعلمين فمـن البديهي أن نسبة أكبر من المتعلمين كانت في المدن، وهذا يؤكد من جديد كيف أن حركة الكفاح الشعبي فـي مصـر كانت تعمل من خلال عمليات التعليم في القرية التي يقـوم بها بعض المدرسين الصغار من حفظة القرآن الكريم عـن طريق الكتاب.

واستطاعت تلك الحركة أن تحافظ على وعي الشعب وأصالته بهذه الوسيلة رغم الاختراق الأوربي الواسع وممارسات أسرة محمد علي الظالمة، وكانت القواعد الثورية المتمثلة في هذه الكتاتيب هي الرافد الأساسي الذي أمد حركة الثورة عموما في مصر بزاد لا ينضب والثورة العرابية خصوصا.

ويقول محمد عبده في مناقشة له مع لورد إنجليزي [١]: إن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوربا وأخذ كل مصري نصيبا منها، ولا تخلو قرية مصرية من عدد كبير من القارئين والكاتبين، والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية، ومن لا يقرأ يستنبئ الأخبار من القارئين، وإذا ما قرأنا هذا النص جيدا بالإضافة إلى النص الذي أثبته عرابي في مذكراته لأدركنا على الفور أن النهضة التعليمية والأدبية في مصر كانت موجودة بصورة واسعة ولا تقل عن دول أوروبا على حد قول الشيخ محمد عبده، وأنها كانت بفضل الحركة الشعبية في مصر عن طريق علماء الأزهر الصغار والمتوسطين المنتشرين في كل

مدن مصر وقراها، وأنها لم تنشأ فيما بعد نتيجـة التـأثر بأوروبا.

فالغرب الاستعماري لا يقدم تعليما ولا ثقافة ولكنـه يقدم اغترابا وتشويها بهدف القضـاء علـى روح الأمـة وجذورها ونهضتها التعليمية والأدبيـة أيضـا، وان تلـك النهضة أيضا لم تكن بفعل المدارس الحكومية التي أنشـأها محمد علي وإسماعيل بهدف تلبية مطالب جهازهما الإداري، وإن كانت تلك المدارس قد أضافت على غير قصد من محمد علي وإسماعيل زادا جديدا لوعي الشعب ونهضته التعليمية والأدبية ومن العوامل التي ساهمت في زيادة الوعي العـام قيام برلمان منتخب سـنة (١٨٦٦)،وقـد جـاء ذلـك البرلمان بقرار من الخديوي إسماعيل بهدف امتصاص المد الجماهيري الواسع الذي كان يلوح في الواقع المصري من ناحية.وتحقيق نوع من الدعم الشعبي لإجراءات إسـماعيل يفيده في تناقضه الثانوي مع الدول الأوروبية الطامعة فـي مصر، وعموما فإن هذان الهـدفان همـا مـن التكتيكـات التقليدية للحكومات المستبدة والتي تلجأ إلى إقامـة حيـاة برلمانية تفيدها في تناقضاتها الثانوية مع القوى الدوليـة

المحيطة وتحقق لها نوعا من التفريغ لحركة الشـعب فـي الداخل، ومن البديهي أن الخديوي إسماعيل قـام بتفصـيل قانون هذا المجلس وطريقة انتخابـه بحيـث لا يكـون إلا مجلسا شكليا يحقق للخديوي إسماعيل أهدافه السـابقة ولا يخرج عن إطاره، ولكن هيهات، فدائما وأبدا تخرج الأمـور من قبضة الأنظمة المستبدة بفضل الوعي الشعبي، وشـيئا فشيئا يتحول الشكل إلى مضمون ويبدأ الأعضاء المشاغبون في المعارضة ويحدث نوع من الشد والجذب إلى أن تضيق القوى المستبدة بالبرلمان فتقرر حله أو حتى الاستغناء عنه نهائيا، وإذا كان مجلس شورى النواب الـذي سـمح بـه الخديوي إسماعيل قد ظل يعمل في الإطار المحدد له عشـر سنوات كاملة، فإنه ومع بداية سنة(١٨٧٦) بدأت أصـوات المعارضة تبرز داخل البرلمان وخاصة فيما يخص قـانون المقابلة وكذلك مطالبة الأعضاء بنظـر الميزانيـة ونجـح البرلمان في الحصول على بعض السلطات في سنة ١٨٧٨، ودخل النواب في معارك مع الوزرين الأوروبيين في وزارة رياض سنة ١٨٧٩ وأصر النواب على التمسك بحقهم فـي النظر في كافة الإجراءات الخاصة بفرض ضرائب جديـدة.

مما جعل الوزرين الأوروبيين في وزارة رياض يطالبان بحل مجلس الشورى، إلا أن أعضاء المجلس رفضوا ذلك القرار واحتجوا على المشروع المالي الذي أعدته لجنة التحقيق العليا بالاشتراك مع الوزير الإنجليزي ولسون، ووصل الأمر إلى حد عقد اجتماع بمنزل إسماعيل راغب باشا طالبوا فيه بالنظام الدستوري وإقصاء الوزرين الأوروبيين وتعديل لائحة مجلس شورى النواب، وأطلق المجتمعون على أنفسهم اسم (الجمعية الوطنية) واستمر تصاعد وتيرة المعارضة البرلمانية قبل وأثناء الثورة العرابية إلى أن تم احتواء وتصفية تلك الحركة البرلمانية عقب الاحتلال، ولا شك أن سخونة الحياة البرلمانية في تلك الفترة كانت تزيد في وعي الشعب كما كانت نتيجة لهذا الوعي أيضا، وعلينا أن نعرف دائما أن السلطات المستبدة والقوى الاستعمارية لم تمنح مصريون برلمانا حقيقيا، وعلينا أن ندرك أنها إنما تسمح بهامش المعارضة البرلمانية، فإذا زادت عن حدها تم تصفيتها بلا هوادة إلا أن علينا أيضا أن ندرك أنه لا مانع إطلاقا شرعا وتكتيكيا الاستفادة من هذا الهامش في إنتاج الظروف الموضوعية للثورة وتحقيق أفضل الأجواء لحركة

تلك الثورة، وعلينا أيضا ألا نقع في وهم إمكانيـة تحقيـق مطالب الشعب عن طريق النضال البرلماني وحده أو اعتبار هذا النضال البرلماني غاية بل هو وسـيلة أو قـل إحـدى الوسائل وما ينطبق على البرلمان ينطبق علـى الصـحافة أيضا، فحركة الجماهير تحـاول دائمـا أن تنتـزع حقهـا المشروع في إصدار الصحف والكتابة بحريـة والسـلطات المستبدة من ناحية ثانية تحاول عرقلة هذا الحـق ووضـع العقبات المختلفة في طريقه، ولكنها أيضا تسمح بهامش من حرية الصحافة في حالات المد الجماهيري الواسع كنوع من التنفيس ولكن في حدود معين.

وفي كل الأحوال فان الصحافة تلعب دورا هامـا بـل رئيسيا في تسليح الشـعب بـالوعي وتحقيـق الظـروف الموضوعية للثورة وحشد قوى الجماهير وتحريضها وهكذا كانت الصحافة المزدهرة في ذ لك الوقت أحد العوامل الهامة التي دعمت جذور الثورة وروتها وساعدتها علـى النمـو والاتساع، ويمكننا أن نميز بين عدد من الاتجاهـات التـي عبرت عنها صحف تلك الفترة، فمنها صحف كانت تصـدر

بصورة رسمية عـن الحكومـة المصـرية مثـل الوقـائع المصرية.

ومنها صحف كانت تصدر بتشجيع وتمويل الخـديوي لتبرير سياساته والدعاية لها مثـل صـحيفة وادي النيـل (١٨٦٦ ـ ١٨٧٢) وأخرى تصدر بتشجيع الخـديوي ثـم تخرج عن هذا الإطار فتتوقف أو يمنع عنها الدعم الخديوي مثل جريدة نزهة الأفكار وثالثة تصدر بإيعاز من المسـتعمر الأوروبي المتربص سواء كان فرنسـيا أو إنجليزيـا مثـل الأهرام (١٨٧٥) ورابعة تصدر للدفاع عن قضايا الشـعب مثل(مصر ١٨٧٧) ثم التجـارة (١٨٧٨)، (أبـو نضارة) (١٨٧٧) (الوطن)

(١٨٧٧) وبديهي أنه لم تكن هناك فواصل حديدية بـين تلك الصحف – فبسـبب وجـود التناقضـات الثانويـة أو الجوهرية بين مختلف القوى كانت هذه الصـحيفة أو تلـك تتبني هذا الموقف أو ذاك، بل أن العناصر الصحفية الموالية للشعب كانت تجد طريقة أو أخرى للتعبير عن نفسـها فـي صحف القوى الأخرى، وعلى كل حال فإن الصحافة عموما لعبت دورا هاما في تكوين وبلورة رأي عام مصري قوي.

ثوريون و إصلاحيون

النموذج الثوري هو السيد جمـال الـدين الأفغـاني، والنموذج الإصلاحي هو الشيخ محمد عبده، ومازال هـذان النموذجان تؤثر آراؤهما في فكر وحركة قطاعات كبيرة من الحركة الشعبية في مصر وخارجها حتى الآن بـل أننـا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن مستقبل النهضة الإسـلامية فـي مصر والعالم العربي مرتبط بصورة كبيرة بسيادة أحد هذين النموذجين، وفي رأينا أنه إذا ساد نموذج جمال الدين فـإن المستقبل للإسلام وللشعوب ولمصـر، وإذا سـاد المـنهج الثاني، فإننا سنسقط في الما بين وسنظل نعاني طويلا جـدا وسنظل عرضة للتردد والتخبط إلى ما شاء الله،و لعل أولي الخطوات هو عملية الفصل بين هذين النمـوذجين خاصـة وأن الكثيرين يخلطون بين النموذجين وبين الرجلين علـى اعتبار أن الشيخ محمد عبده، هو تلميذ الأفغـاني أو هـو امتداد له وهذا غير صحيح نعم إنه تلميـذه ولكنـه لـيس امتـدادا لـه، هـذا مـنهج وذاك مـنهج، النهج الأول يعمل من خلال الشعب والثـورة والجمـاهير،

والثاني يعمل من خلال التعاون مع القوى الحاكمة، سـواء كانت حكومات مستبدة أو سلطات احتلال، أو حتى ثورة في حالة صعود، ولا يعني هذا بأي حال مـن أي الأحـوال أن المنهج الثاني خائن أو عميل، ولكنها رؤية في العمل، نراها غير صحيحة ولكنها غير خائنـة، الـنهج الأول يـرى أن الثورة والعمل الثوري هو الطريق إلـى انتـزاع الحقـوق وتربية الفرد؛ لأن الفرد المسلم لا يتربـى ألا فـي خـلال الصراع وعلى وهج الثورة، والنهج الثـاني يـرى البـدء بالتربية، فإذا ما تم تربية الشـعب أمكـن الـتخلص مـن السلبيات بما فيها الاستبداد والاحتلال وغيرها، وهذا بالطبع قول خاطئ؛ لأنه من البديهي أن قوى لاستبداد والاحـتلال تعمل على إفساد الشعب ولن تترك دعاة التربية يمارسـون عملهم بحرية، أي أن المسألة تحتاج لصراع أيضا من أجل هذه التربية وهنا لابد من العمل الثوري لحسم هذا الصراع ثم أن الله تعالى يقول في كتابة العزيز ﴿ والـذين جاهـدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ أي إن الهداية ذاتها ستأتي من خلال الحركة والجهاد والثورة وليس العكس.

نعم الفرق بين المنهجين هو الفرق بين مـن يعمـل للثورة عن طريق جماهيرها الطبيعية وبين يعمل للإصـلاح عن طريق الحكام وهم أصلا سبب الفساد، أن هـذا الفـرق يتضح جليا بين المنهجين، منهج الثورة ومـنهج الاعتـدال والتردد والتربية، فالأفغاني مثلا يعنف الشيخ محمد عبـده قائلا :" تكتب لي ولا تمضي" أي توقع "وتعقد الألغاز، وما الكلاب كثرت أو قلت)[٢] وذلك في إطـار انتقـاد الأفغـاني لغموض محمد عبده وتردده وعدم وضوح تفكيره وإكثـاره من الحديث عن قوة الخصم، وعندما يكتب الشـيخ محمـد عبده إلى السيد جمال الدين بعد هزيمـة الثـورة العرابيـة يقترح عليه:" أن نهجر السياسة ونذهب إلى مهجـر مـن مهاجر الأرض لا يعرفنا منه أحد نختار عشرة من الأذكياء نربيهم على منهجنا، فإذا أتيح لكل مـنهم تربيـة عشـرة آخرين لن تمضي بضع سنيين أخرى ألا ولدينا مائـة قائـد من قواد الجهاد في سبيل الاصطلاح ".

ويرد الأستاذ الأفغاني على الشيخ محمد عبده قائلا:" إنما أنت مثبط، نحن شرعنا في العمل ولابد من المضي فيه مادمنا نرى منفذا [٣]

ومادام مستقبل نهضة الأمم الإسلامية عموما ومصر خصوصا، مرتبط بشكل كبير بسـيادة أي مـن الاتجـاهين السابقين داخل حركة الشعب المسلم، كان من الطبيعـي أن تحاول العديد من القوى البريئة والخبيثة خلط الأوراق بـين المنهجين وبين الرجلين، فإذا كانت مسألة احترام العقل مبدأ إسلامي أصيل فليكن احترام العقل من سمات محمد عبـده وحده ولابد من جعل الأفغاني وكل رموز المـنهج الثـوري ضد العقل والعقلانية،وهو كلام غير صحيح طبعا .

وفي الحقيقة فإن محمد عبده كان يحترم العقل إلـى حد بعيد وهذا أمر جيد إذا ما وضع في إطـاره الصـحيح، والإسلام دين العقل لاشك في ذلك. والدعوة إلـى التفكيـر والتدبر فريضة إسلامية.

ولكن من قال إن هذا الأمر قاصرا على محمد عبـده، إن احترام العقل أمر جوهري في فكـر وسـلوك الأفغـاني ومدرسته ومنهجه، والأفغاني أسـتخدم أرقـي الأسـاليب الفكرية في الرد على الدهريين، ودعا دائمـا إلـى العلـوم الطبيعية، بل وقام بتدريسها في الأزهـر أو فـي حلقـات الدرس التي كان يعقدها في أكثر من مكان وأسـتخدم فـي

دروسه أسلوبا عقليا متميزا سواء في تدريس العقيدة والفقه أو تدريس التاريخ أو تدريس الفلك والرياضة والطبيعة والشيخ محمد عبده نفسه يصفه بقوله: إن حديثه كان ينير العقل، ويطهر العقيدة ويذهب بالنفس إلى معالي الأمور[٤]

وفي الحقيقة فإن احترام العقل والاهتمام بالعلم لم يكن أمرا أبتكره الشيخ محمد عبده أو السيد جمال الدين الأفغاني، ولكنه كان أمرا ملازما للإسلام عموما وللأزهر خصوصا.

فالعلوم الطبيعية كانت تدرس بالأزهر دائما منذ نشأته وفي الفترة التي سبقت الحملة الفرنسية يحدثنا الجبرتي عن عدد كبير من علماء الأزهر كانوا أساتذة في علوم الفلك والطبيعة والكيمياء، وكيف أن التلاميذ من أوروبا كانوا يفدون عليهم بغرض التعلم والتتلمذ؟ وحتى بعد الضربات القاسية التي وجهها محمد علي إلى الأزهر ظل الأزهر محافظا على تقاليده في نشر العلوم الطبيعية بالإضافة إلى العلوم الدينية؟ وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها وهي تفرض نفسها لدرجة أن رفعت السعيد [٥] وهو

ماركسي !! يضطر إلى الاعتراف " بأنه كانت هناك حركـة تموج وسط علماء الأزهر تدعو إلى دراسة العلوم العصرية والعقلية،وقد قاد تلك الحركة الشيخان العطار والطويل، بل اعتبرا العلوم العلمية في حقيقتها علـوم إسـلامية نقلهـا الأجانب إلى لغاتهم عن الحضارة الإسلامية " إذن فمسـالة احترام الفعل ليست قاصرة على المنهج الإصلاحي بل هـي أشمل من ذلك وأشمل أيضا من المنهج الثوري، وهي إحدى خصائص الإسلام عموما والأزهر خصوصا.

على أنه ينبغي علينا أن نـدرك أن رؤيـة المـنهج الثوري لهذه المسألة أكثر شمولا وإيجابيـة فهـي ليسـت مسألة منفصلة بل ترتبط بغيرها من العوامل ويجب وضعها في إطارها الصحيح من حيث النصوص الشرعية والمصالح المرسلة بحيث تؤدي إلى النهضة استنادا إلـى خصائصـنا الحضارية والذاتية أما نظرة المدرسة الاصـطلاحية لهـذا الأمر بشكل منفصل تؤدي حتما إلى الذوبان الحضاري ولن تؤدي إلى النهضة بأي حال من الأحوال، وإذا كان الشـيخ محمد عبده قد دافع دفاعا عقليا عظيما عن الإسـلام ضـد فئات المستشرقين فهذا أمر عظيم، ولكن يجب النظر بحـذر

إلى مواقفه السياسية وخاصة في مواقفـه مـن الاحـتلال الإنجليزي وعلاقته باللورد كرومر حتى ولو كان أتخذ هـذا الموقف أو ذاك من أجل إطلاق يده في الاصطلاح؛ لأنه بتلك المواقف وهذه العلاقـات قـد نسـف الأسـاس الصـحيح للإصلاح، وفي الحقيقة فإن الجمود الـذي أبتدعـه بعـض المشايخ كان مرتبطا بالحكام المستبدين وينفذ لحسابهم عن طريق هؤلاء المشايخ المرتزقة الذين كانوا يعرفون ويعرف سادتهم المستبدون أن نشر الإسلام الصحيح كفيل بإنهـاء خضوع الجماهير لظلمهم واستبدادهم.

وفي الحقيقة أيضا أن هؤلاء الداعون إلـى الجمـود كانوا دائما ملفوظين خارج زمرة العلماء، وأن كل علمـاء الأزهر مهما كانت درجة ثقافتهم الدينيـة أو العصـرية أو رؤيتهم الشرعية أو مذاهبهم الفقهية كانوا دائما مع نشـر العلوم الطبيعية والعصرية وعلى سيل المثال فإنه في ذلـك الوقت أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشـر كـان الشيخ الأنبابي شيخ الأزهر يجيز تعلـم تلـك العلـوم بـل ويعتبرها واجبا وكذلك كان الشيخ محمد بيرم أشهر علمـاء

جامع الزيتونة يرى الرأي نفسه بل ويلجأ إلى نشـره عـن طريق استقاء الشيخ الأنبابي فيه [٦].

***

إذا أخذنا في الاعتبار أن حركة الأفغـاني ومدرسـته التي امتدت في الزمان والمكان كانـت وراء العديـد مـن الثورات الإسلامية في مصر والعالم العربـي والإسـلامي، وكذلك وراء حركات المقاومة السلمية والمسلحة للاستعمار في المنطقة لأدركنا على الفـور أن التقيـيم الموضـوعي للأفغاني وحركته ومنهجه ضروري وحيوي لمستقبل العمل الإسلامي ومستقبل الشعوب الإسلامية والعربيـة ومصـر خصوصا، ولأدركنا أيضا لماذا كانت هناك دائما محـاولات للإفراط أو التفريط في حق هذا الرجل وهـذه الحركـة، و الاستعمار يدرك بالطبع هذا الدور الهام الذي لعبته مبـادئ الأفغاني ومدرسته وتلاميذه في تفجير الثورة العرابية وفي كفاح الحزب الوطني في مصر قبل ثورة (١٩١٩)ن وفـي التأثير على الحركات الإسلامية عموما بعد ذلـك، ويـدرك أيضا أن تلك المبادئ وهؤلاء التلاميذ لعبوا دورا هاما فـي

كفاح شعوب المغرب العربي ضد الاستعمار الفرنسي، وفي كفاح شعب ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي، وفي تفجير الثـورة الجزائرية سنة (١٩٥٤) والثورة الإيرانية سـنة (١٩٧٩)، إذن فهو أثر ممتد في الزمان والمكان، وكان لابد من العمل على تطويقه على أكثر من محور، فإذا كان الأفغاني قد قدم نموذجا فذا وبرنامجا صالحا وتحليلا موضـوعيا لأسـباب تخاف المسلمين، وإذا كانت كل حركات الرجـل وبرامجـه وتحليلاته تنطلق من الإسلام فلابد من إلقاء شبهات حـول الرجل داخل الحركة الإسلامية باعتبارها الوعـاء الطبيعـي لتلك الأفكار.

ولابد أيضا من تشويه الإسلامية الناضجة والإيجابية التي قدمها الرجل، وهكذا التقط عملاء الاسـتعمار الخـيط وقالوا أن الأفغاني رائدا للقومية العربية !!

ولم يكن هذا الكلام مقدم إلى القوميين بالطبع ولكنـه كان مقدما إلى الإسلاميين لينفروا من الرجل، فـالقوميون العرب لا يمتون للرجل بصلة وهو أيضا لا يمت لهم بصـلة على مستوى المبادئ بل وعلى مستوى الجنسـية ذاتهـا، وحركة الرجل اشتملت على النضال في أكثر من مكان مثـل

أفغانستان وإيران ومصر وتركيا، وهناك أيضا من يقول إنه رائد القومية المصرية، والرجل بالطبع لم يخطر بباله شيئًا من هذا، وكل جهود ه وتحليلاته ومواقفه كانت مـن أجـل الشعوب الإسلامية عموما ومصر من ضـمنها، وإذا كـان لمصر خصوصية عند الرجل فبسبب ثقلها الإسلامي وأملـه أن تكون نواة للنهضة الإسلامية المرتقبة، وهناك من يقول أنه كان نصيرا للمستضعفين وكانت ثورته وحركته طبقية، وبديهي أن الإسلام ينتصر للمستضعفين، وكـون الأفغـاني كان نصيرا للمستضعفين فهذا يؤكد إسلاميته ويؤكد فهمـه الصحيح للإسلام وفي الحقيقة فإن مثل هـذا الكـلام عـن الأفغاني يجعلنا نزداد تمسكا به كرمز إسلامي صحيح، فلـو لم يكن الرجل عظيما لما تمسح به دعاة القومية المصـرية أو القومية العربية أو دعاة اليسار، وبعيدا عـن الغـرض المشبوه الذي يستهدفونه "وهو تنفير الإسلاميين منه" فإننا نفهم المسألة ببساطة؛ لأن حركة الثورة الإسـلامية تفيـد بالقطع مصر والعرب ولكن لا تقتصر الفائدة علـى مصـر والعرب بل على المسلمين جميعا وعلى كل المستضعفين في الأرض، بل إننا نؤكد أنه لا سبيل لنهضة مصر والعـرب إلا

بالإسلام ولا أمل في نصرة المستضعفين ألا بالإسلام أيضا، وإذا كان الجميع قد تمسح بجمال الدين ،فهنـاك موقفـان يستحقان التأمل ،الأول هو هجوم لـويس عـوض عليـه وإلصاق كل ما هو سيء ومريب بالرجل، وإذا كان لـويس عوض يكره كل ما هو إسلامي أو عربي أو مصري، بحكـم أنه ربيب إرساليات التبشير الصليبي وأكبر دعاة الاستعمار في مصر والمنطقة كامتداد لسلامة موسي وأسـتاذا لغـالي شكري، والثلاثة معا يشكلون الجهاز الإعلامي للاسـتعمار الصليبي في المنطقة، فإن هجوم لويس عوض على السـيد جمال الدين يدل دلالة قاطعة على مد الحقد الصليبي علـى جمال الدين والموقف الثاني الذي يستحق التأمل والأسـف هو موقف بعض الإسلاميين الأغبيـاء مـن جمـال الـدين بدعوى انتمائه للماسونية دون مناقشة المسألة في إطارها الزمني.

وبداية فإننا نقرر أن الماسـونية حركـة مشـبوهة ومعادية للإسلام ومرفوضة جملة وتفصـيلا وذات صـلة وثيقة بالصهيونية ولكن متي عرفنا هذا واكتشـفنا هـذا،و لنوضح المسألة أكثر فإن هنـاك الآن فـي طـول العـالم

وعرضه حركات الدفاع عن حقوق الإنسان ومنظمات للدفاع عن حقوق الإنسان وبديهي أن من المرغوب فيه الاستفادة من تلك المنظمات والحركات لوقف أو تقليل عمليات القمـع والتعذيب وانتهاك حقوق الإنسان التي تقع على المجاهدين المسلمين في كثير من البلاد والمواقع، وبديهي أيضا أن من المرغوب فيه أن ينضم إلى تلك المنظمات عدد من المفكرين أو الزعماء المسلمين أو ينشئوا فروعا لها فـي بلادهـم، ولأن المجاهدين المسلمين هم الأكثر تعرضا؛ لانتهاك حقوق الإنسان؛ ولأن الإسلام يؤكد على تلـك الحقـوق ويـدعو المسلمين للانتصار لها في بلادهم وفي غيـر بلادهـم بـل ويدعو إلى نصرة غير المسلمين الذين يتعرضون لانتهـاك حقوق الإنسان في بلادهم على يد حكامهم أو مسـتعمريهم، فمن البديهي أن دعم هذه المنظمات واجب إسلامي ولكن إذا ما ثبت فيما بعد أن تلك المنظمات المهتمة بحقوق الإنسـان لم تكن في الحقيقة ألا قفازا في يد الصهيونية أو الأمريكان أو غيـــرهم هـــل نـــدين كـــل مـــن أنضـــم إليهـــا من المسلمين أو دعمها أو استفاد بدعمها في تحسين فـي ظروف جهاده، بالطبع لا، وسيظل موقف هؤلاء مشـروعا

ومرغوبا طالما لم نكتشف أن تلك المنظمـات ذات صـلات مريبة بدوائر الاستكبار العالمي، وهذا هو بالضبط موقـف السيد جمال الدين، فقد كانت الماسونية فـي تلـك الفتـرة ترفع شعار الدفاع عن الحريات، حريات الشعوب والأفـراد وتدعو إلى الإخاء والمساواة وحاول السيد جمـال الـدين الاستفادة منها دون أن يفرط في دينـه أو عقيدتـه، فلمـا أكتشف عدم جدوى ذلك نفض يده منها ولم تحاول هـي أن تتمسك به أو تغريه بالبقاء فيها؛ لأنها كانت تعرف أنه غير قابل للتطويع، وليس هذا فحسب بل واستفاد جمال الدين من أساليبها في التنظيم والدعاية وهذا طبعا مشروع ومرغوب وهو من باب الاستفادة مثلا من أسـاليب عمـل أو كفـاح الشعب الفيتنامي ضد أمريكـا أو المنظمـات اليسـارية أو اليمينية أو القومية في أي مكان من العالم، وعملية التنظيم ووسائل الدعاية من العلوم الواجب تحصيلها شرعا وعقلا.

لعله من الأمور الحيوية للحركـة الإسـلامية المعاصرة في العالم الإسلامي عموما، وفي مصر خصوصا دراسة حركة جمال الدين الأفغاني علـى مسـتوى الفكـر والتكتيك السياسي، ولعله من الحيوي أن تكون تلك الدراسة

شديدة الموضوعية لأن أي خطأ فيها يمس مستقبل الحركة الإسلامية وبالتالي مستقبل الأمة والمستضعفين في العـالم ،وما يتم عمل هذه الدراسة فإن كثيرا من الوقت سيضـيع وكثيرا من القضايا ستظل بلا حسم وكل هذا يعطل ويؤخر مسيرة العمل الإسلامي، وإذا حاولنا أن نستخلص البرنامج السياسي لجمال الدين الأفغاني من خلال أقوالـه ومقالاتـه نجد أنه كان يرى أن المسلمين قد فسدوا بالجهل، ولابد من ثورة للإصلاح الإسلامي وإلا هلـك المسـلمون ،أن آفـة المسلمين هي حكامهم الطغاة المتناحرون الذين بـاعوا دار الإسلام لأوروبا أو مهدوا بطغيانهم وخلافـاتهم وجشـعهم للأوروبيين أن يتغلغلوا فـي دار الإسـلام، وأن يسـيطروا عليها، أن الحل يكمن في العودة إلى الإسلام الأصـيل فـي نقائه الأول أيام حكم الخلفاء الراشـدين قبـل أن تفسـدها الخلافات الدنيوية المتعاقبة ، أن الإسلام دين يـدعو إلـى التحرر من الجهل والخرافة والكسل ويفتح الباب واسعا أمام العلم الذي به يكون تقدم المسلمين إذا أرادوا الخروج مـن تخلفهم وانحطاطهم، وأن الإسلام دين عمل وسعي ولـيس دين تعود وتنبلة تحت ستار التعبد ، أن الله لا يغير ما بقوم

حتى يغيروا ما بأنفسهم وعلى هذا فإن خلاص المسـلمين مرتبط بمبادرتهم وأعمالهم ، أن الإسلام يعطي حق الثورة للمسلمين على حكامهم الطغاة الفاسـدين حتـى لا ينتشـر طغيانهم وفسادهم كالغرغرينه في أوصال أمة الإسـلام، أن الإسلام أمة واحدة رغم اختلاف أجناسها ولغاتها، وهذه هي العروة الوثقى، وهذه كانت حالة أمة الإسلام أيام مجدها ثم تفتت بالانحطاط والتخلف والاستبداد ومنازعـات حكامهـا الفاسدين الطغاة، وعليهـا أن تعمـل لاسـترداد وحـدتها الضائعة، فبهذا يمكن للعالم الإسلامي أن يثبت أمام أوروبا، وإذا تأملنا التحليل السابق نجد أن الأفغـاني أسـتطاع أن يحلل واقع المسلمين في ذلك الوقت تحليلا دقيقا وشـجاعا ويحدد الطريق الصحيح لعلاج هذا الواقع وتحقيق النهضة، وإذا كنا قد اتفقنا على أن تقييم أي شخص أو موقف يتوقف على موقفه من ثلاثة أشياء هي الحرية، الجهاد، الوحدة.

فمن كان مع هذه الثلاثة أشياء فهو يعمـل لصـالح الإسلام والمسلمين والعكس صحيح تماما فإن الأفغاني كان ولا شك أكبر دعاة الحرية بل ويعتبر الاستبداد هو أسـاس الفساد والتخلف وسبب نكبة المسلمين، وهو أيضا يدعو إلى

الجهاد وترك القيود والتنبلة والكسل، وهـو أكبـر دعـاة الوحدة الإسلامية، بل هو يقدم موقفا ناضجا ومسئولا فـي هذا الأمر فهو مع الوحدة ومع الخلافة ولكن ذلك لا يمنـع من التصدي لعوامل الفسـاد والاسـتبداد داخـل الخلافـة العثمانية مدركا أن نضاله هـذا إنمـا يقـوى الخلافـة ولا يضعفها؛ لأن ما يضعفها حقا هو السـكوت علـى الفسـاد والاستبداد بداخلها، وكان جمال الدين يعرف من هم حلفـاء الإسلام الطبيعيين ومن هم أعداؤه الطبيعيين أيضا، وكـان يعرف على من يعتمد أساسا، كان يعرف أن الفلاح المصري هو خزان الإسلام الثوري الذي لا ينضب وكـان يعـرف أن أعداء الإسلام هم أوروبا الاستعمارية، والأسرة الخديويـة والمتعاونين معها من الأرستقراطية الزراعية التي نشـأت نتيجة للتكتيكـات الاسـتعمارية والممارسـات السياسـية والاقتصادية للأسرة الحاكمة وللنفوذ الاقتصادي الأوروبـي في مصر.

وهكذا لم يكن عجيبا أن يهتم الأفغاني اهتماما شـديدا بالفلاح بل ويحرضه هو شخصيا على الثورة قائلا " أيهـا الفلاح يا من تشق الأرض بفأسـك لمـاذا لا تشـق رأس

ظالميك " ولم يكن عجيبا أن يهتم تلاميذ الأفغاني بتوعيـة الفلاحين وتحريضهم فها هو عبد الله النديم يجـوب قـري مصر قرية ويجند معه كثير من علمـاء الأزهـر الصـغار والمتوسطين لتوعية الفلاحين وحشدهم في أتون المعركـة عن طريق الخطابة والصحافة والعلاقـات الشخصـية، وإذا كان الأفغاني قد أعتبر الفلاح المصري هو خـزان الثـورة الإسلامية الأساسي فإن ذلك لم يمنع الأفغاني أيضا من حشد فقراء المدن من الصناع والحرفيين ولم يمنعه أيضـا مـن حشد الموظفين والتجار؛ لأن كـل هـؤلاء كـانوا خـارج المعسكر الاستعماري؛ لأن الاستعمار لم يكن يريد ولا يرغب في ظهور قوة صناعية أو تجارية مصرية بل أهـتم دائمـا بضرب تلك الثورة وأصر على أن تكـون الصـناعة بيـد الأجانب والتجارة بيد الأجانب، وهكذا أستطاع الأفغـاني أن يحشد كل القوى التي تقف خارج المعسكر الاستعماري فـي مواجهة كل القوى الاستعمارية أو المرتبطة بالاسـتعمار أو المتحالفة معه.

ولم يكن عجيبا أن تجد أن دروس الأفغاني يحضرها الفلاح والعامل والموظف والتاجر، بل أن كبير تجار القاهرة

كان من أهم وأكبر تلاميذ الأفغاني وهو السيد موسي العقاد ثم نجله السيد حسن موسي العقاد الذي كانت تبلغ أموالـه السائلة ١٠ ألف جنيه عدا الأطيان والعقارات التـي تبلـغ أضعاف هذا المبلغ،وقد أنفق كل هذه الأموال على الثـورة العرابية وأنتهي به الأمر فقيرا منفيا ، كان الأفغاني قـادرا على حشد كل القوى الشريفة والموالية للإسلام وكان قادرا حتى على الاستفادة من الإصلاحيين مثل الشيخ محمد عبده فقد استفاد الأفغاني بقلمه وعقله وعلمه ووضع كل ذلك في خدمة قضية الإسلام والثورة، ليس هـذا فحسـب بـل أن الأفغاني أستطاع أن يقدم صيغة عظيمة لحشد كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية في مواجهـة التحـدي الحضـاري الأوروبي، حتى ولو لم يكن مسلما، ولم يكن عجيبا أن نجد في معسكر الثورة الإسلامية الكثير من الأقباط المصـريين والمسيحيين الشوام أو غيرهم وحتى بعض اليهـود مثـل يعقوب صنوع، ولا شك أن قدرة الأفغاني على تقديم صيغة نضال إسلامي تحشد كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية يعد عملا عظيما ورائعا يحتاج إلى الدراسة والاستفادة منه ، نعم لقد كان الأفغاني ثائرا إسلاميا فـذا، وكـان إجابـة

صحيحة وعلمية على التحديات التي يواجهها المسلمون في عصره، واستطاع أن يحدد الداء والدواء وأن يفرز القـوى في معسكر الإسلام والقوى التي تقف في معسكر الأعـداء، واستطاع أن يحشد تلك القوى بل ويضم إليها كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية من غير المسلمين.

وبسبب هذا كان الأفغـاني موضـع احتـرام كافـة المؤرخين من مختلف المدارس والاتجاهات السياسية اللهم ألا لويس عوض ربيب الاستعمار الصليبي ولعـل موقـف لويس عوض هذا يؤكد عظمة الأفغاني، يقول رفعت السعيد مثلا "وإذا كان بإمكان فرد واحدا أن يصبح عنصرا فعالا في حياة أمه، فإن هذا الفرد هو الأفغاني، فقد كـان شخصـية ثائرة مفكرة شجاعة واعية، واستطاع أن يعبئ كل القـوى الساخطة خلفه" (٧).

ويقول الرافعي: "إن الأمم الشرقية جمعـاء مدينـة بنهضتها السياسية والفكرية إلى الزعيم الكبير والفيلسـوف الشهير السيد جمال الدين الأفغاني" (٨).

ويقول أيضا "إن الأفغاني أدي المهمة التي قام بهـا في أوروبا فلاسفة الفكر أمثال جان جاك روسو ومونتسكيو

وغيرهما، فعمل على إنارة البصائر وتوجيه الأفكـار إلـى البحث عن الحقائق وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد " [٩]، "وأنه من الوجهة السياسية استنهض الهمم وأستثار في النفوس روح العزة والكرامة والتطلـع إلـى الحريـة وغرس بذور الحركات الوطنية في مختلف البلاد الشـرقية وقام بمثل العمل الذي قام به زعماء النهضات السياسية في الغرب كواشنطن وغاريبالدى ومازيني " [١٠]، "وأنه مـن الناحية الدينية أدي مهمة الإصلاح والتجديد التي أدي مثلها مارتن لوثر للمسيحية" [١١].

وبالطبع فإننا وإن كنا نقدر لكل من رفعـت السـعيد والرافعي بإشادتهما بالسيد جمال الدين، إلا أننا نؤكـد أنـه بالنسبة لأقوال الرافعي فإن الظـرف الـديني والسياسـي والفكري والتاريخي الخاص بجمال الدين يختلف عن هؤلاء الذين شبه الرافعي جمال الدين بهم.

وبالنسبة لرفعت السعيد فإننا نختلف معه في إغفـال الظروف الموضوعية التي جعلت الأفغاني يحقق كـل هـذا الأثر، فلو لم تكن هذه الظروف الموضوعية مواتية لما كان للأفغاني قد حقق كل هذا الأثر، وفي الحقيقة فإن علينا الآن

أن نعطي التقييم الصحيح والموضوعي للسيد جمال الـدين، فمما لاشك فيه أنه كان يتمتع بصفات شخصية فريدة مـن ذكاء وحماس، وقدره على الإقناع وسعة علمه، وقدرة على الحشد السياسي والجماهيري ونزاهة وتجرد للحق وغيرها من الصفات.

ومما لاشك فيه أنه قدم تحليلا شجاعا وافيا لأحـوال المسلمين في تلك الفترة، ومما لا شك فيه أنه أسـتطاع أن يحشد كل القوى الإسـلامية أو المنتميـة إلـى الحضـارة الإسلامية في مواجهة المعسكر المعادي للإسلام، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن الأفغاني لم يخترع كل هذا ولم يأت بـه من فراغ، ولكنه كان حلقة من حلقـات الكفـاح الإسـلامي الطويل والممتد في الزمان والمكان، وأنه في عصر الأفغاني وبالتحديد في مصر كانت هناك حركة عقلية واسـعة فـي الأزهر، وكانت هناك حركة تعليمية يقوم بها علماء الأزهر الصغار والمتوسطين في الريف المصري والمدن بـدليل أن عرابي يؤكد في مذكراته أن أكثر من نصف أهل قريته كانوا من المتعلمين وكانت هناك أيضا نهضة أدبية وعلمية تعمل رغم أنف الاستبداد والاختراق الأوروبي، وعلينا أن نتأكـد

دائما أن كفاح أمة الإسلام لم ينقطـع يومـا مهمـا كانـت الظروف، وأن هذه الأمة لم تمت، ولن تموت بإذن الله، وأن أحدا كائنا من كان لم يبعث هذه الأمة من المـوات ولكـن زعماء الإسلام الثوريين كانوا دائما ضميرا لهذه الحركـة، ولم يكونوا أبدا مخترعيها، وأن جمال الدين ومـن بعـده، ومن قبله لم يعملوا في أمة ميتة، بل كانوا مجرد تعبير عن حركة الكفاح الإسلامي، وأنهم أعطوا تلـك الحركـة مـن صفاتهم الشخصية ما جعلها تزداد اتقادا وتأججا.

ثقافة الجماهير وثقافة السلطة

والنموذج الأول يتمثل في عبد الله النديم، والنمـوذج الثاني يتمثل في رفاعة الطهطاوي، وبين النموذجين فـرق كبير، هو الفرق بين الجماهير المسـلمة وبـين السـلطة المستبدة الظالمة، الأول يعيش مجاهدا ويموت فقيرا والثاني مرتبط بالسلطة أشد الارتباط يبشر بأفكارها ويـدافع عنهـا ويبرر لها ولا مانع أن يبحث في التراث عن نصوص تعطي الشرعية لهذه الأفكار والمواقـف، ألـيس المطلـوب هـو تمريرها وإقناع الناس بها؟!

وهكذا نجد الطهطاوي ينشـر الأفكـار الاشـتراكية ويسوغ ملكية الدولة لوسائل الإنتاج وينقل مـن التجـارب الأوروبية كل ما يفيده في هذا الموضوع ويحاول أن يجـد لها سندا شرعيا وذلك كله في ظل حكم محمد علـي الـذي احتكر الصناعة والتجارة وهيمن على كل وسائل الإنتـاج، وتأتي مؤلفات الطهطاوي في ظل حكم محمد علي كنوع من التسويغ والتبرير والدعاية لممارسات الباشا محمـد علـي الاقتصادية، ويغفل بالطبع الحديث عن الحرية والدسـتور، وغيرها من المبادئ والأفكار التي تلائم حكم محمـد علـي

المستبد، وهو يبرر أيضا الانفتاح على الغرب على طريقـة محمد علي، فإذا ما ذهب محمد علي وجاء عبـاس، الـذي حاول أن تقليص النفوذ الأجنبي تجد السلطة أنهـا ليسـت بحاجة إلى الطهطاوي، فيتم نقله إلى السودان، فـإذا هـو صامت لا يقول شيئًا اللهم إلا إرسال الاسـتعطافات؛ حتـى ترضى السلطة عنه، ويعود إلى مصر؛ فإذا ذهـب عبـاس وجاء سعيد وإسماعيل وكان الوقت وقـت الحـديث عـن الليبرالية الاقتصادية والسياسية والانفتـاح الثقـافي علـى الغرب كان الطهطاوي جاهزا للحديث عن الدستور والحرية في المجتمع الأوروبي، وهو الأمر الذي يتفق مع ما يريـده الخديوي إسماعيل، ولم يعد هناك حاجة إلى الحـديث عـن ملكية الدولة لوسائل الإنتاج، وبالتالي لم يتحدث الطهطاوي عن الأفكار الاشتراكية في أوروبا في عصر إسـماعيل؛ لأن السلطة لا تحتاج إلى ذلـك، وهكـذا كـان فكـر وثقافـة الطهطاوي في خدمة السلطة وحسب هواها، وبالطبع كـان الطهطاوي يحصل في مقابل ذلك على الإنعامات، بحيث أنه مات، وقد ترك إرثا ماليا كبيرا يتمثل في ٢٥٠٠ فدان غير العمائر والمباني، وقد حصل عليها كالتالي: ٢٥٠فدان مـن

إنعامات محمد علي ٢٠٠ من إنعامات الخـديوي سـعيد و ٢٥٠ فدانا من إنعامـات الخـديوي إسـماعيل ويشـتري بالإضافة إلى ذلك ٩٠٠ فدان وهو المنحدر من أسرة فقيرة ولم يكن يملك شيئًا قبل التحاقه بقطار السلطة وعمله لديها وتطويع ثقافته من اجل تبرير سياستها، وبالطبع فإن أفكار الطهطاوي المتناقضة لم تكن تجد أي صدى لدى الجماهير، ولم تشكل أي شكل من أشكال التأثير على الجماهير في ذلك العصر أو فيما بعده، فالجماهير المسلمة في مصـر كانـت ترفض ثقافة السلطة التي ترفع راية الاشتراكية عندما تريد احتكار الثروة مثل محمد علـي أو الليبراليـة الاقتصـادية والسياسية في عصـر إسـماعيل أو زرع فكـرة القوميـة المصرية والإشادة بمجد المصريين القـدماء "الفراعنـة" عندما يكون هناك صراع مع الخليفة العثماني سـواء فـي عهد محمد علي أو في عهد إسماعيل حول زيادة السـلطة المتاحة للباشا أو للخديوي فـي مصـر وزيـادة هـامش الاستقلال القانوني والفعلي للسلطة في مصر عـن الدولـة العثمانية، وكان الطهطاوي جاهزا في كل مرة ليدافع عـن الاحتكار ثم ليـدافع عـن نقيضـه "الليبراليـة السياسـية

والاقتصادية" أو للإشادة بمجد المصـريين القـدماء وزرع فكرة القومية المصرية، ومن العجيب أن ينبري بعض دعاة اليمين واليسـار للإشـادة بالطهطـاوي واعتبـاره رائـدا للاشتراكية أو رائدا لليبرالية أو رائدا للقوميـة المصـرية، فهل يصح أن يكون رائدا لكل المتناقضات! وهل يصـح أن تصبح الثقافة المرتبطة بالسلطة المسـتبدة هـي جـذورنا الثقافية!، وهي التي لم تتعد أسوار القصور ودوائر الحكومة !!

أما عبد الله النديم فلم يستغل مواهبه من أجل جمـع المال أو شراء الأراضي، بل قدم هذه المواهب الفذة لخدمة قضايا الجماهير كان النديم يتمتع بذكاء متقد، وقدرة فائقـة على الخطابة وقلما ناريا، وقدرة فذة على الكتابة والتـأليف القصصي والمسرحي، وأنشأ العديد من الصـحف وجـاب مصر قرية قرية ومدينة مدينة ليخطب في النـاس ويقـدم للجماهير الوعي ويسـتجيب لثورتهـا ويتبنـى مطالبهـا المشروعة في العدل والحرية، وهكذا ظلت ثقافة النديم هي السائدة وماتت ثقافة الطهطاوي؛ لأن ثقافة الجمـاهير فـي مواجهة القصر والسلطة، والنفـوذ الأجنبـي، ولأن ثقافـة

النديم كانت ثقافة مستمدة من وجدان الجماهير وتعتمد على الحس الإسلامي للجماهير ولم يقل يوما شيئا ثم يقول فـي الغد عكس هذا الشيء مبررا هذا وذاك كما لو كان بهلوانـا كما فعل الطهطاوي، كان النديم إذن هو ضمير الشعب وهو الوعاء الذي أحتوي على ثقافة الشعب ووجدانه، كان النديم بلا أدني مبالغة هو الزعيم الحقيقي للثورة العرابية، وكـان قادرا دائما على حشد الجماهير وتعبئتها وكانـت اسـتجابة الجماهير له رائعة دائما بعكس الطهطاوي الذي لم يعـرف الجماهير ولم تعرفه الجماهير كان النديم هو النموذج الفـذ لمدرسة الأفغاني وامتدادا عضويا لتلك المدرسة ، واستطاع أن يكون الجسر الذي تنتقل من خلاله تلك الأفكار إلى حركة الكفاح الشعبي في حلقة أخرى من حلقات الكفاح الشـعبي في مصر وهي مدرسة الحزب الـوطني مصـطفى كامـل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش ولـم يكـن عجيبـا ولا غريبا أن تقوم الجماهير بإخفاء وحماية النديم أثناء هروبه من مطاردة السلطة لأكثر من تسع سنوات برغم المكافـأة الضخمة جدا التي رصدتها الحكومة لمن يقدم أي معلومات أو يرشد عن النديم، وكان هذا موقفا يؤكد عظمـة الشـعب

ويؤكد أن الجماهير تتفاني في حماية من يعمل من أجلهـا، نعم كان النديم هو تلك الأسطورة و تلك الملحمة من النضال الشعبي في مصر، وهو الذي حمل جذور الثورة بعيدا عـن عين السلطة، ورعاها حتى لا تنطفئ بعد هزيمـة الثـورة ودخول جيوش الاحتلال إلى مصر إلى أن سـلمها للجيـل التالي.. جيل مصطفى كامل ومحمد فريـد وعبـد العزيـز جاويش، واستمرت ثقافـة النـديم مـن خـلال الحركـات الجماهيرية ، وانطفأت ثقافة الطهطاوي، وظلت قاصرة على مثقفي السلطة المستبدة ومثقفي القصور والدوائر الحكومية والمدارس الفكرية التي تعمل لخدمة الاسـتعمار بـوعي أو بدون وعـي؛ ولأن ثقافة النديم كانت ثقافة الجماهير فإنها كانت تنطلق من الإسلام شكلا ومضمونا.

يقول صابونجي في رسالة إلى بلنت في ٢٧ يوليـو سنة ١٨٨٢:" إن النديم يتحصـن فـي مناقشـاته دائمـا بالدعوى الدينية حتى لتشعر أنه أشد غيرة على الدين مـن شيخ الإسلام نفسه" (١٢)

والنديم لا يفتأ يكرر قول أستاذه جمـال الـدين " أن الإنسانية الفاضلة وأن الصراط المستقيم للسعادة لا يتحققان

بغير ""القرآن الكريم"" ولأن النـديم يعـرف أن جمـاهير الإسلام الحقيقية هم الفقراء الذين لم تفسدهم السـلطة ولا الثروة تراه يقول " لم أجد طريقا إلا بعصبية أكونهـا مـن الفقراء (١٣)،

والنديم هنا لم يكن إلا مسـتوعبا وفاهمـا للإسـلام الصحيح فالله –تعالى- يقول في كتابه الكريم في سورة هود ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنـا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نـرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾(سورة هود :٢٧)

وهذه الآية توضح أن قوم نوح عليه السلام قـالوا له: إنه لا يتبعه إلا الأراذل أي الفقراء والمستضعفين، وهي أيضا توضح أن الفقراء والمستضعفين هم جماهير الإسـلام الصلبة التي لا تسقط في منتصف الطريق بل تقاتـل حتـى النهاية،وقد كان النديم هنا يستند في تحليله إلـى التـراث الإسلامي، ويعرف أن الفقراء هم جماهير الثورة الحقيقيـة وبالفعل ثبت فيما بعد صحة تحليل النديم فلم يقـف خلـف الثورة العرابية حتى النهاية إلا الفقراء والمستضعفين، وإن كان هذا لم يمنع من صمود عدد من الأغنياء مع الثورة إلا

أنهم انفقوا أموالهم على الثورة وخرجوا منها فقراء مثـل السيد حسن موسي العقاد كبير تجار القاهرة فـي حـين أن معظم الأغنياء والوجهاء ترددوا أو خانوا الثورة في مراحل مختلفة والنديم يهاجم حياة البذخ قائلا " أن الذين ينعمـون بثياب العز ويتمتعون بأسباب المتعة وينعمـون بـالمراقص والغانيات والمغنيات وينفقون الأموال عن اليمين والشمال، وما هي في الحقيقة إلا أموال الفلاحين الفقراء الـذين هـم أساس النعمة والإنتاج يحققونها بعرقهم ودمائهم ليأخـذها الأغنياء ويبعثرونها على ملاذهم ومتاعهم".

والنديم هنا ينطق من التراث الإسلامي فنفس المعنى قاله الأمام علي -رضي الله عنه- ما متع غنـي إلا بمـا حرم منه فقير " وقوله أيضا:" ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع " ويمضي النديم في الدفاع عـن الفلاح واصفا حاله البائس فطعامه من السن ولباسه الثوب المهلل، بل أن النديم يصل إلى قمة الوعي عندما يطالب أن يكون البرلمان ممثلا للأغنياء والفقراء ولـيس الأغنيـاء وحدهم ويطالب بتغير نظام الانتخاب لتحقيق ذلك والنـديم يعرف أن الثروة إحدى الوسائل إلى الاستبداد والاسـتعباد

اللهم إلا إذا أنفقت في خدمة الشعب فهاهو يقول "إن إبـن الغني مولع بالاستعباد فهو يميل إلى استخدام الفقراء بـلا مقابل وضرب الضعفاء من غير أن يعارض أو يحاكم وهذا بعينه هو الاستبداد المضر بالشعب " [١٥] .

والنديم يؤكد على ضرورة الحرية مع العدل قـائلا " نعم أن الحرية لازمة للشعب، وهـو يحتملهـا ويحفظهـا ويسير بها في طريق العز، ولكن بشرط عدم تسلط الطبقية على مجاس النواب بل تشكيله من جميع الطبقـات نبهـاء ومثقفين أغنياء وفقراء وعلماء وعمال وأعيان " [١٦] أي لا تقتصر الحرية على الأغنياء والأعيان، والنـديم أيضـا يهاجم النفوذ الأوروبي ويهاجم المرابين الأوروبيين الذين انتشروا كالجرب في ريف مصر يمتصون عرق الفلاحـين عن طريق إقراضهم بالربا، كما يهاجم هؤلاء الذين راحوا يقلدون السلوك الأوروبي والأخلاق الأوروبيـة والتفكيـر الأوروبي، وكل ذلك في صورة هزلية ساخرة أو بطريقـة هجومية ناقده عن طريـق المقـال الصـحفي، والخطـب السياسية، والمسرحية والزجل والشعر وغيرها، وقد آلف النديم العديد من التمثيليات والمسرحيات في هـذا الصـدد

مثل (الوطن وطالع التوفيق)،(العرب) كمـا أصـدر أو شارك في إصدار أو تحرير العديد مـن الصـحف مثـل (التنكيت والتبكيت) (اللطائف) (الأستاذ)، وقد عبـرت تلك الصحف والأعمال الفنية التي قدمها النديم عن مفاهيم النديم الإسلامية وثقافته الجماهيريـة، وأسـتخدمها فـي توعية الشعب وتحريضـه علـى الثـورة والـدفاع عـن المستضعفين، وهكذا لم يكن غريبـا أن تكـون اسـتجابة الجماهير للنديم قوية جدا لدرجة أنه كان وراء حشد تلـك الجماهير في التوقيع على العرائض، أو مساندة الجيش في مظاهره ٩ سبتمبر(١٨٨١)، أو غيرها مـن المظـاهرات وكذلك تقديم الدعم المادي والبشري للجيش في نضاله مع الإنجليز، وإذا كان النديم ينطلـق فـي فهمـه للعلاقـات الاجتماعية وتحليلها واتخاذ موقـف منهـا مـن التـراث الإسلامي، فانه أيضا كان يستند إلى فهم الأفغـاني أيضـا للتراث الإسلامي في هذا الصدد، أليس الأفغاني هو القائـل " إن العدالة الاجتماعية لابد أن تسود العالم يوما ما؛ لأن جميع الناس من طين واحد وأن التفاضل أنما يكون بالأنفع في السعي للمجموع " وهو أيضـا القائـل " إن العدالـة

الاجتماعية ملتحمة في الدين الإسلامي ملتصقة في خلـق أهله "

" وإن أول من عمل بها هم الرسول - صـلى الله عليه وسلم- ثم أكابر الصحابة رضوان الله عليهم جميعا " وهو القائل أيضا" لولا الزرع ولولا الضرع لما كان سرف الأغنياء ولا ترف الأمراء".

وهو هنا يتفق مع النديم في نفس الرؤية، التي هي ذاتها مستمدة من قول الإمام على - رضـي الله عنـه-، والأفغاني أيضا يقول " إن الفناء يكون في خلق الله وليس في الله كما يقول الصوفية " وذلك في معرض اعتراضـه على الخرافات التي يروجها بعـض أدعيـاء التصـوف، والأفغاني هنا يدعو إلى دور اجتماعي واضح لكـل مسـلم عن طريق خدمة ومساعدة خلق الله والعطف عليهم والعمل من أجلهم، والمفاهيم التي عبر عنها الأفغاني والنديم حول العدل والحرية مستمدة - كما قلنا من الإسلام، وهي وإن اتفقت في بعض فروعها مع بعض المذاهب اليسارية فـإن ذلك من قبيل تشابه لون العيون في شخصـين مختلفـين تماما، وليس هناك شك فـي أن الإسـلام نظـام متكامـل

ومختلف في الأحوال والقواعد والأساوب عن أي مـذهب اجتماعي أو سياسي او اقتصادي ظهر أو سيظهر فيما بعد حتى ولو تشابهت بعض الجزيئات، وقد يحلو للبعض قطع الأفغاني والنديم عن جذورهما وعن مناخهما الطبيعي وهو الإسلام ويدعي هذا البعض أن كل منهما أو أحدهما كـان اشـتراكيا أو يسـاريا أو ماركسـيا أو غيرهـا مـن المصطلحات!!

وهذا طبعا أمر لا يستحق عناء الرد عليه، فالأفغاني والنديم كانا ينطلقان من الإسلام جملة وتفصيلا، وإذا كـان الإسلام كما فهمه كل منهما ينحاز هذا الانحياز إلى العدالة الاجتماعية ويدافع هذا الدفاع عـن المستضـعفين فمـن المفـروض أن يتبنـي كـل المنـادين بحقـوق الفقـراء والمستضعفين النهج الإسلامي في هذا الصدد ولا يعادونه إن كانت دعوتهم حقا من أجـل الفقـراء، خاصـة، وقـد انهارت الشيوعية في بلادها ولم يبق هناك أمل في إنقـاذ المستضعفين في العالم إلا باستلهام روح الإسلام والعمـل وفق مبادئه وأساليبه وعلى كل حال فإسـلامية الأفغـاني والنديم أكبر من أن ينكرها أحد فهاهو رفعت السعيد يعترف

بذلك صراحة بقوله " بأن كل من الأفغاني والنـديم كانـا زعيمين إسلاميين، في تفكيرهما وفـي أسـاليبهما وفـي جماهيرهما " [(١٧)]،

الأسد يبدأ في قطع الشباك

حاولت أوروبا المتربصة بأمة الإسلام، احتلال مصر مرتين، مرة في سنة ١٧٩٨ (المحاولة الفرنسية) ومـرة في ١٨٠٧ " المحاولة الإنجليزية " وفي المرتين فشـلت أوروبا الصليبية؛ لأن الجماهير المسـلمة كانـت مطلقـة السراح، فقاومت ودافعت عن مصر وهزمت المحـاولتين الأوروبيتين في أقل من عشر أعوام، وأدركت أوروبا أنـه طالما ظل الأسد طليقا فلا فائدة، كان لابد من غزل الشباك الكثيفة حول ذلـك الأسـد،حتى يمكـن السـيطرة علـي مصر،وبدأت أوروبا تغزل شباكها حول الأسد، أغرت محمد علي بالصدام مع السلطان العثماني لإضعاف قوة الطرفين، وأغرته بنظام الاحتكار، لضرب إمكانيات نشـأة صـناعة مصرية مستقلة تستند إلى الجماهير؛ ومن أجل ذلك سمحت له بإنشاء الصناعات حتى إذا ما اطمأنت إلى أن الصـناعة المصرية المرتبطة بالشعب قد تم القضاء عليهـا، جـاءت هي وقضت على صناعة محمد علي المرتبطة بنظامه عن طريق تصفية هذا النظام، وأجبرت محمد علي، على فـتح أسواق مصر أمامها، وأصبحت مصر عمليا بـلا صـناعة

فالصناعة المرتبطة بالشعب قد ماتت بفعل نظام الاحتكـار، والصناعة المرتبطة بالنظام تم تصفيتها عن طريق تصفية النظام ذاته، وأصبحت السوق المصـرية مفتوحـة علـى مصراعيها أمام الصناعة الأوروبيـة، وأكملـت أوروبـا الحلقات والشباك حول الأسد فمن ناحية كان محمد علي قد ضرب أهم مؤسسة شعبية قادرة على قيادة الجماهير فـي مقاومة الاستعمار وهي الأزهر، وضـرب أيضـا زعمـاء الشعب مثل السيد عمر مكرم وأفسد البعض الآخر بالرشوة والوظائف، ومن ناحية أخـرى جـاءت موجـات الغـزو السياسي والاقتصادي الأوروبي الصليبي لمصر متمثلا في إرساليات التبشير، ومتمثلا في البنوك، ومتمثلا فـي آلاف المرابين الذين دخلوا إلى كل مكان حتى الريف المصـري، ومتمثلا في دعم تكوين أرستقراطية زراعية تسـتند إلـى القصر وتعادي الشعب، متمـثلا فـي إغـراق الخـديوي إسماعيل بالديون التي انتهت إلى التـدخل المباشـر عـن طريق فرض الرقابة الثنائية أو وجود وزيرين أوروبيـين لمراقبة مالية مصـر، كانت أسرة محمد علي تمتلك وحدها قرابة المليون فدان، فإذا أضفنا إليها ممتلكـات الأجانـب

وبعض المرتبطين بالخديوي وصلت الملكية إلى أكثر مـن ٢,٢ مليون فدان أي حوالي ٤٤% مـن مسـاحة الأرض الزراعية في مصر؛ أي أن هنـاك أرسـتقراطية زراعيـة تتشكل من أفراد الأسرة الخديوية وعـدد مـن الأجانـب وبعض المرتبطين بهذه الأسرة وتمتلك تلك الأرسـتقراطية — التي لا تمثل سوى ١,٣ من الملاك — أكثر من ٤٤% من الأراضي الزراعية، بينما يمتلك ٨٣,٣ % من المـلاك ٢١,٧% من الأراضي " ٧٦٠ آلف مالـك يملكـون ١,١ مليون فدان بينما ١١٩٠٠ مالك يملكـون ٢,٢٤ مليـون فدان " [(١٨)] وهؤلاء الملاك الكبار يرتبطون عضويا وفكريا بالمصالح الاستعمارية ويزداد جشعهم لـلأرض بصـورة متزايدة بتشجيع من الاستعمار الذي يريد تحويل مصر إلى مزرعة للقطن والمواد الخام لسد حاجات مصانعه، وكانت هذه الأرستقراطية الزراعية عبئا على مصر حتى عنـدما أرتفع سعر القطن إبان الحرب الأمريكية ١٨٦٠ - ١٨٦٩ كان على الفقراء أن يدفعوا ثمن التضخم وثمـن ارتفـاع أسعار المحاصيل الغذائية التي لم تعد هنـاك رغبـة فـي زراعتها بسبب ارتفاع أسعار القطن، أي أن ارتفاع أسعار

القطن ملأ جيوب الخديوي والأجانب والأرستقراطية الزراعية عموما بالمال وتسبب في شقاء الفقراء في نفس الوقت.

يقول دافيد؛ لاندز:" إن مصر التي كانت دائما مصدرا للبقول والحبوب أصبحت في وضع يحتم عليها استيراد الأغذية من الخارج، وارتفعت الأسعار بسرعة فأصبح ثمن القمح ثلاثة أو أربعة أمثال ،وتضاعف ثمن الزيت والخضراوات ثلاثة مرات، وارتفعت أسعار البقول وخاصة الفول بنسبة ٤٠٠% وارتفعت أسعار لحم الضأن، وهو الغذاء الثابت للمسلمين من ٤ بنس إلى شلن في الرطل، وكان الذين أثروا بسبب رواج القطن سببا في ارتفاع الأسعار بإفراطهم في الكماليات) [١٩].

وكان بالطبع يتم إنشاء مشروعات الري والصرف واستصلاح الأراضي وشق الترع وإقامة الطرق وخطوط السكك الحديدية لخدمة هذا الشكل الإنتاجي الذي يحقق عائدا للأرستقراطية الزراعية، ويحقق مصلحة القوى الاستعمارية في نفس الوقت، وكانت الشركات الزراعية والتجارية التي تكونت لإدارة الاقتصاد المصري عموما

يشكل الأجانب في رأس مالها حـوالي ٩٦ فـي المائـة والباقي موزع بين الخديوي وحاشيته وأفراد أسرته) [٢٠] وكان عدد الموظفين الأجانب يتزايد باستمرار وخاصة في الوظائف الكبرى بحيث يقتطعون أكبر جزء ممكن المرتبات الأميرية، كما تزايد عدد الأجانب العاملين فـي الشـركات والبنوك الأجنبية التي غطت مصر كلها حتى أصغر قريـة، وإذا كان عدد الأجانب لم يتجاوز مائه أجنبي عندما جـاء بونابرت إلى مصر سنة ١٧٩٨، وكانوا يعاملون معاملـة قاسية ويعيشون في أحياء مغلقة، ولا يخرجون من حارتهم إلا في ملابس خاصة مميزة، فأن هذا العدد أخـذ يتزايـد بحيث أنه دخل البلاد في الفترة من ١٨٥٧ ـ ١٨٦١ أكثر من ١٢٠ ألف أجنبي بمعدل ٣٠ ألف كل عام وكلهم مـن حثالات أوروبا والمغامرين والأفاقين [٢١]، وبالطبع استمر العدد يتزايد ووصل إلى أرقام كبيـرة جـدا فـي عصـر إسماعيل بحكم زيادة النفوذ الأجنبي وزيادة حجـم النهـب الاقتصادي لمصر في ذلك الوقت وعلى الجانب الآخر كانت هناك خطة متعمدة لإفلاس التجارة والصناعة المصرية عن طريق فرض الضرائب المتزايدة علـى التجـار والصـناع

والحرفيين وصغار الفلاحين، فعلى سبيل المثال هناك ضرائب على عربات الكارو، وعلى الحمير والخيل والجمال وكل وسائل النقل، ويقول روزنشتين :" أن الأجانب رغما عن أعمالهم المالية والتجارية الواسعة أعفوا من الضرائب في حين أن التجار المصريين كانوا يدفعون في العام الواحد ٤٣٠ ألف جنية [٢٢] أي أن المسائلة برمتها تتمثل في صياغة الاقتصاد المصري بصورة تجعله تابعا للنفوذ الأجنبي وبصورة تجعل نهبه عملية مستمرة، فكل الأعمال الصناعية والتجارية في يد الأجانب ومعظم الأراضي الزراعية في يد الأسرة الحاكمة أو حاشيتها أو مع الأجانب، وفي نفس الوقت يسمح بزيادة الرقعة الزراعية لزيادة أنتاج الخامات وخاصة القطن، كما يسمح ببناء مرافق وطرق لخدمة هذا النهب المنظم، وبالطبع هناك عمليات خنق مستمرة لأي شكل من أشكال الصناعة والتجارة أو الزراعة التي يمتلكها المصريون أو المسلمون، وبديهي أن هذه هي الخطة والوسيلة التقليدية للاستعمار لمنع أي نمو اقتصادي في مصر أو غيرها ولتظل دائما تحت هيمنة النفوذ الاقتصادي والاجتماعي

والسياسي للقوى الاستعمارية، ولكن كان هناك أيضا حركة تحت السطح، ترصد هذا كله وتحلله وتعمـل مـن أجـل الإطاحة به، كان هناك الأزهـر يعمـل رغـم الضـربات المتلاحقة يعمل لتأكيد هوية الأمة وذاتيتها ويعمل من أجل نشر العلوم الدينية والطبيعية ويعمل في قاع الريف والمدن لنشر التعليم والقراءة والكتابة وكان هناك زعماء ثوريون كالأفغاني والنديم يسـتجيبون للمـد الشـعبي المتصـاعد ويحاولون حشد قوى الجماهير وتعبئتها تمهيدا للمعركـة مع هذا الوضع الجائر، وكانت الحركة تتصاعد جماهيريـا وتنظيميا عن طريق الصحافة والنضال البرلمـاني وعـن طريق الخطب وعن طريق الندوات والدروس وعن طريق تكوين وتشكيل الجمعيات والمنظمات السـرية المختلفـة، وكانت تلك الحركة أيضا تعرف عدوها وتعرف قوته، وقـد حددت مطالبها في إزاحة النفوذ الأجنبي وحكم محمد علي ونشر العلوم والصناعة، وكان معنى هذا أن هنـاك نـارا عملاقة تحت الرماد وأن الأسد المحبوس خلف الشباك بدأ يقطع هذه الشباك وكانت تلك الحركة تستفيد مـن وجـود عدد كبير من المتعلمين في الداخل وعن طريـق البعثـات

وهم الذين كانوا قد سمح لهم بالتعليم لدعم الجهاز الإداري للنظام، ولكنهم وضعوا خبراتهم فـي معسـكر الجمـاهير وكانت تلك الخبرات كافية لإقامة نهضة صناعية وعلميـة خاصة وأن عدد كبير من التجار الأثرياء مثل السيد حسـن موسي العقاد كانوا منحازين لحركة الشعب، بل وأنفقوا كل أموالهم عليها، وكان حسن العقاد من كبار المعارضين في البرلمان ضد الخديوي إسماعيل كما كان معارضا للنفـوذ الأجنبي وكان أحد تلاميذ الأفغاني المخلصين وظل مخلصا للثورة حتى النهاية، وقد تمت محاكمته مع زعماء الثـورة العرابية ونفي إلى السودان لمدة عشـرين عامـا، وكـان الاستعمار والقوى المرتبطة به تعرف وتحس بهـذا كلـه، وقد بدأت ترتجف من إمكانية حـدوث هـذا؛ لأن معنـاه ببساطة أن هناك شعب ثائر وزعماء أكفاء ومتعلمين فـي كافة التخصصات وتجـار أثريـاء، والمحصـلة الإطاحـة بالأسرة الحاكمة وبالنفوذ الأجنبي والاستفادة مـن وجـود بنية أساسية أقامها القصر و الاستعمار خدمة لمصـالحه، ويمكن أن تكون هي ذاتها قاعدة صـالحه لبنـاء نهضـة اقتصادية وعلمية.

أي ظهور مصر كقوة إسلامية كبري، ربمـا تكـون نواه لخلافة إسلامية شابه أو تكون تدعيما للخلافة التـي بدأت في الانهيار أو في أقل الأحوال تكون قاعدة للنضـال الإسلامي في شمال أفريقيا بحيث يصبح من المستحيل على الاستعمار المتربص أن يظل في المنطقة، لكل هذه الأسباب كان الاستعمار يشعر بالرعب وكان مستعدا لعمل كل شيء للقضاء على تلك النهضة التي بـدأت تظهـر مـن تحـت التراب، وكانت هناك حادثـة هامـة وذات دلالـة جعلـت الاستعمار يسارع بالتدخل المباشر والسـافر كانـت تلـك الحادثة هي (حادثة ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩)، وهي حادثة هامة برغم مرور المؤرخين عليها سريعا، حيث أنها كانت سببا رئيسيا في لفت نظر قوى الاستعمار المتـربص إلـى قوة حركة الجماهير في مصر وخطرها على ذلك الاستعمار المتربص وبالتالي بدأ الاستعمار في أتحاذ تـدابير سـافرة وعنيفة في محاولة للقضاء على حركة الجماهير قبـل أن تصبح خطرا ، وتتلخص تلك الحادثة أن عددا من الضباط (حوالي ٦٠٠) ومعهم عدد آخر مـن طلبـة المدرسـة الحربية ونحو ألفي جندي قد غادروا ثكنـاتهم العسـكرية

وتجمهروا أمام المباني الحكومية وساروا فـي مظـاهرة وعندما وصلوا إلى مقربة من وزارة المالية لمحوا نوبـار باشا رئيس الوزراء خارجا منها فأحاطوا بـه، وانهـالوا عليه ضربا ثم انهالوا ضربا على الوزير الأوروبي ريفـرز ولسون ، وقاموا بالقبض عليهما(أي نوبار وويلسـن) و احتجزوهما في سراي الوزارة، كمـا قـام المتظـاهرون باحتلال الوزارة واحتجاز الموظفين الأوروبيين، واستمرت الحال على هذا الأمر إلى أن تـدخل الخـديوي إسـماعيل بنفسه بناء على طلب القناصل ووصل الخديوي إلى مكـان المظاهرة وحاول فضها بنفسه ألا أنه حدث هـرج ومـرج وأطلقت بعض الرصاصات وجرح التشـريفاتي الخـديوي وفي النهاية أستطاع الخديوي أن يصرف المظاهرة بعد أن وعد بدفع الرواتب المتأخرة إذا فلم تعد المسـألة مجـرد خطب ومقالات ونضال برلماني بل وصلت إلى حد التمـرد وفي الجيش ذاته الذي من المفروض أنـه جهـاز قمـع السلطة الحاكمة، ووصل التمرد إلى حد احتجـاز رئـيس الوزارة الأوروبي، والهياج أمام الخديوي ذاته وعدم طاعة وعوده بسهولة - وكل هذا كان يعني أن الأسد بـدأ فـي

قطع الشباك، وإذا كانت الأمور قد هدأت هذه المرة فمن يضمن المرات القادمة.

وإذا كان السبب المباشر للتمرد هو تأخر الرواتب فهذا ليس إلا جزءا من الموضوع والحقيقة أن الرواتب كثيرا ما كانت تتأخر ولم يحدث شيء، وإذا حدث فانه يكون بوسائل أخرى وعبر قنوات أخرى أما أن يصل التذمر الشعبي والوعي الشعبي إلى هذا الحد أي حد اعتقال رئيس الوزراء والوزير الأوروبي والاعتداء على تشريفاتي الخديوي فإن الأمر يبدو خطيرا وبالفعل تحركت قوى الاستعمار بسرعة لامتصاص المد الشعبي ومحاولة تطويقه، فتم عزل الخديوي إسماعيل بضغوط أوروبية مباشرة على السلطان العثماني.

وتم تعيين الخديوي توفيق مكانه وذلك كمحاولة لتقديم كبش فداء، وتنفيس الضغط الشعبي وذلك بعد المظاهرة بأقل من أربعة أشهر وبالتحديد في ٢٦ يونيو ١٩٧٩، كما تم نفي السيد جمال الدين الأفغاني باعتباره فيلسوف الثورة وزعيمها في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٧٩، أي بعد أقل من شهرين من تنصيب الخديوي توفيق،

ودلالة التواريخ والزمن هنا لا تخطئ، أليس حدوث المظاهرة وعزل إسماعيل ونفي السيد جمال الدين ثم في أقل من ستة أشهر، أليست هذه دلالة واضحة على الرعب الذي أصاب أوروبا من انطلاق حركة جماهيرية إسلامية في مصر لدرجة أن تخلع أوروبا قفازها الحريري وتعمل مباشرة على خلع خديوي وتنصيب آخر، يكون أول ما يفعله نفي زعيم الثورة ليس هذا فحسب بل أن الخديوي توفيق كان يعرف أنه جاء إلي الحكم لمهمة محددة هي إعادة الأسد إلى الشباك والقضاء على الثورة المرتقبة والالتفاف عليها، وأن أباه الخديوي إسماعيل قد فقد عرشه عندما أصبح غير قادر على أداء المهمة التقليدية له وهي ضرب الثورة الإسلامية وتطويق حركة الجماهير وبالتالي جاءت قرارات توفيق السريعة التي حاول فيها أن يقلل من هامش الحرية المتاح وأن يلغى مجلس النظار، وأن يعطل مجلس النواب، وأن يقلل من الحرية المتاحة للصحف، ولكن كانت قوى الثورة أكبر من ذلك كثيرا، وكان الأسد قد بدأ في الزئير وأنطلق من الشباك ولم يكن هناك بد أمام الاستعمار إلا التدخل بجيوشه وهكذا جاء الغزو الإنجليزي

لمصر سنة ١٨٨٢ للقضاء على ثورة الشعب المسلم بعـد أن فشل النظام الحاكم في ذلك،

الثورة العرابية

يخطئ من يظن أن الثورة العرابية كانـت مجـرد هوجة عسكرية أو مغامرة قام بها بعض العسـكر، فلقـد كانت الثورة العرابية هي ذروة الأحداث والشـكل الأخيـر الذي تمخضت عنه حركة الجماهير المسلمة في مصر بفعل الكثير من العوامل التي سبق مناقشـتها، أي أن الثـورة كانت حلقة من حلقات الكفاح الشعبي الإسلامي في مصـر الذي لم ينقطع يوما رغم كل الظروف ومختلف العوامـل، كانت الثورة هي النتيجة الطبيعية لحركـة الكفـاح ضـد الخديوي إسماعيل ثم توفيق وضد النفوذ الأجنبي أساسـا، وإذا أدركنا أن النفوذ الأوروبي في مصر كان كبيرا لدرجة فرض الوزراء وخلع الخديوي وإحلال آخـر مكانـه، وأن الاقتصاد المصري كان يتعرض لعمليات تدمير متعددة على يد الأجانب وكذلك يتعرض لعملية نهب مستمر، وإذا أدركنا أن الأجانب كانوا قد سطوا على كـل شـيء فـي مصـر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وخاصة فـي نهايـة حكـم الخديوي توفيق، لأدركنا على الفور أن تلك الثورة كانـت

محاولة إسلامية صحيحة للتخاص من النفوذ الأجنبي، ولم تكن سببا في الاحتلال، بل إن الاحتلال كان قد وقع بالفعـل قبل مدة وبالتحديد فـي نهايـة السـبعينات، وأن الغـزو العسكري لمصر لم يكن إلا محاولة لتثبيت هـذا الاحـتلال وذاك النفوذ الأوروبي بقوة العسكرية الإنجليزية، بعـد أن أصبح هذا النفـوذ فـي موضـع الخطـر بفعـل الثـورة المتصاعدة.

ولعـل هـذا يوضح إلى أي مدى تكون جريمة من يقول:" إن الاحتلال الإنجليزي لمصر جاء بسبب أو نتيجـة للثورة العرابية " بل الصحيح أن هذا الاحتلال كان قائمـا بالفعل وأن الثورة العرابية كانت محاولة إسلامية للتخاص منه، وكانت من القوة بحيث أن النظام الحاكم لم يعد قادرا على تطويعها فأصبح من الضـروري اسـتدعاء المـدافع الإنجليزية لتذبح تلك الثورة التي بدأت مع الحلقات الأولى لدروس الأفغاني وانتهت عندما دخل الإنجليز القاهرة.

أحداث الثورة العرابية

كانت مظاهرة الضباط والجنود أمام وزارة المالية في ١٨ فبراير ١٨٧٩) وعملية احتجاز رئيس الوزراء والوزير الإنجليزي وغيرها من الأحداث التي تمت في ذلك اليـوم " ١٨ فبراير ١٨٧٩ " ذات دلالة هامة وخطيرة كما سـبق أن أوضحنا فالأسد بدأ يقطع الشباك، وكان من الطبيعي أن تتحرك القوى الاستعمارية لتطويق الثورة وإعادة الأسد إلى الشباك.

فقامت الدول الأوروبية بخلع إسماعيل؛ لأنه لم يصبح قادرا على كبح جماح حركة الجماهير من ناحيـة وتحقيـق نوع من التنفيس لتلك الحركة من ناحية أخـرى حيـث أن إسماعيل كشخص كان موضع انتقاد وهجوم دائمـين مـن زعماء حركة الجماهير كالأفغاني وغيره، بـل كـان هنـاك أحيانا تفكير في اغتياله، وكان من الطبيعي أيضا أن تستمر القوى الاستعمارية في عملية تطويـق الثـورة ومحاولـة إجهاضها، فقام الخديوي توفيق بعد أقل من شهر واحد من تنصيبه بنفي السيد جمال الدين الأفغاني، ليحرم الثورة من الأب الروحي، وحاول الخديوي توفيق أيضا إلغاء مجلـس

الوزراء والإمساك بكل عناصر السلطة في يده فشكل بنفسه حكومة جعل الوزراء فيها مجرد سكرتارية له،أي أنه أراد أن يسقط مسئولية مجلس الوزراء أمام البرلمان، وكان من الطبيعي أيضا أن تبحث القوى الاستعمارية بحماس عن عناصر الثورة وقواها داخل المجتمع المصري بهدف تصفيتها، وإذا كانت الثورة تتكون من كل جماهير الفلاحين والحرفين والتجار والموظفين بقيادة كل من الأفغاني والنديم، وإذا كانت تمتلك العديد من وسائل التحريض الجماهيري مثل الصحف، وإذا كانت منتشرة في الأزهر والمدارس، فإن أخطر مواقعها كان المنظمة السرية التي شكلها وقادها عبد الله النديم وضم إليها العديد من العسكريين مثل علي الروبي وأحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي،وقد تأسست تلك المنظمة السرية عام ١٨٧٦، وكانت تسمي جمعية مصر الفتاة كما كانت جريدة (أبو نضارة) التي يحررها يعقوب صنوع هي لسان حال تلك المنظمة والمعبرة عن أهدافها [٢٣].

ومن الطبيعي جدا أن تحاول القوى الاستعمارية البدء بتصفية هذه المنظمة؛ لأنها أول منظمة سرية؛ ولأنها

أساسا تضم مجموعة من العسكريين، وهكذا كانت المحاولة التي قام بها رياض باشا في أول فبراير (١٨٨١) فقد قـام باستدعاء كل من عرابي وعبد العال حلمي وعلى فهمي وتم القبض عليهم بمبني وزارة الحربية وتقرر محاكمتهم فـي نفس اليوم (١ فبراير ١٨٨١) وعقـدت لـذلك محاكمـة برئاسة الجنرال أستون، إلا أن الفرقة الأولى مشاة بقيـادة البكباشي محمد عبيد اقتحمت مبني الوزارة وسيطرت عليه وأطلقت سراح الضباط الثلاثة ثم سار الجميع في مظـاهرة إلى قصر الخديوي مطالبين بعزل وزير الحربية، وأضـطر الخديوي إلى قبول طلباتهم؛ لأنه لـم يكـن يملـك سـوى الرضوخ وتمت إقالة وزير الحربية، ولم يـنس الخـديوي بالطبع أن ينبه العسكريين بعدم الاشتغال بالسياسة والتمسك بطاعة القوانين العسكرية و أهمها بالطبع الولاء للخـديوي وتمت عملية ترقية للضباط الثلاثة إلى رتبة فريق بعـد أن كانوا قبل قليل عرضة للمحاكمة والتأديب كمـا تـم تعيـين محمود سامي البارودي وزيرا للحربية.

وإذا حاولنا التأمل في تلك الأحداث نجـد أن القـوى المعادية للشعب والتي كانت تخطط لضرب الثورة قد قررت

التخلص من أهم مراكز الثورة وأخطرهـا وهـو القطـاع العسكري فيها، فتم تدبير عملية محاكمـة واعتقـال لقـادة العسكري للثورة وهم أحمد عرابي وعبد العال حلمي وعلى فهمي، إلا أن قوى الثورة كانت أقوى فاسـتطاع الضـابط محمد عبيد أن يقود خلية ثورية أخرى وهي الفرقة الأولـى مشاة وأن يطلق سراح الضباط الثلاثة، وأن يفسد التـدبير الذي بيته أعداء الشعب، ونلاحظ هنا أن ترتيـب محاكمـة الضباط تم بين نوبار باشا رئيس الوزراء، ووزير الحربية، والضابط الإنجليزي أستون وكل هـذا بموافقـة ومباركـة الخديوي توفيق، أي أن التدبير شارك فيه كل القوى الخائفة من الثورة وهي النفوذ الأوروبي ممثلا في أسـتون باشـا، والخديوي ووزير حربيته ورئـيس وزارتـه، أي القـوى الحاكمة في مصر وقتها، وكانت هـذه القـوى تعـرف أن الخلايا الثورية قد امتدت إلى الجيش وهذا يشكل في نظرهم خطر كبير وبالتالي قرروا تصفية هذا النفوذ عـن طريـق التخلص من العناصر الأساسية التي تقود الثورة في الجيش وهم كل من عرابي وعبد العال حلمي وعلى فهمي، ولكـن الثورة كانت أقوى من ذلك ولم تكن عملية تصفيتها بهـذه

البساطة وأستطاع محمد عبيد أن يحرر الضباط المعتقلين، وأن تتطور العملية فيقوم الجناح الثوري العسكري بفرض مطالبه على الخديوي، وكان الخديوي يدرك قوة الثورة في القطاع المدني والعسكري معا، فحاول أن يعزل ويفصل هذين القطاعين حتى ينفرد بالقطاع المدني وتصرف بالطريقة التقليدية لكل المستبدين فاستجاب لكل المطالب الجزئية للعسكريين، وهي عزل وزير الحربية وفتح باب الترقي أمام الضباط ليس هذا فحسب بل قام بترقية الضباط الثلاثة الذين كانوا بالأمس عرضه للتنكيل والمحاكمة وقام أيضا باختيار وزير حربية يميل إلى هؤلاء الثوريين على أساس أن يكون قادرا على امتصاص غضبهم، وكل هذا بشرط واحد هو ألا يتدخل العسكر في السياسة وأن يطيعوا القوانين العسكرية وأهمها الولاء للخديوي، كما نبه الخديوي من ناحية أخرى على وزير الحربية الجديد (محمود سامي البارودي) بأن يتصرف بطريقة تقلص نفوذ قيادات الثورة داخل الجيش، وطالما كان من المعروف أن محمود سامي البارودي متعاطف معهم - في رأي الخديوي- وأقدر من يقوم بذلك الأمر استنادا على ثقة

هؤلاء الضباط فيه، والخديوي والذين خططوا له تصـرفوا هنا بمنتهى الذكاء، ولكنه الذكاء التقليدي للمستبدين، وهـو الاستفادة من العناصر المعتدلة شيئًا ما مثل البارودي فـي كبح جماح العناصر المتطرفة، ومحاولة كسب ود الجميـع بالترقيات والاستجابة للمطالب الجزئية والمهنية لهم بهدف عزلهم من محيط الثورة العام، ولكن مـرة أخـرى كانـت الثورة أكثر اتساعا وعمقا من أن يؤثر معها هذا الأسلوب، فمما لاشك فيه أن الخديوي الذي استجاب للمطالـب، كـان يخطط للإطاحة بالجميع والالتفاف حول تلك الحركـة، بـل وتصفيتها كأقسى ما تكون التصفية عندما تلوح الفرصة.

كانت قيادة الثورة تدرك هذا وتعرفـه، وكانـت مـن الوعي والذكاء بحيث أنها قامت بالرد الصـحيح والمباشـر على خطة أعداء الثورة، فإذا كانت المرونة التي أظهرهـا توفيق أو أضطر إليها كانت بهدف عزل القطاع العسـكري للثورة عن محيطه العام، فليكن الرد هو المزيد من التلاحم بين القطاع العسكري للثورة والشعب، فقام عبد الله النـديم الزعيم الحقيقي للثورة أو قل الـزعيم السياسـي للثـورة وعقلها المفكر بإقناع عرابي بأن يصبح ممثلا لكل الشـعب

وليس مجرد قائدا للقطاع العسكري في الثورة، وبهذا نقطع خط الرجعة على الخديوي وأعداء الثورة ونحبط خططهم على حد قول النديم.

وقام النديم بطباعة منشور يطالب فيه من الشعب كله أن ينيب عرابي في المطالبة بحقوق الأمة والتحدث باسمها فيما يتعلق بشئون البلاد، وقام النديم ورجاله بتوزيع المنشور في كافة أنحاء البلاد وأخذ يجوب القرى والمدن داعيا الشعب لتوقيع هذا المنشور والترويج للمبادئ الثورية في العدل والحرية استنادا إلى الإسلام، وأستطاع النديم ورجاله أن يجمعوا توقيعات كل فئات الأمة على هذا المنشور، بل أن الجماهير ذاتها بدأت تزحف على القاهرة من كافة أرجاء مصر لمبايعة عرابي زعيما لها ومتحدثا باسمها، وكان عرابي يستقبل هذه الوفود في منزله الذي اكتظ بها في كل الليل والنهار.

ولما أحست القوى المعادية للثورة أن خطتها في التطويق قد فشلت كان من الطبيعي أن تحاول من جديد استخدام العصا بعد أن فشلت في استخدام الجزرة، فقام الخديوي بإقالة البارودي من وزارة الحربية في ١٣

أغسطس ١٨٨١، وتم تعيين داود يكن وزيرا للحربية وهو صهر الخديوي، فقام هذا الوزير الجديد بفرض الرقابة على عناصر الثورة في الجيش وملاحقتها بالجواسيس كما حاول تشتيت شمل تلك العناصر فأصدر أوامره بنقل الفرقة الثالثة المشاة التي يقودها عرابي من القـاهرة إلـى الإسـكندرية والآلاي السوداني الذي يقـوده عبـد العـال حلمـي إلـى السودان، وكان من الطبيعي أن ترفض قيادة الثـورة ذلـك الأمر الذي يستهدف تشتيت قوى الثورة تمهيدا لتصـفيتها، ورفض عرابي وزملاؤه تلك الأوامر، وكانوا يستندون فـي ذلك الرفض على أن كل الجيش وكل الشعب معهم، بـل أن عرابي قال لوزير الحربية أنه، أي وزير الحربية لن يجد أي فرقة عسكرية تطيع أوامره، وكان عرابي محقا في ذلك فقد كانت كل الفرق قد انحازت إلى الشـعب والجـيش بقيـادة عرابي حتي تلك الفرق المكلفة بحراسة الخديوي، ولم تكتف قيادة الثورة برفض تلك الأوامر، بل قررت أن تبـادر إلـى العمل.

وهكذا قام عرابي في ٩ سبتمبر (١٨٨١) بمظاهرة عسكرية قوامها ٤ آلاف ضابط وجندي تصحبهم فرسـانهم

ومدفعياتهم، وفي نفس الوقت قام عبد الله النـديم بحشـد جماهير الشعب خلف الفرق العسكرية في ميدان عابـدين، وهكذا كانت تلك المظاهرة، تعبيرا عن ثورة شعب بأكملـه ضد أعداء الشعب، ولعل هذا يتضح أولا في المطالب التـي تقدم بها عرابي وهي عزل وزارة رياض وتشكيل مجلـس نواب حقيقي وزيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألف جندي.

ويتضح ثانيا في رد عرابي على الخديوي عندما قال له الخديوي :(إن هذه المطالب ليست من اختصاص رجال الجيش) فكان رد عرابي عليه " لست أطلب ذلك بصـفتي عسكريا بل بصفتي نائبا عن كل الأمة الواقفة خلفي " وفي الحقيقة فإن مجرد التأمل البسيط في تلك الأحـداث وهـذه المطالب يرى أن ثورة شعب بأكمله، وليست هوجة عسكرية أو مجرد تمرد عسكري من أجل مطالب فئويـة محـدودة، فعرابي قد حدد موقعه باعتباره قائدا وزعيما لثـورة أمـة بأسرها، والجيش إذا كان خلفه فهناك أيضا جماهير الشعب قد احتشدت في ميدان عابدين،أي أن الجيش هو ذراع الأمة وليس ذراع الحاكم كما هو المعـروف عـادة،أي أن قـادة الثورة أصروا على اصطحاب الجيش معهم حتى يفرضـوا

مطالبهم وهي مطالب الشعب وجيش الشعب، وإذا نظرنا إلى المطالب ذاتها نجدها مطالـب ثـورة شـعبيه وجماهيريـة وليست مطالب فئة من الضباط حول الترقيـات أو غيرهـا فعزل الوزارة مثلا هو مطلب ثوري عـام وكـذلك إنشـاء مجلس نواب، أما مطلب زيادة عدد الجيش إلـى ١٨ ألـف جندي فهو مطلب سياسي وجماهيري أيضا، بـل يؤكـد أن المسألة كانت ثورة شاملة تدرك ما حولها وليست هوجـة عسكرية فقيادة الثورة تعرف أن هناك نفوذا أجنبيا وهنـاك قوى أجنبية تتربص بمصر وبالتالي فتقوية الجـيش أمـر مطلوب لمواجهة تلك القوة المتربصة.

وعلى أي حال فمن الطبيعي أن مثقفـي المدرسـة الاستعمارية لا يكرهون شيئا أكثر من كـراهيتهم للثـورات الشعبية، ولابد دائما، أن يشوهونها ويلقون حولها الشكوك، وهذه مهمتهم التقليدية التي كلفهم بها الاستعمار، وبـالطبع فهم لا يريدون أن تكون الثورة العرابية ثورة أمة وشـعب يريد التخلص من النفوذ الاستعماري واستبداد أسرة محمـد علي؛ لأن كونها ثورة إسلامية شعبية يعطي الثقة للجماهير في نفسها ومحاولة تكرار الثورة على الاستعمار، وهـم لا

يريدون هذا طبعا، وهكذا كان لابد من تقليص حجـم هـذه الثورة إلى أقصي مدي، إذا فبدلا من أن تكون ثورة إسلامية شعبية شاملة، فهي مجرد هوجة عسكرية أو تمرد مجموعة من الضباط المصريين على الضباط الشراكسة أو غيرها من الأمور، وإذا كانت مبادئ الثورة ومطالبها الكبرى لا تحقق لهم هذا الفرض، فلابد من التركيـز علـى أحـد المطالـب الجانبية والهامشية في المسألة وجعله هـو المطلـب الأول والأخير، ألا وهو مطلب فتح باب الترقـي أمـام الضـباط المصريين، وبديهي أن هذا المطلب مطلب مشروع ومطلوب وهو من باب تحقيق العدل الذي تحرص عليه، أي ثورة أو حركة ولكنهم يخرجون المسألة مـن إطارهـا ويحصـرون الثورة في هذا المطلب، ولكن حتى الوقائع الخاصـة بتلـك المسألة تثبت عكس ما أرادوا، فحركة الثورة لـم تتحـرك بدافع الحقد بل بدافع تحقيق العدل فـي مسـألة الترقيـات بصرف النظر عن الجنسية، فذا تأملنا مطالب الثـورة فـي الجناح العسكري نجد أن قادة الثورة دائما أصروا علـى أن يكون وزير الحربية هو محمود سامي البارودي وهو أيضا شركسي، فكيف يستبدلون شركسيا بشركسي، المسألة لـم

تكن كذلك، بل كان المطلب استبدال قيادة الجـيش الفاسـدة والموالية للقصر و الاستعمار بقيادة وطنية وإسلامية حتـى ولو كانت شركسية أيضا، ومن ناحية ثانية فالإصرار علـى عزل رياض باشا كان مطلب ثابت للثورة، وريـاض باشـا مصري ولم يكن شركسيا، أي المسألة لـم تكـن مرتبطـة بموضوع مصري وشركسي، بل مسألة الموقف من النفـوذ الأوروبي والموقف من استبداد الخديوي وحاشيته.

***

كان انتصار إرادة الشعب فـي ٩ سـبتمبر ١٨٨١، يعني أن هناك ملامح ظهور نظام إسلامي شاب في مصـر، يمكن أن يقطع دابر النفوذ الأجنبي، وتعمـيم دولـة فتيـة ناهضة عسكريا وسياسيا و اقتصاديا، خاصة وأن الشـعب كله مع تلك الثورة ومتحمس لها، بل والجيش أيضا،أي أن من المؤكد نجاح تلك الحركة، فإذا كان الجـيش وهـو أداة القمع الأساسية في يد النظام المستبد قد أصـبح جـزءا لا يتجزأ من ثورة الشعب، بل في طليعتها، فإن معنى هـذا أن الأمور ستفلت حتما، ومعنى هـذا أن هنـاك خطـرا علـى المشروع الاستعماري بكامله في المنطقة، وهنـاك أيضـا

خطر قيام نواه لوحدة إسلامية شاملة تكون مصر بداية لها خاصة وأن النظام العثماني كان ينهار في ذلك الوقت، وكان لابد - والحالة هذه- أن تتحرك القوى الاستعمارية بسرعة لتطويق هذا الأمر، وعندما يصبح الأمر بهذه الخطورة، فإن التناقضات الثانوية بين قوى المعسكر الاستعماري تختفـي فجأة ويعمل الجميع بتنسيق كامل.

عقب حادثة ٩ سبتمبر، أدركت القـوى الاسـتعمارية مدى أتساع وعمق وقوة الثورة، وكـان عليهـا أن تنـاور الثورة لتطويقها، وهي خطة استعمارية تقليدية،أي أن تقبل تلك القوى المطالب الشكلية للثورة في سبيل ضرب الثـورة وإلهائها عن مطالبها الجوهريـة، والمطلـوب الجـوهري للثورة كان تصفية النفوذ الأجنبي، وهذا بالضبط ما تحـاول القوى الاستعمارية الاحتفاظ به بأي ثمن، ومادام مد الثورة قد أصبح عاليا جدا، فلابد من تقديم حكومة وطنيـة ولكـن غير ثورية،أي تقديم حكومة لا يرفضـها الثـوار ولكنهـا حكومة عاجزة عن إدارة الصـراع مـع النفـوذ الأجنبـي بالأسلوب الثوري، أي بالأسلوب القادر علـى إنهـاء ذلـك النفوذ وهكذا جاءت وزارة شريف باشا، وشريف باشا يمثل

قطاع من الوجهاء يؤمن بالحياة النيابية ويؤمن بالدستور ويحاول أن يحقق نوعا من الاستقلال ولكن عن طريق المناورات السياسية والنضال القانوني واللعب على التناقضات الدولية، وإذا كانت القوى الاستعمارية بداهة لم ترد ولن تريد للشعوب المسلمة أو المستضعفة شيئًا من الحرية ولا الحياة النيابية، فإنها في ظروف المد الثوري يمكن أن تقبل بهذه الأشياء بهدف كسب الوقت وتهدئة الثورة تمهيدا لتصفيتها فيما بعد، وكانت وزارة شريف هي النموذج الأمثل لهذا الأمر في ذلك الوقت، وهذا الأسلوب كان هو الشيء الوحيد المتاح لإيقاف عجلة الثورة، وهكذا جاءت وزارة شريف، جاءت وزارة شريف ووعدت بالحياة البرلمانية ولكنها وعدت في نفس الوقت بالمحافظة على المصالح والنفوذ الأجنبي يقول الرافعي معلقا على خطاب شريف باشا بقبول الوزارة: " إن شريف باشا وضع في كتابه ما يطمئن الدول والجاليات الأجنبية على مصالحها بالتزامه احترام نظام الرقابة الثنائية " [٢٤]

كان شريف باشا هنا هو نقطة التوازن بين جميع القوى فهو أولا يمثل طائفة من الوجهاء والمثقفين لا ترتبط

بمصالح مع الشعب الثائر، وهي أيضـا أوروبيـة الثقافـة والأساليب وهي ثالثا لا تملك ولا ترغب في إثارة الجماهير ودفعها للثورة أو حتى المشاركة في الحياة السياسية وهي رابعا بحكم ما لها من رصيد وطني أقدر على تطويق الثورة ثم هي خامسا يسهل فيما بعد تصفيتها أو رشـوتها بحكـم مالها من مصالح، وهكذا نجد مثلا أن جميع القوى رحبـت بها، القوى الثورية رحبت بها على أساس أنها أفضل مـن وزارة رياض المرتبطة بالأجانب جملة وتفصيلا، والخديوي رحب بها على أساس أنها الأقدر على تخليصه من عرابـي وقوى الثورة، والجاليات الأجنبية وقناصل الدول رحبت بها؛ لأنها تعرف أنها لا خطر منها ثم هي أيضا الأقدر في هـذا الظرف على تطويق الثورة، يقول الرافعـي واصـفا حالـة الترحيب التي قوبلت بها وزارة شريف باشا " أن القناصل والأجانب قد اعترفوا بأن شريف أفضل مـن ريـاض "(٢٥) ويقول أيضا " أن الخديوي توفيق كان مسرورا أيضا وأنه كان واثقا أن شريف لابد أن يخلصه عاجلا أو آجـلا مـن عرابي"(٢٦)

وفي الحقيقة فإن هذا درس يجب أن تعيه قوى الثورة الإسلامية الآن وفي المستقبل؛ لأنها خطة استعمارية تقليدية، وقد تكررت كثيرا فيما بعد وخاصة مع الوفد، الذي كان الاستعمار يأتي به كلما تكررت هذه الظروف، أي كلما أصبح المد الجماهيري عاليا ولم يعد القمع المباشر قادرا على تصفيته، وعلى قوي الثورة الإسلامية أن تدرك دائما أن هناك تناقضات ثانوية بين القوي الاستعمارية وقوى الاستبداد الداخلي، وبين هذه الأخيرة وقطاعات من الوجهاء والمثقفين، وبين هؤلاء جميعا، ولكن هذه التناقضات الثانوية لا ترقي بحال من الأحوال أن تصل إلى التناقض الجوهري بين قوى الجماهير المسلمة وطليعتها الواعية، وبين مختلف تلك القوى ولا مانع من الاستفادة بتلك التناقضات الثانوية بشرط أن ندرك أنها تناقضات ثانوية وبشرط إلا نسمح لتلك التناقضات الثانوية بالقفز على التناقضات الجوهرية، وبشرط أن نعرف دائما أن قواننا الحقيقية هي الجماهير وحركتها ووعيها، وليس البرلمان أو القوانين المتسامحة أو غيرها، نعم نحن نريد برلمانا حقيقيا وقوانينا تتيح الحريات ولكن ليس على حساب حركة

الجماهير، فإذا ما سكنت حركة الجماهير فما أسـهل علـى القوى الاستعمارية أن تطوي أوراق البرلمان والقـوانين أو تحرقها، ولن نمل من تكرار هذه الحقيقة وهـو أن الكفـاح من أجل الدستور والبرلمان والقوانين وغيرها أمر مرغوب فيه، وعلينا أن ندعم القوى الداعية إلى ذلك ولكن علينا أن نعرف أن ذلك لا يكون على حسـاب النضـال الجمـاهيري الواسع وعلى حساب حركـة الجمـاهير وعلـى حسـاب التحديات الكبرى، وهي وجود النفوذ الأجنبي فـي بلادنـا، الذي مازال موجودا حتى الآن، وطالما كـان هـذا النفـوذ موجودا، فإن حساب الكسب والخسارة والتقـدم والتراجـع يكمن ويدور حول هذا النفوذ فكل ما يؤدي إلى تقليص هذا النفوذ والتخلص منه مقدم على غيره مقدم حتى علـى أداء الصلاة، وأن أي مكسب برلماني أو قانوني في ظل النفـوذ الأجنبي هو حبر على ورق.

***

بدأ شريف عمله الوزاري بالتنبيه على الجيش بـألا يشترك في السياسة، وهذه خطة خبيثة ومقولة غريبة على حضارتنا وتراثنا، فالجيش الإسـلامي كـان دائمـا جيشـا

عقائديا، ومادام هنـاك رسـالة لامتنـا فـالجميع مطالـب بالمشاركة في السياسة ورفض كل مـا يخـالف أداء تلـك الرسالة، فما بالك إذا كان هناك نفوذا أجنبيا وسلطة مستبدة وقوي تتربص بنا، نعم نحن نرفض احتكار الجيش للسياسة والسلطة، ولكننا نؤمن بأن من واجب كل مسلم أو منتمـي إلى الإسلام، سواء كان مدنيا أو عسكريا أن يشـارك فـي السياسة، ولنا أن يتصور أن يأمر أحد الحكام الآن مثلا أن يقوم الجيش بمساعدة إسرائيل ضد الفلسطينيين هل يلتزم الجيش بالطاعة بدعوى عدم مشاركته في السياسة، أو حتى إذا أصدر أحد الحكام في المنطقة أوامره لجيشه بأن يكـف عن قتال إسرائيل، هل يطيع هذا الجيش الأوامر، أو حتـى إذا طلب من هذا الجيش قمع المواطنين هـل يطيـع هـذا الجيش تلك الأوامر، علينا أن نؤكـد أن العمـل السياسـي فرض عين على كل مسلم ومسـلمة وواجـب علـى كـل الطوائف والفئات بما فيها الجيش، وبالطبع هناك فرق بين العمل السياسي وبين الانضباط العسكري، ويجب ألا نخلـط بينهما،

أراد شريف إذا أن يقلص نفوذ الثورة فـي الجـيش، فكان إصراره على توجيه الجيش إلى عدم الاشـتراك فـي السياسة، كما قام بإصدار أوامره بنقل عبد العال حلمي إلى دمياط و عرابي إلى الشرقية، وقد أطاع عرابـي وحلمـي الأوامر وتم تنفيذها، إلا أنهما من ناحية أخرى قاما بزيـادة الأواصر مع الجماهير في تلـك الجهـات واسـتفادا مـن وجودهما في بث أفكار الثورة والدعاية لها بين جماهير تلك البلاد بعيدا عن أعين السلطة المستبدة والقـوى المرتبطـة بها،وقد أدركت القوى المعادية للثـورة ذلـك وخاصـة أن الأهالي في تلك الأقاليم قد نظموا المظاهرات تحية لهـذين القائدين عرابي وحلمي، كما أن زعيم الثورة السياسي عبد الله النديم بذكائه المعروف أراد أن يفـوت الفرصـة علـى شريف باشا فاستغل فرصة سفر الفرقتين وحشد الجمـاهير للوداع وألقى الخطب التي تؤكـد الارتبـاط بـين الشـعب والجيش وتؤكد تمسك الشعب بأن يظـل الجـيش دعامـة لحماية الشعب وفارسا له لا عليه، وقد بدأ النـديم إحـدى خطبه في محطة القاهرة موجها كلامه إلى الضباط والجنود قائلا " يا حماة البلاد وفرسانها "،

ودعا إلى استمرار التلاحم قائلا " اجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد "، وقد رد عليه عبـد العـال حلمي مؤكدا على ذلك قائلا " أن كلمة الوطنيـة تجمعنـا، فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا، وأعلموا إننـا إذا لـم نحفظ أنفسنا بالاتحاد هلكنا "، وقد سافر عبد الله النديم مع فرقة عبد العال حلمي إلى دمياط، وأحتشد الأهالي لتحية تلك الفرقة وقائدها وخطب فيهم عبد الله النديم خطابا بليغا مدح فيه اتحاد الشعب والجيش، وعاد النديم إلى القاهرة ليكرر ما فعله مع فرقة عبد العال حلمي، حيث رافق عرابي فـي تنقلاته بفرقته داخل شوارع القاهرة حيث أحتشـد النـاس لتحية عرابي، وكان عرابي قد أصر على الذهاب مع ضباطه وجنوده إلى مسجد الحسين -رضي الله عنه-، واصـطف جنود الفرقة أمام المشهد الحسيني وأدروا بيرق الآلاي على الضريح، ثم قطع عرابي شوارع القاهرة المزدحمـة مـارا بالموسكي وشارع البوستة فشارع كلوت بك وكانت القاهرة عن بكرة أبيها في وداعه، وفي محطة القاهرة أكد عرابـي والنديم على تلاحم الجيش والشعب وسافر النديم مع عرابي وفرقته إلى الشرقية وفي كل قرية ومدينة يمر بها القطـار

كانت المؤتمرات والمظاهرات والخطب تتكرر وتؤكد نفس المعنى:

" وبهذه الطريقة الفذة أستطاع النديم أن يبطل ما أراده شريف باشا من نقل عرابي وحلمي خارج القاهرة، بل كما قلنا كانت فرصة لمزيد من التحام الشعب والجيش ولمزيد من الدعاية والتحريض والاتصالات في الشرقية ودمياط مما أضطر القوى التي خططت لفصل الثورة عن ذراعها القوى وهو الجيش أن تعود عن خطتها وتستدعي عرابي للعمل كوكيل لوزارة الحربية في القاهرة، أي أن يصبح تحت عينها وذلك بعد ثلاثة أشهر من نقله إلى الشرقية.

****

كان من الطبيعي أن يقدم شريف باشا عدد من المنجزات يستند إليها في تحقيق نوع من الالتفاف الشعبي حوله، ويحقق بها نوع من الاسترخاء السياسي لدى الجماهير، ويستطيع بها أن يمضي قدما في تصفية مراكز الثورة الحيوية، وكان شريف باشا في إصلاحاته وإنجازاته مخلصا ولم يكن عميلا، وهذا بالضبط ما كان يريده كل أعداء الثورة في ذلك الوقت وكان شريف باشا أيضا مقتنعا

ومخلصا في محاولته تصفية الثـورة وخاصـة مراكزهـا الحيوية، وكان هذا أيضا ما يريده أعداء الثورة بالضبط، أي أن أعداء الثورة كانوا يريدون هنا إنجازات حقيقيـة حتـى تقنع الجماهير بالاحتشاد خلف شريف باشا أو على الأقـل إضعاف حماسها للثورة وقيادتها، وكانوا يريـدون شخصـا مخلصا له أسبابه الخاصة في تصفية الثورة حتى لا يصطدم بمعارضة جماهيرية أو ثورية في تلك التصفية، كان أعداء الثورة من أجانب ومستعمرين وخديوي وحاشـية فاسـدة، يعرفون أن قوة الثورة الحقيقية هي نفوذها فـي الجـيش، وامتلاكها لعدد من الصحف القوية التي تعبر عـن أفكـار الثورة، وكان هؤلاء الأعداء يدركون أيضا أنه فـي سـبيل تحقيق الهدف يجب تقديم شيئا مـن الإنجـازات لترضـية، الجماهير، وهكذا قـام شـريف باشـا بتقـديم عـدد مـن الإصلاحات الإدارية والقانونية والقضائية والوظيفية وأطلق سراح عدد كبير من المعتقلين بدون أحكام، وأعاد الكثير من المنفيين في السودان، كما نجح في استصـدار قـرار مـن الخديوي، الذي كان قد عطل مجلس الشورى منذ سنتين، ، أي منذ توليه الحكم، بأجراء انتخابـات لمجلـس شـورى

النواب على أساس القانون القديم وهو القانون الذي يجعـل هذا المجلس استشاريا ينتخب أعضاؤه بواسطة عمد الـبلاد ومشايخها لمدة ثلاث سنوات ويجتمع شهرين في كل سـنة وجلساته سرية وليس له رأي نافذ فيما يعرض عليه مـن الشئون [٢٧].

كما قام في الوقت نفسه بمحاولـة ضـرب الثـورة وخلاياها في الجيش كما سبق أن وضحنا، وكـذلك ضـرب جهازها الإعلامي عن طريق إصدار قـانون المطبوعـات، ولعل صدور هذا القانون المشبوه يؤكد رأينا فـي شـريف باشا و يجعل هؤلاء الذين يدافعون عن شريف أما مغفلـين أو عملاء، فلو كان ليبراليا ودستوريا حقا ما فعل ذلك، وإذا كان الرافعي المعجب بشريف باشا عن غفلة طبعا، فـنحن نثق في نزاهة الرافعي ألا أننا نعرف أن الرافعي لا يـؤمن بالثورة ولا يحـب دعاتهـا ويـؤمن بالعمـل الدسـتوري والقانوني وهذه براءة زغفلة طبعا ففي ظل نفـوذ أجنبـي ونظام حكم مستبد فإنه لا سبيل؛ لانتزاع حقوق الشـعب ألا بالثورة، على كل حال فإن الرافعي يبدو متعجبا من صـدور هذا القانون قائلا " لا شك أنه قانون مقيد لحرية الصحافة،

ولا ندري ماذا كان الباعث على صدوره، ومن الذي أوعـز بوضعه، وهل كانت الحكومة وقتئذ تخشي إطـلاق الحريـة للصحف فوضعت لها القانون " [٢٨].

وهكذا يصبح شريف باشا وهو الذي يصفه الرافعي بالذكاء والدهاء والحنكة السياسية و استقلال الرأي وعـدم قبول الضغوط وغيرها من الصفات، يصبح فجـاه عبيطـا يضحك عليه أحدهم فيصدر مثل هذا القانون.

وبالطبع لم يكن شريف باشا عبيطا، ولكنـه كـان يعرف ما يريد فهو بالتحديد حاول إضعاف مركـز الثـورة بضربها في أهم عناصر قوتها وهي علاقة الشعب بالجيش أو النفوذ الثوري داخل الجيش وفي جهازها الإعلامي عـن طريق تقييد الصحافة، فذا ما تم ضرب هـذين المركـزين الحيويين للثورة، فماذا يبقي لها؟!

على أن الرافعي يقدم التفسير دون أن يدري قائلا " اشتدت لهجة الصحف متأثرة بانتصـار الثـورة العرابيـة وإجابة مطالب العرابيين فوجهت حملاتهـا إلـى الأجانـب والدول الأجنبية " [٢٩].

إذا فقد كان شريف يعرف ويريد، يعرف أن الثـورة تريد تصفية النفوذ الأجنبي بل إن هذا هو هدفها الجوهري، ويريد أن يحرف الثورة عن ذلك باتجـاه أهـداف جزئيـة أخرى، فإذا لم تنصرف ضرب صحافتها التي تفعل ذلك، ألم يكن هذا ما يريده الأجانب والـدول الأوروبيـة المتربصـة بمصر بالضبط ! وهكذا لـيس غريبـا أن يقـول الميسـيو سنكفكس المعتمد الفرنسي والقنصل الفرنسـي العـام فـي مصر في هذا الصدد :" مضي وقت طويل لـم تتمتـع فيـه مصر بما يسودها الآن من الهدوء في ظـل وزارة شـريف باشا،وقد أفضي إلى السير إدوارد مالت بهـذه الملاحظـة أيضا في حديث لي معه [٣٠] - السـير إدوارد مالـت هـو قنصل إنجلترا في مصر-، أي أن كل من فرنسا وإنجلتـرا كانتا راضيتين عن شريف باشا، فلماذا كان هذا الرضا! هل حبا في هدوء مصر واستقرارها؟!.

وخلاصة المسألة أن شريف باشا قدم بعض الإنجازات أو استجاب لبعض مطالب الثورة في مقابل تطويق الثـورة في مراكزها الحيوية، ولكن في الجانب الأخر، كانت الثورة تمتلك قيادة سياسية شديدة الـذكاء والـوعي والإيجابيـة

والقدرة على الاستفادة من كافة الأوضاع لتـدعيم مراكـز الثورة وتلك القيادة السياسية تمثلت في عبد الله النديم وهو أعظم الشخصيات الإسلامية التـي أنجبتهـا مصـر علـى الإطلاق، ولقد أستطاع ذلك القائد السياسي الفـذ أن يقلـب تخطيط شريف ومن وراء شريف على رأس القوى المعادية للثورة،وقد رأينا كيف تم إحبـاط مخطـط نقـل الزعمـاء العسكريين إلى الأقاليم بل كيف تمت الاستفادة من هذا الأمر في زيادة عمق وأتساع الثورة، وعلينا الآن أن ندرس كيف استفادت قوى الثورة من إقرار الحكومة بمجلـس شـورى النواب وأجراء انتخابات هذه المجالس واستئنافه للعمل بعد سنتين من تعطيله، فمما لاشك فيه أن الحيـاة البرلمانيـة السليمة كانت أحد المطالـب التـي طالبـت بهـا حركـة الثورة،وقد مارست الثورة ضغوطا شديدة من أجل إرسـاء هذا المكسب، ولكنها كانت تعرف دائما أن هذا المكسـب لا ينسيها هدفها الأول وهو إنهاء النفوذ الأجنبي في مصـر، وهكذا كانت الثورة تحشد الوفود للذهاب إلى القاهرة للضغط على شريف باشا لإصدار القرار الخاص بإجراء انتخابـات مجلس الشورى إلى أن تحقق لها هذا وتمـت الانتخابـات

وانعقد المجلس في ٢٦ ديسمبر ١٨٨١، ولكن على أساس القانون القديم، أي على أساس أن يكون المجلس استشاريا، وليس إلزاميا، وليس له رأي نافـذ - علـى حـد تعبيـر الرافعي- كما سبق أن وضحنا.

واستطاعت قوى الثورة أن تـؤثر علـى انتخابـات المجلس بحيث يفوز المرشحون الموالون للثورة رغم أنف قانون الانتخابات الـذي يقصـر الانتخـاب علـى العمـد والمشايخ، كما استطاعت الأجواء الثورية نفسها أن تحـول البرلمان المنتخب إلى أداة حقيقية من أدوات التغيير رغـم القانون الذي يحد من سلطات هذا المجلس، وهكـذا كانـت أولي الأعمال التي ينظر فيها المجلس هو إصـدار دسـتور جديد يجعل لهذا المجلس سلطة حقيقية في إقرار القـوانين وتقرير الميزانية والرقابة على أعمال الحكومة وموظفيهـا وإلزامها بعدم فرض أي ضريبة أو إصـدار أي قـانون أو لائحة ألا بعد تصديق المجلس، وكان معنى هذا أن الثـورة نجحت في جعل هذا المجلس أداة حقيقية مـن أدوات دعـم حركة الجماهير وليس تطويقا لها، أن وأن عهدا جديدا من الحرية والحياة البرلمانية السليمة ينتظر مصر، وأن الثورة

تكسب الجولة بعد الجولة على طريق التحرر الكامل وإنهاء النفوذ الأجنبي وإلغاء الحكم الاستبدادي.

وبالطبع فإن شيئا من هذا لم يكـن يـروق للقـوى الاستعمارية المتربصة بمصر والتي تعرف وتدرك أنـه إذا كانت السلطة في يد الشعب فإن نفوذها يصبح فـي خطـر ومخططاتها تصبح في مهب الريح.

وهكذا تحركت القوى الاستعمارية سـريعا، فتقـدمت فرنسا وإنجلترا بمذكرة إلى مصر في ٧ يناير سنة ١٨٨٢، تحرض فيها الخديوي على الديكتاتوريـة وإلغـاء الحيـاة البرلمانية وتحذر فيها من أجواء الحرية وقيام نظام برلماني حقيقي في مصر، وهكذا كشفت الدولتان عـن كراهيتهمـا لقيام نظام دستوري وبرلماني حقيقي في مصر، ورغبتهمـا في استرداد الخديوي لسلطته المطلقـة والعبـث بالنظـام الدستوري، وهذا أمر طبيعي فالقوى الاستعمارية دائما وأبدا لا ترتاح ولا تقبل أن تصبح السلطة كليـا أو جزئيـا بيـد الشعب؛ لأن معنى هذا أن نفوذها في خطر، ويعلق الرافعي على هذا قائلا " إن جامبتا، رئيس وزراء فرنسا، كان يكره الحرية للشعوب الشرقية ويدعو إلى اسـتعبادها قاطبـة "

، وبالطبع لم يكن جامبتا وحده ولكن معـه جلادسـتون[٣١] رئيس وزراء بريطانيا وكان معه كل القوى الاسـتعمارية _ والعجيب هنا أن جلادستون الذي وقع على تلـك المـذكرة بالاتفاق مع فرنسا كان شيخ الأحرار فـي إنجلتـرا، أي أن كراهية الحرية للشعوب الشرقية "الإسلامية" كان سـلوكا تقليديا؛ لانجلترا وفرنسا وغيرهمـا، وكـذلك للمحـافظين والأحرار على حد سواء فالجميع أمـام قضـايا الشـعوب الإسلامية يفقدون نزاهتهم تماما.

ولم تكتف الدولتان بذلك بل قامتا بتقديم طلب عـن طريق قنصليهما إلى شريف باشا رئيس وزراء مصر بـالا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية وذلك بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٨٢، أي أن الدولتان لا تريدان الحريـة لمصـر، وبالتحديد لا تريدان لتلك الحريـة أن تكـون أداة لتقلـيص النفوذ الأجنبي في مصر أو بإنهائه، ويعلق الرافعـي علـى هذا قائلا في شيء من البراءة " ما شأن إنجلترا وفرنسـا بنظام مجلس النواب المصري!

وأي قانون أو عرف دولي يخولهما حق التدخل فـي وضع الدستور والمطالبة بحرمان المجلـس حـق تقريـر الميزانية!

وبديهي أن شأن إنجلترا وفرنسا هو شأن الاستعمار الصليبي في مواجهة شعب مسلم يريد التحرر مـن النفـوذ الأجنبي والاستبداد الداخلي وبالطبع فإن شريف باشا وفقـا لتركيبته ورؤيته قد وافق على مطلب الـدولتين بحرمـان المجلس من حق نظر الميزانية، وبالطبع فإن قوى الثـورة قد رفضت ذلك بصـورة قاطعـة، إذ مـا قيمـة الدسـتور والبرلمان إذا لم تكن لهذا البرلمان هيمنة علـى ميزانيـة البلاد، ولماذا كان كل هذا العمل الثـوري والتضـحيات إذا ظلت مالية البلاد في أيدي الأجانب، والثورة ذاتها ما قامت إلا لتطهير البلاد من النفوذ الأجنبي أولا وثانيا وأخيرا.

وانتصرت إرادة الثورة، واستقال شريف باشا، وتـم تشكيل مجلس وزراء من عناصر الثورة، كما تـم إعـلان الدستور وصدق عليه مجلـس النـواب فـي ١٧ فبرايـر ١٨٨٢، وكان دستورا يعطي كل السلطات للشعب والنـواب بما فيها حق نظر الميزانية برغم اعتراض إنجلترا وفرنسا،

وكان هذا انتصارا حاسما لقوى الثورة، وعمت البلاد موجة من الفرح والسرور (في حين استقبلت الدوائر السياسـية الإنجليزية والفرنسية إعلان الدستور بالسخط والأسـتياء) [٣٢] ، وبالطبع أخذت تبيت أمرا بليل.

ما أن استلمت حكومة الثورة برئاسة البارودي زمام السلطة، حتى بدأت بالتعاون مع مجلس النواب في تحقيـق الإصلاحات والبرامج التي قامت الثورة من أجلها فمن ناحية ظهر اهتمام واضح بمسـألة التعلـيم واتخـذت القـرارات الوزارية لنشر المدارس الأولية في كـل مكـان وخصـص البرلمان العديد من الجلسات لمناقشة مسألة التعلـيم، بـل تعهد النواب بأن يقوم كل منهم بإنشاء مدرسة على نفقتـه الخاصة نشرا للتعليم ومن ناحية أخـرى ظهـر الاهتمـام واضحا بمسألة إخضاع العلاقـات الخارجيـة والمعاهـدات لرقابة وسيطرة مجلس النواب، وبالإضافة إلى ذلـك كـان هنـاك اهتمـام بترقيـة أحـوال المـوظفين والمعاشـات ومشروعات الري والصرف ومنع استخدام الفلاحـين فـي أراضي الأسرة المالكة، والأكثر أهمية من كل هذا أن النائب أمين الشمسي(وهو تاجر ثري من الشرقية) تقدم بـاقتراح

إلى مجلس النواب بمنع اتفاق التجار علـى رفـع أسـعار السلع، وكذلك منع تصدير الغلال للخـارج، وقـام الـبعض باقتراح إنشاء خزان في أسوان وفي الاحتفالات التي أقامتها جمعية المقاصد الخيرية، طالب مصـطفى أفنـدي مـاهر بالاجتهاد في تحصيل العلوم والفنون، وأستحث ذوي الخبرة بإنشاء بنك وطني أهلي يستغني به الأهلون عن الاقتـراض من المرابين بالفوائد الفاحشة [٣٣].

وكان الحديث يدور أيضا علنا وهمسا بين قادة الثورة والجماهير عن الإطاحة بالخديوي توفيق، بل بأسرة محمـد علي كلها وكان هناك حديث عن إقامة نظام جمهوري بديل، وتعديل نظام انتخاب مجلس النواب ليمثل قاعدة شعبية أكثر اتساعا، وتعد كلمات المستر سنكفكس القنصل الفرنسي في مصر عند أبرق لحكومته محذرا قـائلا:" والخلاصـة إننـا بإزاء حكومة ثوريـة وأن خلـع الخـديوي أصـبح أمـرا محتوما).

وقال في برقية أخرى في اليوم ذاته (عنـدما تكلـم بعضهم مع عرابي عن الأمير حليم باشا صرح غاضبا بأنه من الواجب التخلص من أسرة محمـد علـي كلهـا) [٣٤] ،

وتعد هذه الكلمات تلخيصا بالفعل للحالة كلها، حالة الثـورة وحالة القوى المعادية للثورة، فالقوى المعادية أصبحت في حالة ذعر حقيقي لدرجة أن يبرق القنصل الفرنسي لحكومته برقيتين في يوم واحـد محـذرا ومنبهـا، كانـت القـوي الاستعمارية تعرف وترصد كل شيء حتى مـا يفكـر فيـه الثوار، وكانت متيقنة من أن خلع الخديوي بات مسألة وقت لا أكثر، فكلمات سنكفكس تتكلم عن هـذا بلفـظ أن عـزل الخديوي أصبح محتوما، كانت القوى الاستعمارية تعرف أن اهتمام حكومة الثورة بالتعليم معناه زيـادة رقعـة الـوعي والثورة والقدرة على موجهة الاستعمار والقدرة على البناء الداخلي أيضا، وكانت تعرف أن الدعوة إلى إنشاء بنك أهلي وطني معناه بداية الطريق لقيام نهضة صناعية تعتمد علـى تمويل وطني ومعناه أيضا القضاء على النفـوذ الأجنبـي، خاصة وأن كبار التجار أظهروا روحـا وطنيـة وإسـلامية عالية مثل السيد حسن موسي العقاد والسيد أمين الشمسي، بل هؤلاء التجار تحديدا وغيرهم كانوا من كبـار الثـوريين وأنفقوا أموالهم في سبيل الثورة في كافة مراحلها، فالسـيد حسن موسي العقاد كان من كبار معارضي إسماعيل حتـى

لقد تمت محاكمته ونفيه إلى السودان أثناء حكم إسماعيل ثم عاد من المنفي إبان الثورة، وهو أيضا مـن الـذين حكـم عليهم بعد هزيمة الثورة على يد الإنجليز بعشرين عاما من النفي، وكذلك السيد أمين بك الشمسـي كـان مـن تجـار الشرقية الأثرياء، ومن كبار المتحمسين للثورة والـداعين لها، وقد تمت محاكمته أيضا بعد دخول الإنجليز.

ليس هذا فحسب بل إن الثورة أظهرت وعيا وفهمـا دقيقا عندما أقترح أمين بك الشمسي على مجلـس النـواب (منع تصدير الغلال إلى الخارج)، أي تحريـر الاقتصـاد المصري من التبعية، فإذا كانت حاجة الأهالي إلـى الغـلال والرغبة في عدم غلاء أسعارها مبـررا لمنـع تصـديرها فمعنى هذا أن هناك تفكيرا في إنتاج ما تحتاجه البلاد وليس ما تحتاجه مصانع أوروبا من خامات وهذا عمل اقتصـادي شديد الخطورة علـى الاسـتعمار؛ لأنـه ببسـاطة يحـرم الاستعمار من أهم أهدافه وغاياته في النهـب وفـي ربـط الاقتصاد المحلي بالسوق العالمية كان معنى هذا كله تعليم، بنك أهلي _ منع تصدير الغلال، تجار ثوريون، دعوة إلـى العلوم والفنون، أن هناك نهضة صناعية مرتقبـة وخطـر

كبير على الاستعمار خاصة وأن تلك النهضة سوف تستند على شعب في حالة ثورة وعلى زعماء عظماء مثل النديم، فماذا يحدث لو تمت الخطوة الأخيرة وأطاحت الثورة بـأخر مراكز القوى المضادة وهو الخديوي أو الأسـرة العلويـة بكاملها، معنى هذا أن تظهر قوة إقليمية فتية تبشر بنهضة صناعية وحضارية ويمكن أن تكون نواة إسلامية تقف عقبة في وجه مشروعات الاستعمار في المنطقة.

وكان من الطبيعي والحالة هـذه أن تعمـل القـوى الاستعمارية على التدخل السريع ولو بالجيوش لتقليم أظافر الأسد وخلع أنيابه و إعادته إلى داخل الشباك، ولما كانـت حالة الثورة قد وصلت إلى هذا المدى من القـوة والـوعي والخطر فإن التناقضات الثانوية بين القوى المختلفـة فـي معسكر أعداء الثورة اختفت فجاه وتعاون الجميع في سبيل القضاء على تلك الثورة، وهكذا جاءت أسـاطيل كـل مـن إنجلترا وفرنسا إلى مياه الإسكندرية في ١٧ مـايو ١٨٨٢، بل وجاءت أيضا سفينتان حربيتان يونانيتان وجاءت أيضـا بارجة أمريكيـة، أي مظـاهرة أوروبيـة وأمريكيـة، أي استعمارية صليبية، أي أن الاسـتعمار الصـليبي تناسـي

تناقضاته الثانوية وقام بعمل مشترك مـادام هنـاك خطـر إسلامي في الأفق، وكان الهدف من تلك المظاهرة البحريـة العسكرية منع الثورة من الإطاحة بالخديوي، وإرباكها مؤقتا إلى أن تدبر أوروبا أمورها وتتفق على صيغة نهائية لـذبح الثورة، وفي مايو سنة ١٨٨٢ قـدمت كـل مـن إنجلتـرا وفرنسا مذكرة تطالبان فيها بالمطالب الآتية بنفس الترتيب:

١ ـ إبعاد عرابي عن مصر.

٢ ـ نفي كل من على فهمي وعبد العال حلمي إلى داخل مصر.

٣ ـ استقالة وزارة البارودي.

أي أن الهدف هو حرمان الثورة من ذراعها العسكري وحرمانها أيضا من السلطة،وقد جاء ترتيب حرمان الثـورة من ذراعها العسكرية متقدما على حرمانهـا مـن السـلطة (الوزارة)؛ لأنها مثلا لو أكتفت بإقالة الوزارة، واستمرت الذراع العسكري للثورة، لأمكن للثورة مثلا أن تستعيد مـا فقدته، ثم إن هدفها لم يكن معاقبة وزارة أو إقالتها، بل هي تستهدف طبعا ذبح الثورة، هذا الخطر الإسلامي الذي يلوح في الأفق مهددا المشروع الاستعماري الغربي بكامله.

وكان من البديهي أن يسارع الخديوي توفيق بقبـول المذكرة، أي أن يحدث التحالف العلني بين قوى الاستعمار، وقوى الاستبداد، وكان من الطبيعي أيضا أن قوى الثـورة أعلنت رفضها القاطع لتلك المطالب؛ لأنها كانت تعـرف أن المطلوب رأس الثورة وليس رأس عرابـي أو البـارودي، وأعلن الشعب بكل فئاته وقوفه صفا واحـد خلـف قيـادة الثورة، فانهالت البرقيات تأييدا لعرابـي، وانهالـت وفـود الشعب إلى القاهرة تأييـدا لعرابـي، وأعلـن الفلاحـون، والحرفيون والتجار والأعيان وضـباط الجـيش وجنـوده، وعلماء الأزهر تأييدهم لعرابي، لدرجة أن الخديوي توفيـق عندما جمـع الأعيـان والعلمـاء والضـباط فـي سـراي الإسماعيلية يوم ٢٧ مايو ١٨٨٢)، وعرض على الكثيرين منهم الوزارة رفضوها جميعا، وكذلك قال له الحاضرون أنه لا حق للدولتين في مطالبهما، وأن هذا ليس ألا شأننا داخليا، بل تركه معظم الحاضرين وانصرفوا دون استئذان.

وهكذا كان الأمر واضحا، والمعسـكران متمـايزان، معسكر الثورة يضم الجيش، العلمـاء، التجـار، الأعيـان، الفلاحين، الحرفيين، أصـحاب الرتـب وكبـار المـوظفين

وصغارهم، ومعسكر أعداء الثورة الـذي يضـم الخـديوي والخونة والمترددين استنادا إلى قوى الاستعمار الذي أرسل أساطيله إلى مياه الإسكندرية.

ومع أن الأمر كان بهذا الوضوح نجد الرافعي، بحسن نية يكتب ببراءة: " لو أن عرابي قبـل هـذه المقترحـات وغادر البلاد لكان ذلك تضحية منه في سبيل إنقاذهـا مـن التدخل الأجنبي " (٣٥).

وكان هؤلاء الأجانب قد حركوا أسـاطيلهم لخـلاف شخص بينهم وبين عرابي، فهل كان هؤلاء حقـا يريـدون الإطاحة بشخص عرابي ؟ أم كانوا يريـدون الإطاحـة بـه كرمز للثورة ويريدون الإطاحة معه بكل مكاسـب الثـورة ومراكز قواتها، ويطيحون بأي ملامح مشروع بنـاء قـوة لمصر تعرقل مشاريع الاستعمار في المنطقة أو تصلح نواه لتجمع إسلامي شاب واعد، كان المطلوب دائما وأبدا نهـب واغتصاب مصـر والعـالم العربـي والإسـلامي والعـالم المستضعف كله وكل ما يعرقل هذا يتعرض للتصفية حتـى ولو بالتدخل المسلح، وهكذا اتخذت الثورة موقفـا شـريفا برفض مطالب الدولتين.

وصحيح أن الجيش الإنجليزي قد ذبح الثـورة بعـد ذلك، ولكن هذا أفضل من جميع الوجوه مـن قيـام أبنـاء الثورة بذبحها بأنفسهم لمجرد التلـويح بالأسـاطيل، وفـي جميع الحالات، فإن مصر سواء ذبحت ثورتها بيد أبنائهـا كنصيحة الرافعي، أو بيد الجيش الإنجليزي كما حدث، فـإن مصر كانت ستحتل سلميا أو عسكريا، بل هي بالفعل كانـت قد احتلت سلميا، وكانت الثورة العرابية ثـورة ضـد هـذا الاحتـلال.

***

الاحتلال الإنجليزي لمصر

كانت الثورة قد استعصت على الذبح وتمسكت بأهدافها حتى الآن فلقد استمرت الثورة رغم كل المحاولات، استمرت رغم محاولة تطويقها بتقديم كبش فداء، وهو الخديوي إسماعيل، استمرت رغم نفي الأب الروحي للثورة، وهو السيد جمال الدين الأفغاني، استمرت رغم عمليات القمع والتآمر والاستبداد على يد الخديوي توفيق وعلى يد وزارة رياض باشا، استمرت رغم محاولة إلهائها بمكاسب جزئية في مقابل التنازل عن أهدافها الجوهرية على يد شريف باشا، استمرت رغم المظاهرات العسكرية البحرية الأوروبية المتكررة ورغم مذكرات إنجلترا وفرنسا أكثر من مرة، استمرت الثورة وخرجت في كل مرة أكثر التحاما بالجماهير، وأكثر عمقا وأتساعا في الواقع الشعبي، استمرت الثورة وبدأت في تحقيق بعض أهدافها مثل تقليص النفوذ الأجنبي تمهيدا لإنهائه عن طريق الإصرار على عدم السماح بتوقيع المعاهدات مع الدول أو إبرام الاتفاقات أو التخاطب مع القناصل ألا عن طريق وزارة الخارجية وبشرط موافقة النواب. ومثل منع تصدير الغلال حتى لا ترتفع

أسعارها، أي النظر إلى المسألة الإنتاجية والسلعية نظـرة وطنية يمكن أن تتطور في النهاية إلـى تحقيـق اسـتقلال اقتصادي وقطع خيوط التبعية للاقتصاد العالمي الذي يريـد مصر مزرعة للخامات وسوقا لتصـدير المنتجـات، ومثـل الدعوة إلى التعليم ونشره والاجتهـاد فـي طلـب العلـوم والفنون، أي خلق قاعدة علمية للصناعة خصوصا والنهضة عموما، ومثل تقوية الجيش وزيادة عدد أفراده، مثل التفكير والتحريض على خلع الخديوي كمؤسسة مستبدة، بل وكانت الثورة تمتلك قيادات واعية وقادرة على حشد الجماهير مثل عبد الله النديم وكانت تمتلك وسائل اتصال جماهيري عالية الكفاءة من خلال الصحافة والخطابة والجمعيـات الخيريـة وغيرها، فإذا أضفت إلى ذلك ثقل مصر الإسلامي والسكاني وما تمتلكه من طاقات بشرية وعلمية وثروات طبيعية، بـل وبنية أساسية ضخمة من طرق وسكك حديدية ومشروعات ري وصرف كان نظام الحكم قد نفذها لمصلحته أو لمصلحة التجارة مع أوروبا، فكانت النتيجة الحتمية لكل هـذا قيـام نهضة حضارية تستند إلى الإسلام في مصر، نهضة تمتلـك قاعدة صناعية، وتمتلك أيدلوجية إسلامية قادرة على حشد

الشعب كله خلفها بل والشعوب الإسلامية كلها بحيث تصبح خطرا على المشروع الاستعماري في المنطقة، بل ربما على أوروبا كلها ككيان استكباري استعماري صليبي.

وكان لابد والحالة هذه أن تسارع أوروبا مجتمعة أو توكل عنها إنجلترا لذبح الثورة، وهكذا تم الأعـداد للغـزو الإنجليزي لمصر.

وبدأت إنجلترا تعد لهذا الغزو قبل تنفيذه بفترة طويلة فوفقا لبلنت[٣٧] فإن وزارة الحربية والبحرية فـي إنجلتـرا عقدتا النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر مـن ناحية قناة السويس " وكان لابد من افتعال حادثـة تصـلح كذريعة للغزو فكانت مذبحة الإسكندرية في ١١ يونيه التـي أجمع كل المؤرخين علـى أنهـا كانـت بتـدبير القنصـل الإنجليزي في مصر، ولم يختلف المؤرخون ألا في تـورط الخديوي فيها أو عدم تورطه، فعلى حين يـرى العرابيـون تورطه فيها بالاتفاق مع الإنجليز يرى الآخرون عدم تورطه واقتصارها على تدبير القنصل الإنجليزي، وعلى كـل حـال فبعد الحادثـة بيـومين لا غيـر سـافر الخـديوي إلـى الإسكندرية(١٣ يونية ١٨٨٢) وأنحاز شيئا فشـيئا إلـى

الإنجليز، إلى أن وصل إلى حد الخيانة، مما دفع جميع طوائف الشعب من علماء دين وتجار وأعيان وضباط وغيرهم إلى إعلان خيانته شرعا، واستصدار فتوى شرعية بذلك من علماء الإسلام.

وبدأ الأسطول الإنجليزي في ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢ وبدأت المعارك بين الفريقين إلى أن انتهت بسقوط القاهرة في ١٥ سبتمبر ١٨٨٢).

تناقضات بين حضارتين

التناقض الجوهري هـو التنـاقض بـين الحضـارة الإسلامية بما تمثله من حق وعدل وحرية وإعلان لكرامـة الإنسان ودفاع عن المستضعفين تلك الحضارة التي تقـاوم الظلم والاستبداد والقهر الفـردي والجمـاعي علـى كـل مستوى، وبين الحضارة الأوروبية الصليبية وهي حضـارة وثنية إغريقية ذات قشرة مسيحية، وهي الحضـارة التـي تقوم على القهر والاستعباد والظلم والنهب.

، وقد شهد الصراع بين تلك الحضارتين فترات طويلة من المد والجذر وأنتهي بمحاولة الحضارة الغربية السيطرة على العالم الإسلامي وعـالم المستضـعفين فيمـا يسـمي بالاستعمار، وكان الاستعمار يستهدف في ذلك الوقت عـددا من الأهداف الخطيرة، أولها تفكيك الخلافة العثمانية بما أنها الخلافة الجامعة والموحدة للمسلمين، وكان يستهدف أيضـا السيطرة على أقطار العالم الإسلامي والعالم المستضـعف، ومنع ظهور، أي شكل من أشكال النهضة وخاصة الصناعية منها وفي سبيل ذلك كان هناك العديد من أشكال الاختـراق السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعالم الإسـلامي، وفـي

حالة مصر فإن الخطة الاستعمارية تمثلت فـي محـاولتين للاحتلال العسكري فـي ١٧٩٨، ١٨٠٧ إلا أن المقاومـة الشعبية الإسلامية كانت حائلا دون ذلك، وهنا قررت قـوى الاستعمار تدمير البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسـية والثقافية التي تسمح لمصر بمثل هذه المقاومة الشعبية.

وكان محمد علي هو المنفذ لذلك بغير وعي للأسف، فقام بضرب المؤسسات القادرة على حشد الجمـاهير مثـل الأزهر، ثم قام بتصفية قواعد الإنتاج المصـري الزراعـي والصناعي والتجاري المرتبط بالمبادرة الشعبية وأنشأ نظام الاحتكار، أي ربط كل شيء بالدولـة وربـط الدولـة بـه شخصيا، وحقق إنجازات اقتصادية وعسكرية كبيرة إلا أنـه أستخدمها في الطريق الخطأ، وهو الصـدام مـع الخلافـة العثمانية وكانت النتيجة إضعاف قـوة الخلافـة العثمانيـة وإضعاف قوة مصر أو ضياع طاقاتها الضخمة التي ترتبـت على نجاحها في صد غزوتين استعماريتين في أقل من عشر سنوات وكانت تلك الطاقة كفيلة بقيـام نهضـة صـناعية وحضارية وعسكرية كبيرة لو سارت في طريقها الطبيعـي، وبعد أن أكمل محمد علي مهمته في استنفاذ تلـك الطاقـة

وفي إضعاف الخلافة العثمانية وفي ضرب أشـكال الإنتـاج الشعبية كان من السـهل تصـفية إنجازاتـه الاقتصـادية والعسكرية بالقضاء على جيشه أو بالقضاء عليه شخصـيا مادام كل شيء مرتبط به، وهذا خطة اسـتعمارية تقليديـة تكررت كثيرا.

وعقب ذلك تم احتلال مصر سلميا بدءا مـن ١٨٤٠، فلما حاول عباس باشا التصدي لذاك الغزو، تم التخلص منه أيضا عن طريق اغتياله، وبدأ الاحتلال الأوروبـي لمصـر يأتي في صـورة قـروض، مـرابين بنـوك، مشـروعات استعمارية أجنبية، ارساليات تبشير، بناء ودعـم مؤسسـة استبدادية متمثلة في الخديوي والحاشية، تشـجيع ظهـور أرستقراطية زراعية تحقق إنتاجـا زراعيـا متزايـدا مـن الخامات اللازمة لمصانع الغرب، وتحقق في نفـس الوقـت امتصاص أي فائض مالي إلى قطاع الزراعـة بعيـدا عـن القطاع الصناعي، وبالطبع كان الاسـتعمار يسـمح ببنـاء الطرق والسدود ومشروعات الري والسكك الحديديـة؛ لأن هذا كله يخدم عملية النهـب ويسـهلها، وكانـت الدولـة العثمانية خارج الحلبة عمليا بعد أن تعرضت لعمليات ضرب

وإضعاف متوالية من قوى الاستعمار، واكتفت بمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه عن طريق اللعب على التناقضـات الدوليـة الثانوية، وهو أمر لا يحقق شـيئا؛ لأن تلـك التناقضـات الثانوية بين قوى الاستعمار تختفي تماما في حالة الصراع مع الحضارة الإسلامية.

وفي حين سمحت أوروبا لليونان مثلا بالاسـتقلال بسوقها المحلية، حرصت على تدمير وضرب، أي محاولـة للاستقلال بالسوق في بلاد العـالم الإسـلامي، وأرغمـت الخلافة العثمانية إرغاما على فتح تلك السوق أمام أوروبا، وكانت الثورة العرابية محاولة إسلامية للتصدي لهذا كلـه، وهكذا تعرضت للتآمر الاستعماري بأكثر من طريقة وأكثـر من وسيلة، إلى أن انتهـت المسـألة بالتـدخل العسـكري الإنجليزي لذبح الثورة في مصر.

وهنا قد يبرز سؤال حول التناقضات الثانويـة بـين إنجلترا وفرنسا مثلا، ونحن ندرك أن القـوى الاسـتعمارية بينها الكثير من التناقضات الثانوية، ولكنها كما قلنا ثانويـة أولا، وتختفي ثانيا مع ظهور التناقض الجوهري، أي مـع ظهور الخطر الإسلامي.

كانت فرنسا وإنجلترا في حالة سباق محموم للسيطرة على مصر فالأولى حاولت في ١٧٩٨ والثانية فـي ١٨٠٧ والاثنان معا مشتركان أو منفردان عن طريـق الشـركات الصناعية وبنوك المال والمـرابين وإرسـاليات التبشـير، والقروض والرقابة الثنائية، والوزرين الأوروبيين، ثم فـي المذكرات أو المظاهرات البحرية التي جاءت فيها أسـاطيل الدولتين لتهديد الثورة في مصر، وإلى هنا ظلت الـدولتان كفرسي رهان ولكن لماذا سمحت فرنسا لإنجلترا بـاحتلال مصر منفردة سنة ١٨٨٢؟

وهذا السؤال يجيب عليه رئيس جمهوريـة فرنسـا بنفسه " المسيو جريفي قائلا:" إنه يتمنـي فـوز الجـيش البريطاني على الثورة لا لمصلحة الإنجليـز فقـط ولكـن لمصلحة فرنسا أيضا –؛ لأن الجامعة الإسـلامية سـتكون عاملا خطيرا في المستقبل – وأنـه يعتقـد أن المسـلمين سيستطيعون يوما ما مقاومة أوروبا في ساحة القتال " (٣٨) ، أي أن رئيس وزراء فرنسا يفضل انفراد إنجلترا بـاحتلال مصر على ظهور خطر إسلامي، أي أن التناقض الثـانوي يختفي إذا ما ظهر التناقض الجوهري.

وهذا القول الذي قاله الـرئيس الفرنسـي للسـفير الإنجليزي لتشجيعه على عملية الاحتلال يكشف أيضا عـن حقيقة أخرى هامة، وهي أن الثورة العرابية كانـت ثـورة إسلامية تشكل خطرا على الغرب كله.

وهنا قد يثور سؤال آخر، وهو لماذا لم تشارك فرنسا في الاحتلال، أي القيام بعمل مشترك لذبح الثورة، خاصـة وأن الأسطول الفرنسي كان موجودا أمام الإسـكندرية فـي نفس الوقت، ولكنه أنسحب تاركا المهمة للجيش الإنجليزي.

وهذا السؤال هام جدا، يكشف أيضـا مـدي عمـق الثورة وقوتها ، فالغرب الاستعماري كان يدرك أن الثـورة عميقة جدا في الوجدان الشعبي، وأنها لا تحتاج إلى مجـرد عملية ذبح سريع ثم العودة، ولكنها تحتاج إلى جيش احتلال دائم ومستقر يقوم بعملية الذبح ثم يستمر طويلا في البحث عن جذور الثورة لاجتثاثها، وهـذا لا يتحقـق ألا بجـيش احتلال واحد؛ لأنه لو قامت فرنسا وإنجلترا بعمل مشـترك لذبح الثورة، لكان عليهما أن يخرجا من مصـر بعـد أداء المهمة؛ لأن التوازنات الدوليـة لا تسـمح بقيـام احـتلال مشترك من دولتين معا فهذا يعقد المسألة، وبناء على ذلك

فإن فكرة القيام بعمل عسكري مشترك لذبح الثورة والعودة، سيجعل من المؤكد اندلاع الثورة مرة أخرى بعد انسـحاب قوات الدولتين، وهكذا فالأفضل لمصلحة أوروبا وفرنسا أن تضحي فرنسا بمصر لصالح إنجلترا أفضل من ظهور خطر إسلامي على أوروبا كلها.

وفي الحقيقة فإن هذه الحقيقة كانت ومازالـت مـن الوضوح بحيث لا يستطيع تجاهلهـا، أي مـؤرخ أو دارس لتلك الفترة وهذه الأحداث، حتى أن صـلاح عيسـي وهـو ماركسي ولا يمكن بحال من الأحوال أن ينحاز إلى التفسير الإسلامي للتاريخ أو لأي حادثه فيه يقول " أما فرنسا فقـد رأت في ذلك الموقف خطرا شديدا ، ذلك أن انتصار الثورة لا يعرض مصالحها المباشرة في مصر للخطر فحسب بـل يفجر احتمالات الثورة ضدها في مسـتعمراتها الأفريقيـة، وكانت تجابه إذ ذاك بمقاومة في تونس التي احتلتها سـنة ١٨٨١) مما يجعلها تزداد خوفا من الثـورة المصـرية أن تؤدي إلى بروز فكرة الجامعـة الإسـلامية ممـا يعـرض مستعمراتها في الشمال الأفريقي (الجزائر وتونس) للخطر " (٣٩).

هل كانت الثورة العرابية سـبباً فـي الاحتلال الإنجليزي لمصر؟

فرق كبير بين الافتراء على الثورة العرابيـة، وبـين ذكر أخطاء الثورة أو تقديم نقد موضوعي لها، وبداية فليس هناك أحد معصوم من الخطأ ألا الرسول صـلي الله عليـه وسلم، وكذلك فإن النقد والنقد الذاتي يقوم به المسلم خمس مرات على الأقل في اليوم الواحد " بعدد الصـلوات التـي يطلب فيها الإنسان المغفرة من الله تعـالى علـى أخطائـه وخطاياه " وطلب المغفرة مـن الله تعـالى يعنـي بدايـة الاعتراف بالخطأ ومحاسبة النفس عليه، والتوبة الجماعية أيضا شكلا من أشكال النقد الذاتي الجمـاعي، والجماعـة المسلمة تمارس تلك التوبة كل أسبوع على الأقل في صلاة الجمعة، والمحاسبة وتحديد الأخطاء عمل إسلامي مطلـوب ومرغوب، بل إن الله – تعالى- قد أشار في القرآن الكـريم إلى أخطاء المسلمين في موقعة أحد، ولم يكن هذا ألا درسا وتشريعا وفرضا لعملية النقد ، والحديث الشريف يرشـدنا إلى ضرورة النقد، ألـيس المسـلم مـرآة أخيـه، والنقـد

التاريخي، أو نقد تجارب الأسلاف عمل شـرعي وفريضـة إسلامية للعظة والاستفادة، والقرآن الكريم يحتـوي علـى مساحة واسعة من تجارب الأمم السابقة وخاصة الإسلامية منها، باعتبار الإسلام هو الدين الحق منذ بدء الخليقة إلـى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تلك التجـارب والـدروس المستفادة منها، وعندما أخطأ المسلمون في سـلوكهم مـع أسرى بدر نزل القرآن الكريم يوضح هذا الخطأ، ويؤيد رأي عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- المختلـف والمعـارض لرأي الجماعة المسلمة في ذلك الوقت -، وكـذلك عنـدما أخطأ المسلمون في موقعة حنين جاء القرآن ليرصد الخطأ ويصحح ويرشد.

والمسلم ينتقد الخليفة في اجتماع عام، فـي صـلاة الجمعة أمام الناس جميعا، كما حدث مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بل والمرأة تمارس هذا الدور وتنتقد رأيـا لعمر بن الخطاب ولا يجد عمر في ذلك حرجا، ويقر بالخطأ ويقول أصابت امرأة وأخطأ عمر، والآثار الدالة على كـون النقد فريضة إسلامية أكثر من أن تحصى.

وهكذا فإن المطلوب والمرغوب توجيـه النقـد إلـى الثورة العرابية وتحديد أخطائها ولكن هناك فرق بين النقـد وبين الافتراء.

ومن قبيل الأخطاء التي وقعت فيها الثورة العرابيـة، في رأينا، أنها تأخرت كثيرا في الإطاحة بالخـديوي، فلـو كانت قد أطاحت به مبكرا وكانت تمتلك ذلك وتقـدر عليـه، لحرمت القوى الاستعمارية من مؤسسة هامة استفادت بها ولعبت بها وخاصة في الأوقات الحاسمة، لو أطاحـت بـه مبكرا لحرمت الخونة والمترددين من نواة يتجمعون حولها وعلى الأغلب أنها لو فعلت لك لكان المترددون قد التحقـوا بذيل الثورة، وما كان للخونة أن يفعلوا ما فعلوه.

كان على الثورة أن تجعل الإطاحـة بالخـديوي مـن الأشياء ذات الأولوية والأسبقية حتى على المطالبة ببرلمان ودستور؛ لأن البرلمان في ظل وجود مؤسسـة الخـديوي المستبدة وبحكم تركيبته كان من الطبيعي أن تظهـر فيـه عوامل الخيانة والتردد، والمفـروض أن الحيـاة النيابيـة السليمة لا تتم ألا بعد الإطاحة بمؤسسات الاستبداد ولـيس في وجودها.

ومن أخطاء الثورة أيضا أنها لم تسـلح للجمـاهير، واكتفت بوجود الجيش كقوة عسكرية في معسكر الثـورة، وكان هذا أكبر وأفدح الأخطاء فلو تم تسـليح الجمـاهير، لكان من الصعب أن تنتصر جيوش الاحتلال، بل كـان مـن الصعب أن تفكر حتى في الغزو، وعملية تسليح الجمـاهير كانت متاحة بل وسهلة جدا، فإذا كان الجيش مع الثورة منذ وقت مبكر جدا، فإن تسليح الجماهير يصبح سهلا، ولن يجد من يقدر على منعه؛ لأن نظام الحكم المستبد لن يجـد أداه للقمع للحيلولة دون ذلك، أليس الجيش مع الثورة ؟! فمـا بالك، وقد نجحت الثورة في أن تحتفظ بوزارة الحربية فترة طويلة، بل وبرئاسة الوزارة، ألم تكن تلـك الفتـرة كافيـة لتسليح الجماهير، أضف إلى هذا أن الثورة كانـت تمتلـك قيادات جماهيرية قادرة على تحقيق ذلك مثل عبد الله النديم وعلماء الأزهر بكافة درجاتهم وأعمـارهم وكانـت تمتلـك مؤسسات وجمعيات سرية وعلنية قادرة أيضا على تحقيـق هذا الهدف والجماهير بالطبع كانت شديدة الحماس للثـورة ومستعدة لذلك، بل وقامت بالعديد من الأعمـال والأحـداث التي تؤكد استعدادها لذلك، وقدرتها عليه ورغبتها فيه.

ومن أخطاء الثورة أيضا أن قيادتها لم تقرر استمرار الكفاح الشعبي المسلح بعد هزيمـة الجـيش، وكـان مـن المفروض ألا يستسلم عرابي، بل أن يقوم بقيـادة حركـة مقاومة شعبية مسلحة، وكانت الجماهير أيضا مستعدة لذلك وقادرة عليه بل وحاولت أن تقوم بتلك المقاومـة ومنعهـا محافظ القاهرة، أكثر من هذا أن تلك الجماهير استطاعت أن تخفي النديم وتحميه تسع سنوات رغم وجود جيش الاحتلال ورغم رصد المكافآت الضخمة لمن يدل عليه.

وبالطبع المجال مفتوح للدراسة وتحديـد الأخطـاء بهدف العظة والعبرة والاستفادة، أما الافتراء على الثـورة فهذا أمر آخر، وأكبر المفتريات على الثورة هذا القول الذي يرى أن الثورة العرابية كانت سببا في الغـزو الإنجليـزي والاحتلال الإنجليزي، وهذا القول شديد الخطـورة وشـديد الخطأ وشديد الخبث أيضا، حتى ولو كان قائله هو الرافعي أو غيره من المنتمين إلى مدرسة الحزب الوطني، فهم وأن كانوا وطنيين ولا شبهة في إخلاصهم إلا أنهم بحسن نيـة ودون أن يدروا يخدمون قوى الاستعمار خدمة كبرى، ليس في إدانة الثورة العرابية فقط ولكن فـي إدانـة، أي عمـل

ثوري لاحق، فهذا القول يرى أن الثورة نوع مـن الفتنـة وأنها أعطت الذريعة للاحتلال، أي بطريقة غيـر مباشـرة توجيه للجماهير بأنه لا داعي للثورة؛ لأنها لا تؤدي إلى ألا الخراب وتعطي قوى الاستعمار المبرر للتـدخل، وإذا كـان لابد من مقاومة فلتكن سلمية وبوسائل قانونية مثل سـلوك شريف باشا مثلا وبالطبع هذه براءة أكثر من اللازم، فـإذا كان الاستعمار ومؤسسات الاستبداد هـي التـي وضـعت القوانين، أليست تلك القوانين لتكريس الواقع الاسـتعماري وحمايته، بل وحتى النضال السلمي لتغيير هذا الواقع وتلك القوانين هل يصلح ؟ هل يصلح النضال السلمي في مواجهة جيش احتلال لا يتورع عن ارتكاب أبشع الجرائم لقمع هـذا النضال السلمي ذاته، نعم النضال السلمي مطلـوب ولكـن كأحد الوسائل وليس الوسيلة الوحيدة، فلم يعرف التـاريخ وربما لن يعرف استعمارا قد خرج بدون كفاح مسلح وكذلك لم يعرف التاريخ ولن يعرف مؤسسة مستبدة سلمت للشعب بحقوقه ألا عبر بحار من الدم والسجون والقمع.

ولنعود إلى مناقشة قول الرافعي وغيره في أن الثورة العرابية كانت سببا للاحتلال، فالحقيقة أن هذا القول يتجاهل

عددا من الوقائع والحقائق فجيش الاحتلال مـثلا لا يـأتي للاستمتاع بشمس الشـرق السـاطعة، ولا تقـوم الـدول الاستعمارية بالأنفاق علـى الحمـلات العسـكرية لتحقيـق الاستقرار مثلا أو حماية الخديوي أو قطـع رقبـة عرابـي كشخص، والاحتلال ذاته ماذا يعني، أليس يعنـي السـيطرة على السوق، وصياغة الاقتصاد بطريقة تجعله قابلا للنهـب الاستعماري، ألم يتحقق ذلك منـذ ١٨٤٠، وأسـتمر فـي التوسع تدريجيا إلى أن وصل إلى وجود رقابة ثنائية علـى مالية البلاد، بل وزيرين أوروبيين لإدارة اقتصاد البلاد، ألم تصل هذه الأمور إلى درجة أن فرنسا وإنجلترا رفضـتا أن يناقش مجلس النواب الميزانية، ألم تكن مصر غارقة فـي الديون، ألم تكن بيوت المال الأوروبية والبنـوك تمـارس النهب بأقصى درجاته، ألم تكن الشركات الأجنبيـة تمتلـك ٩٦% من المشروعات في مصر، ألم يصل المرابون إلـى أعماق الريف المصري لمص عرق الفلاح عن طريق الربا، ألم تكن مصر مزرعـة للقطـن لسـد حاجـات المصـانع الإنجليزية وخاصة إبان الحرب الأهلية الأمريكية، ألم تكـن مصر تكتظ بحثالات الأوروبيين من أفاقين ومغامرين ورجال

بنوك وسيطر هؤلاء على الإنتاج في مصر عموما وامتلكوا الأرض واحتكروا التجارة ووصل كثير منهم إلـى مراكـز سياسية وظيفية ممتازة في الجهاز الإداري للدولة سواء في الجيش أو في القطاع المدني.

وإذا كان الاحتلال يعني السيطرة على نظام الحكـم أو القرار السياسي، ألم تكن السلطة الحقيقية في يـد القـوى الاستعمارية، ألم تقم هذه القوى بخلع رأس النظام ذاتـه (الخديوي إسماعيل) عندما أرادت، ألم تكن هي التي تفرض رؤساء الوزارات مثل رياض باشا، ألم تعترض هذه القوى على إقامة البرلمان وحرضت الخديوي توفيق على مصادرة الحريات وإعادة السلطة بكاملها إلى يديه، ألم تعترض هذه القوى على نظر مجلس النواب علـى الميزانيـة وهـددت بالتدخل المسلح؟

ألم تكن تملك بمقتضي اتفاقيـة ١٨٤٠، منـع أي قـرار سياسي بالاستقلال بالسوق المصرية، ألـم تصـل درجـة السيطرة على جهاز الحكم إلى درجة طلب نفي عرابـي أو عبد العال حلمي أو إقالة وزارة البارودي؟

ألم تكن السلطة الحقيقية في يـد القناصـل والمستشـارين الأوروبيين وخاصة الإنجليز والفرنسيين حتى أنه لم يكـن يصدر قرار داخلي أو خارجي عن الخديوي إلا بعـد أخـذ الموافقة منهم؟

ألم تكن السيادة التشريعية والقانونية غائبة تمامـا، وكـان الأجانب يتمتعون بنظام قضائي مستقل داخل مصر ومجحف أيضا ويطلق يدهم في النهب والعربدة بل وارتكاب ما شاءوا من الجنح والجنايات والجرائم، بل وحق إصـدار الصـحف دون الخضوع للسلطة المصرية؟!.

ألم يكن هذا احتلالا ؟ إذن فالثورة العرابية لم تكن ألا ثورة على هذا الاحتلال السلمي التدريجي، وليست سببا للاحتلال كما يحلو للبعض أن يردد بحسن نية أو بسوء نية، بل أنـه لما قامت الثورة وأصبحت خطرا على المشروع الاستعماري القائم بالفعل قررت إنجلترا إنفاق الأموال وتحريك الجيوش، لذبح تلك الثورة.

ومن ناحية أخرى، أليس مـن الخطـأ أن ننظـر للمسـألة المصرية بمعزل عن مجمل الظروف السـائدة وقتهـا فـي العالم؟

ألم تكن جزءا لا يتجزأ من المسألة الإسلامية عموما التي يسميها المؤرخون المسألة الشرقية ؟

ألم يكن هدف أوروبا من قبل أن يظهر عرابي السيطرة على المستعمرات بما فيها مصر وتدمير الخلافة العثمانية ومنع، أي تطور أو نهضة إسلامية وخاصة الصناعية منها؟

ألم تكن مصر هي أهم المراكـز فـي المسـألة الشـرقية باعتبارها مركزا هاما من مراكز الإسلام والثقـل العلمـي والسكاني وامتلاك الثروات؟

ألم تحاول فرنسا احتلال مصر سنة ١٧٩٨، أي قبل عرابي بثمانين عاما وربما قبل أن يولد؟

ألم تحاول إنجلترا الشيء نفسه سنة ١٨٠٧؟

ألم تكن إنجلترا تلتهم كل يوم المزيد من المستعمرات فـي العالم الإسلامي، وكذلك فرنسا قبل وأثنـاء وبعـد الثـورة العرابية؟

ولعل قول السير أوكلند كلفن يؤكد هذه الحقيقة فهـو يقول (إن الثورة تشكل خطرا علي التغلغل الأجنبـي فـي مصر) [٤٠] ، أي أنها كانت خطرا على الاحتلال الموجـود

فعلا وليست سببا أو مبررا للتفكير فيه فهو سـابق عليهـا وهي خطر عليه.

وقد استعصت على الترويض والتصفية بكافة الوسائل فلم يكن هناك بـد لاسـتمرار هـذا الاحـتلال ألا بـالغزو العسكري.

مبدئيون وواقعيون

أما الموقف المبدئي... فهو موقف علماء الأزهر من الثورة ومن الخديوي، وأما الموقف الواقعي فهـو موقـف السلطان العثماني، والفرق بين الموقف المبدئي والموقـف الواقعي هو الفرق بين رجل المبادئ ورجل السياسة القائمة على التكتيك والمناورة والاستفادة من توازنـات القـوى، وليس معنى هذا أن المواقف المبدئية تتجاهل تلك الحسابات والتوزانات ولكنها لا تجعلها مقدمة على المبادئ بل خاضعة لها،ومسألة المبدئية والواقعية مسألة مثارة دائما بين القوى الثورية وخاصة الإسلامية منها،وقد كانـت تلـك المسـألة ومازالت من أعقد المسائل ومازالت من أعقد المسائل التي تواجه الحركات الإسلامية ويدور النقاش حولها كثيرا، يدور حول حـدود الواقعيـة ومسـاحتها، حـول الاسـتراتيجية والتكتيك، الهدف والوسائل؛ ولأن الإسلام دين يقـوم علـى الأخلاق والشرف والقيم فلا مناص من أن يكـون المسـلم مبدئيا في وسائله وأهدافه وليس في أهدافه فقط، حتى ولو كان الثمن هو الخسارة الجزئية والآنية؛ لأن خسارة معركة

بشرف أفضل من خسارة التاريخ والمستقبل وخسارة روح الحضارة الإسلامية.

وقف علماء الأزهر موقفا مبدئيا من الثورة، وكـانوا في طليعتها ومن كبار قادتها ودفعوا الثمن عندما انهزمـت وسوف نناقش دورهم في الثورة في موضع لاحق، وتبـدو مبدئية هؤلاء العلماء واضحة في ذلك الموقف العظيم الذي أتخذه العلماء من الخديوي عندما أنحاز إلى الإنجليز حيـث أفتي كل من الشيخ حسن العدوي والشيخ محمـد علـيش، والشيخ محمد أبو العلا الحلفاوي فتوى شرعية فحواهـا " أن الخديوي بانحيازه إلى العدو المحارب لبلاده يعد مارقـا عن الدين ويجب عزله " (٤١)

بل وقبل أن ينحاز الخديوي إلى الإنجليز علنًا نجد أن الشيخ عليش قد أفتي بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكمـا للمسلمين بعد أن باع مصر للأجانب باتباع ما يشير عليه به القنصلان (الإنجليزي والفرنسي) ولذلك وجب عزله (٤٢)، أي أن الخديوي يستحق العزل شرعا لمجرد اتباع ما يشـير به الأجانب، ونجد أن الشيخ حسن العدوي يفتي بشـرعية عصيان الخديوي قائلا " أنه لا طاعة لمخلوق في معصـية

الخالق، وأنه مادام الخديوي منحاز للأجانب فأنه وفقا لأمر الله ورسوله لن نطيع أوامره بل يجب أن نشن عليه وعلى الأجانب حربا مقدسة " [٤٣]

وكان هؤلاء العلماء يعرفون أن هذه الفتاوى ربمـا تؤدي إلى محاكمتهم أو إعدامهم، خاصة وأن الإنجليز قـد احتلوا الإسكندرية وأن هزيمة الثورة هو الاحتمال الأرجـح أن لم يكن أمرا مؤكدا، ومع هذا نجدهم يأخـذون الموقـف المبدئي الذي يضر بمصالحهم الخاصة، ولو كـان هـؤلاء يبحثون عن مبرر للتقاعس لوجدوا دعاة الواقعية يقولـون لهم، مادام الاحتلال هو الأرجح وهزيمة الثورة شبه مؤكدة فلنحافظ على مواقعنا ووظائفنا لنخدم بها المسلمين أو ننقذ ما يمكن إنقاذه وغيرها من التبريرات ولكن المبدئيـة هنـا انتصرت وانتصر معها التاريخ والمستقبل معهـا التـاريخ والمستقبل وظلت هذه الفتوى سيفا مسلطا على رقبـة كـل مستبد وكل خاضع للأجانب وحافزا قويا لاسـتمرار حركـة المقاومة فيما بعد.

أما الموقف المتسم بالواقعية غير المبدئية فهو موقف السلطان العثماني ويجب علينا في البدء أن نقرر مجموعـة من الحقائق، لنضع موقف السلطان في موقعه الصحيح.

أن الخلافة العثمانية الإسلامية قد جاءت فـي وقـت حرج بالنسبة للحضارة الإسلامية التي كانت تتعرض لهجمة أوروبية صليبية حاقدة وأن تلك الخلافة العثمانية قد أعطت للأمة الإسلامية شبابا جديدا، وحافظت على وحـدتها بـل ووجودها ذاته في وجه الحقد الصـليبي الأوروبـي، بـل ووسعت رقعة الإسلام في قلب أوربا ذاتها، ولهـذا السـبب فإن الحقد على الخلافة العثمانية أمـر صـليبي وأوروبـي تقليدي، وكذلك الهجوم الذي تتعرض له الخلافة العثمانيـة على يد مثقفي المدرسة الاستعمارية ليس بسبب أخطائهـا ولكن بسبب حمايتها للإسلام في الوقت الحرج ونشره فـي أوروبا ذاتها، وعلينا أن نعلم أن الحـروب الصـليبية لـم تتوقف يوما، فإذا كانت قد استمرت في الشـرق الإسـلامي قرنين ثم سـكنت إلـى أن تجـددت مـع مطلـع الحقبـة الاستعمارية فإنها ظلت مستمرة على بلاد المغرب العربـي أكثر من ألف عام، وأن السلطان عبد الحميد ذاته هو الذي

أتخذ الموقف المبدئي في رفض منح جـزء مـن فلسـطين لليهود أو السماح بالهجرة اليهودية إليها رغم الإغـراءات المادية التي قدمت له على المسـتوى الشخصـي وعلـى مستوى دعم ميزانيـة الدولـة التـي كانـت تعـاني مـن الإفلاس،وقد دفع السلطان عبد الحميد الثمن فـي شخصـه وفي الخلافة كلها نتيجة هذا الموقف أو على الأقل كان هذا الموقف من ضمن الأسباب التي أدت للتآمر على الخلافة.

أن أوروبا الصليبية لم تنقطع يوما عن محاربة الدولة العثمانية داخليا وخارجيا، وأن التحديات الأوروبيـة كانـت شديدة جدا على الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

إن الدولة العثمانية في ذلك الوقت كانت تعـاني مـن الضعف والتفكك داخليا وخارجيا وأنها كانت تحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه عن طريق الاستفادة من التناقضات الثانوية بين الدول الاستعمارية بعد أن أصبحت عاجزة على هزيمة تلـك القوى،

إن القوى الاستعمارية، كانت تعمل دائما على تـدمير تلك الخلافة ولكن على مراحل بحيث يمكن هضم ما يتفكـك منها سيئا فشيئا، وبحيث لا يكون سقوطها المفاجئ سـببا

في ظهور انتفاضة إسلامية في بلاد المسلمين تعيد توحيـد المسلمين حول محور آخر مثل مصر أو غيرها.

أن تلك الدول الاستعمارية كانت تعمل على خنق، أي نهضة علمية أو صناعية أو ثقافية في بلاد العالم الإسلامي، وكانت تدعم الاستبداد والجحود والاختراق والتغريب لمنـع ظهور انتفاضة إسلامية تقوى الخلافة العثمانيـة أو تكـون نواه لخلافة بديلة.

أن القوى الاستعمارية كانت قد نجحت بالفعل في اقتطاع أجزاء كبيرة من بلاد المسلمين مثل الهند، المغـرب العربي " تونس، الجزائر"و بعض أجزاء الجزيرة العربيـة، كما كان نفوذها العسكري والثقافي والسياسي والاقتصـادي قد وصل إلى معظم البلاد الإسلامية،

وهكذا فإن الدول الاستعمارية التي كان ترقـب عـن كثب أحوال الثورة في مصر كانـت تعرقـل، أي محاولـة عثمانية للاستفادة بهذه الثورة أو تدعيم مركزها في مصـر عن طريق هذه الثورة، بل كانت ترسـل سـفنها الحربيـة لمجرد وصول مندوب عثمـاني إلـى مصـر، التـي مـن المفروض أنها كانت تابعة رسميا للخليفة العثماني، (مثـل

مجيء السفن الحربية الفرنسية والإنجليزية إلى مصر فـي خريف ١٨١٨) احتجاجا على وصول بعثة عثمانية إليهـا، وطالبت الدولتان برحيل هذه البعثة في أقصر مـدة ممكنـة وبالطبع كانت سياسة الدولتان ترميان إلى عدم وجود نفوذ عثماني حقيقي في مصر حتى لا يؤثر ذلك على مخططاتهما وخاصة فيما يتعلق بـالوجود الاسـتعماري فـي الجزائـر وتونس اللتان كانتا تغليان بالمقاومة ضد الاحتلال الأجنبـي الفرنسي وبديهي أن النفوذ العثماني في مصر سوف يؤجج تلك المقاومة ومن ناحية الدولة العثمانية، وهي التي كانت تدرك الأخطـار المحيطـة، ومـدى ضـعفها العسـكري والسياسي، كانت تريد الاستفادة من هذه الثورة إلى أقصي مدي، وكان الخط العام لسياسة الدولة العثمانية تجاه مصر عموما وأثناء الثورة خصوصا هي الوقـوف ضـد النفـوذ الأجنبي الأوروبي فيها ومحاولة تقليص ودعم الثورة فـي ذلك الاتجاه،وقد أرسل السلطان خطابين إلى عرابـي عبـر فيهما عن وجهة نظرة في المسألة مؤكـدا " أن جلالتـه لا يهمه شخص الخديوي، وإنما يهمه أن يكون حـاكم مصـر محافظا على ديانة البلاد وحقوقها وغير مفرط فيها لأوروبا

ونصح عرابي " بالعمل على تقليص النفوذ الأجنبي "[٤٤] وأن يتوقي كل ما من شأنه أن يجلب على البلاد الغزو الأوروبي، ومنع الأجانب من أحداث الفتنة "[٤٥]

وأوضح بأن يعمل العرابيون لتوثيق عري الاتحاد بين مصر والدولة العلية، وأن يعملوا على منع السبل التي تؤدي إلى خروج بلادهم من الدولة إلى أيدي الأجانب الطامعين فيها كما حدث في تونس "[٤٦]

وهاجم السلطان في رسالته لعرابي " الخديوي توفيق؛ لأنه ضعيف يجري وراء أهوائه وذكر أنه لا يثق بإسماعيل ولا بحليم ولا بتوفيق"[٤٧]،

" وان المهمة الأساسية لعرابي كما يراها السلطان هي ألا يهمل في اتخاذ جميع الوسائل والاحتياطيات التي يتطلبها زماننا الحاضر لمنع وقوع مصر في يد الأجانب"[٤٨].

" أكد السلطان في نهاية الرسالة " أنه يثق في الشخص الذي يفكر في مستقبل مصر ويعرف أساليب الدسائس الأوروبية ويحتاط لها ويقوى العلاقة بين مصر والدولة العلية "[٤٩]،

ومعنى هذه الرسالة واضح في أن ما يهـم الدولـة العثمانية هو عدم وقوع مصر بيد الـدول الأوروبيـة وأن السلطان في سبيل ذلك يؤيد كل من يستطيع هذا ويؤكد في الوقت نفسه أنه لا يثق لا بإسماعيل ولا بحليم ولا بتوفيق، أي لا يثق بالخديوي ولا بأي بديل من أسرة محمد علي ولا مانع لديه بالتالي أن يكون عرابي أو أحد قادة الثورة هـو البديل مادام سيكون محتاطا للفتن الأوروبية وعاملا علـى منع وقوع مصر بيد الدول الأوروبية.

بل أن السلطان إحتج على تدخل فرنسا وإنجلتـرا في شئون مصر وانحيازهما ضد الثائرين [٥٠].

وبالطبع لم يكن السلطان يملك أكثر مـن الاحتجـاج فقدمه إلى الدولتين (فرنسا وإنجلترا) وإلـى كـل الـدول الأوروبية، وظل السلطان دائما يرفض إرسال جيش لقمـع الثورة التي تهدد الخديوي برغم مناشدة الخديوي له أكثـر من مرة وبرغم الضغوط الأوروبية عليه لتنفيذ هذا الأمـر [٥١].

وفي نفس الوقت كان يرسل الرسـائل أو المبعـوثين بشكل سري إلى عرابي يؤكد له ثقته ودعمه للثورة مادامت

ضد النفوذ الأوروبي بل وينعم على عرابي برتبة الباشـوية ويظهر أنه مستعد لجعله حاكم مصر بدلا من توفيق، " وكان السلطان يقاوم دائما فكرة إرسال قوة تصطدم بالثورة ويؤثر أن يكون حامي هذا الشعب من وقوع عدوان عليه " ويمكننا أن نفهم بصورة أكبر موقف الدولة العثمانية في ذلك الوقت حيث رفضت الاشتراك في المؤتمر الذي دعت إليه وعقدته الدول الأوروبية قبل غزو مصر في دار السفارة الإيطاليـة بالأستانة،وقد امتنعت كل من مصر وتركيا عـن حضـوره بينما حضرته كل من إنجلترا، فرنسـا، ألمانيـا، النمسـا، المجر، روسيا، إيطاليا، وقد قرر هذا المؤتمر دعوة تركيـا للتدخل في مصر بقوة كافية تمكن الخديوي من المحافظـة على سلطانه، على أن يكون التـدخل مشـروطا بالحمايـة الأوروبية وأن يخمد الثورة العسكرية ويعيد إلى الخـديوي سلطته وأن تكون مدة إقامة الحملة العثمانية ثلاثة أشـهر فقط وأن تكون نفقة الحملة على الخزانة المصرية " [٥٣] .

ولعل مقررات هذا المؤتمر تؤكد كل مـا سـبق وأن أكدناه، في هذا الجزء أو فيما قبله، فالمطلوب ذبح الثـورة ليس ألا، وإعادة الأمور إلى نصابها، أي استمرار الاحـتلال

السلمي والنهب الاستعماري لمصر عن طريق دوائر المـال الأوروبية عموما والفرنسية والإنجليزية خصوصا، في ظل حكم مستبد ومرتبط بالأجانب هو حكم الخـديوي توفيـق، والأعجب من هذا كله أن يتم ذلك على يد القوات التركيـة المسلمة وبأموال مصرية، وهذا طبعا يحقق عدة أهداف في وقت واحد، فالقوات التركية المسلمة أكثر قدرة هنـا علـى ذبح الثورة؛ حيث إن التعاطف الشعبي سيكون أقل كثيرا جدا مما لو تم ذبح الثورة على يد القوات الأوروبية، أضف إلى هذا أن ذلك سيوفر على أوروبـا نفقـات الحملـة ودمـاء أبنائها، وثالثا سيعيد الأمور إلى نصابها وهي حالة الاحتلال الأوروبي السلمي لمصر، أي عدم انفراد دولة أو دولتـين بالمسألة كلها.

وبالطبع كل ذلك تحت أشراف أوروبي كامل، وبشرط العودة في غضون ثلاثـة شـهور، أي ألا يسـمح لتركيـا بالاستفادة من ذلك في زيادة نفوذها في مصر فهـذا خطـر على المستعمرات الأوروبية في الشمال الأفريقي المسلم.

وكان من الطبيعي أن ترفض تركيا هذا لأمر، فهي لا ترغب في قتل الثورة بل هي تشجعها؛ لأن تركيا أصلا غير

مرتاحة للخديوي توفيق، وقد تباطأت في منحه فرمان الحكم في مصر على غير المعتاد، وهي أيضا غير مرتاحة لنفـوذ أوروبا الذي يتزايد في ظل حكم توفيق، وهي أساسا تشجع الثورة وتعطف عليها، ألم ترفض دائما التدخل لقمعها، ألـم يراسل السلطان عرابي، ألم يمنح السلطان عرابـي رتبـة الباشوية والنيشان السلطاني المجيدي، ألم يصرح السلطان لعرابي: بأنه لا مانع من خلع توفيق بل والأسرة الخديويـة كلها، ألم يلمح السلطان إلى موافقته على تعين عرابي نفسه حاكما لمصر؟.

ولما رفضت تركيا لم يكن أمام الدول الأوروبيـة ألا بأن تضحي بمصالحها كدول في مصر وتتنازل عن النفـوذ لصالح بريطانيا، وأن تسمح لبريطانيا بالانفراد بـذلك؛ لأن ذبح الثورة وسقوط مصر في قبضة إنجلتـرا أفضـل مـن ظهور ثورة إسلامية شابه تكون خطـر علـى المشـروع الاستعماري الأوروبي بكامله.

إذن فمفتاح فهم موقف الخلافة العثمانية من الثورة العرابية هو رغبة الخلافة في تفادي احتلال مصر رسـميا بعد احتلالها عمليا ومحاولة إزالـة هذا الاحتلال السـلمي

بتشجيع الثورة على ضرب النفوذ الأجنبي، وهي في الوقت ذاته تفعل ذلك عن طريق الوسائل التي لا تملك غيرها بعـد أن أصبحت ضعيفة لا حول لها ولا قوة وأمامهـا تحـديات ضخمة ومشاكل في الداخل والخارج ،أي بالاكتفاء بمنح قائد الثورة النياشين أو توصيل رسائل السلطان إليه لتشـجيعه وتقديم النصائح إليه، وكان السلطان يري أن نجاح الثـورة إذا لم يكن دعما جديدا للنفوذ العثماني فـي مصـر، فهـو سيكون على الأقل حائط صد أمام النفوذ الأوروبي في شمال أفريقيا

وفي الحقيقة فإن الموقف العثماني هذا، كان معروفـا لجميع الأطراف، أوروبا، الخديوي، العرابيين، و العرابيون من جهتهم حاولوا قدر الاسـتطاعة الاسـتفادة مـن هـذا الموقف، وكان تحليل العرابيين للمسألة كالتالي، أن الـدول العثمانية في مراحل انهيارها، ولابد ظهور قـوة إسـلامية شابه وصاعدة في مصر تكون دعما لتلك الخلافة أو بـديلا إسلاميا وحدويا لها، وأن تتمسك تلك الثورة بالا تصل إليها أسباب الفساد والضعف الذي دب فـي الدولـة العثمانيـة، وكذلك أن تكون الثورة ذات طابع ثوري مستمد من الإسلام،

وأن تعمل الثورة على بناء نهضة إسلامية في مصـر وأن تنهي النفوذ الأجنبي في مصر وتعرقل مشروعات الاستعمار في المنطقة عموما وفي الشمال الأفريقي خصوصا.

وبديهي أن يعلن قادة الثورة في كل مناسبة ولاءهـم للإسلام وللخلافة العثمانية فهذا لا يتعارض مع مبادئهم بـل هذه هي بالضبط مبادئهم، وبديهي أن يسعى قادة الثورة إلى الاستفادة من تأييد السـلطان؛ لأن لهـذا التأييـد مـردود جماهيري قوي.

ولكن مع كل هذا لماذا أصـدر السـلطان منشـور العصيان ؟ على خلاف كل مواقفه السابقة.

والإجابة على السؤال بسيطة جدا، وهي أن السلطان أراد أن يضحي بعرابي بعد أن تمت هزيمة الثورة فعلا، لعل وعسي أن يتيح له هذا المنشور بعض الأوراق للضغط على انجلترا لترحل عن مصر، وكان لسان حاله يقول: إذا كـان أبني قد أخطأ فأنا أتبرأ منه، إذا تركوا لي بيتي، وكانت هذه لعبة سياسية على حساب المبادئ، ففقد السلطان السياسـة والمبادئ معا وأساء إلى التاريخ العظيم للدولـة العثمانيـة وأساء أيضا إلى المستقبل، وبالطبع لم يكن لهذا المنشـور،

أي قيمة ولم ترحل إنجلترا عن مصر بـل الغـت السـيادة العثمانية الشكلية على مصر بعد ذلك أبان الحرب العالميـة الأولى، وهكذا فإن السلطان قد أخطأ في حق نفسـه وحـق عرابي وحق الثورة وحق التاريخ وحق المستقبل ولم يكسب شيئًا.

حاول السلطان أن ينقذ مصر من الاحـتلال علـى حساب عرابي والثورة ففقد مصر وأساء إلى عرابي وإلـى الثورة.

وفي الحقيقة فإن هذا المنشور وإن كان من الناحيـة المبدئية خطأ على كل مستوى، فانه من الناحية الواقعية لم يكن له، أي قيمة فقد جاء بعد أن انهزمت الثورة فعلا فلـم يكن ليقدم أو يؤخر في النتيجة ولكن بالطبع هنـاك أعـداء الإسلام وأعداء الخلافة العثمانية الـذين يعادونهـا؛ لأنهـا إسلامية ولأنها دافعت عن الإسلام كثيـرا، وبـالطبع فـإن هؤلاء سيثيرون الدنيا ويقيمونها ويقعدونها عن أثـر هـذا المنشور على الروح المعنوية للشعب والجيش وغيرهـا إلا أن معظم المؤرخين من مختلف المدارس الفكرية لم يـروا في هذا المنشور شيئا مهما أو مؤثرا في الأحداث، بل حتى

هؤلاء الذين لا يمكن أن يكونوا متعـاطفين مـع الخلافـة العثمانية قالوا شيئا من الحق مثل صلاح عيسي الماركسي يقول " برغم المجهود الذي بذله الباب العالي لكي يسـاعد العرابيين إلا أنه اضطر تحت ضغط الدول الأوروبيـة إلـى إصدار منشور العصيان " (٥٤)

أي إن صلاح عيسي يقر بأن ذلك المنشور جاء تحت إكراه- ولا منشور لمكره !!-، ويقر أيضا أن السلطان كان حليفا للعرابين وأنه قدم كثيرا من أجل ذلك، والآن هل تكفي هذه الشهادة ؟ بالطبع هي تكفي؛ لأنها من شخص لا يمكن أن يكون منحازا للسلطان، ومع هذا فعلينا أيضا أن ننـاقش الظروف التي ظهر فيها المنشور، فمن الناحية الزمنية ظهر المنشـور يـوم ٦ سـبتمبر ١٨٨٢)، أي بعـد العمليـات العسكرية بـ ٥٦ يوما كاملة "، - بدأ ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو-، ومن الناحية العسكرية فإن المنشور قد ظهر بعد أن أحتل الإنجليز الإسكندرية وبعـد احـتلال السـويس والسيطرة على القناة واحتلال بـور سـعيد والإسـماعيلية واحتلال (نفيشة والمحمسةوالقصاصين)، أي بعد أن حقـق الجيش الإنجليزي انتصارات حاسمة على جيش الثورة ولم

تعد المسألة ألا مسألة وقت وهنا قرر السلطان الذي رفض دائما الاشتراك في أي مؤتمر أو مفاوضات اعتمـادا علـى قوة الثورة، قرر هنا أن يحاول منـع الاحـتلال بالوسـائل الدبلوماسية بعد أن انهزمت الثورة فعلا فدخل في مفاوضات مع إنجلترا أتفق بمقتضاها أن يرسل جيش عثمانيـا قـوام ثلاثة آلاف جندي إلى بور سعيد في مقابل إعلان عصـيان عرابي، وكان السلطان قد ناور أثناء تلك المفاوضات بهدف عدم إعلان العصيان والاكتفاء بنداء إلى عرابي يناشده فيه طاعة الخديوي إلا أن إنجلترا أصرت على صدور منشـور العصيان، وكان السلطان يستهدف بحصوله على الموافقـة الإنجليزية على إرسال ثلاثة آلاف جندي عثماني أن يكسب ورقة تحقق له بعد ذلك جلاء كل الجيوش عن مصر سواء الجيوش الإنجليزية أو العثمانية خصوصا أنه أشترط أيضـا في نفس الاتفاق على عدم استمرار القوات الإنجليزية فـي مصر ألا ثلاثة شهور، وكانت بريطانيا تستهدف من منشور العصيان قتل روح المقاومة الشعبية التي كانت تخشاها أكثر مما تخشي الجيش، وكانت تعرف صلابتها بدليل ما فعلتـه تلك المقاومـة فـي ١٧٩٨، ١٨٠١ و ١٨٠٧، وبـالطبع

انخدع السلطان ونفذ الاتفاق وأصدر المنشور، ولم تسمح له إنجلترا بإرسال الجنود العثمانيين ولا نفذت وعدها بالانسحاب بعد ثلاثة اشهر بل لم تنسحب ألا بعد ٧٢ عاما بعد أن سلمت مصر للأمريكان قبل أن ترحل.

وهكذا دفع السلطان ثمنا غاليا من سمعته وسمعة الثورة في مقابل وعد لم ينفذ أبدا، وهكذا تكون أخطاء ما يسمي بالسياسة الواقعية التي تخسر المبادئ وتخسر الواقع أيضا، ويجب أن يكون هذا درسا للقادة المسلمين وللشعوب الإسلامية وللحركات الإسلامية، أن المبدئية مهما كانت نتائجها أفضل على المستوى العملي من الواقعية فضلا عن أنها سياسة أخلاقية تتفق مع حضارة الإسلام.

نعم كان السلطان مع الثورة وحليفا لها، ونعم كان السلطان يريد إنقاذ مصر من الاحتلال أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه بهذا المنشور ولكن حتى إنقاذ مصر من الاحتلال لا يبرر إدانة عرابي وإعلان عصيانه، ولا يبرر اتخاذ هذا الموقف الغير مبدئي.

المعارك ـ الصمود ـ الخـداع ـ الخيانـة

لم تكن مهمة جيش الاحـتلال الإنجليـزي مهمـة سهلة، ولم يكن احتلاله لمصر نزهة عسكرية، كانت هنـاك معارك حقيقية وكبيرة، وكانت هناك بطولات، وكان هنـاك جنود وضباط شجعان فعلوا كل ما في طاقتهم، وكان هنـاك شعب عظيم قدم كل ما يمكنه من الدعم.

كان الجيش الإنجليزي يتكون من ٥٠٦٠٠ جنـدي مسلحين بأحدث الأسلحة، وأسطول ضخم في مواجهة جيش مكون من ١٣ آلـف جنـدي، وعـدد مـن الاسـتحكامات والطوابي متخلفة عن العصر في تسـليحها، وعـدد مـن الخونة يعملون داخل صفوف الجـيش لحسـاب الخـديوي والإنجليز، ومع ذلك أو قل ورغم ذلك، صمد الجـيش فـي حدود المستطاع.

ففي الإسكندرية، رغم الطوابي المستهلكة والتسـليح الضعيف قاتل الجنود ببسالة حتى أن جون نينيـه أعتـرف بذلك وكان شاهد عيان حيث يقول: " ومع ذلك، فما كـان أبدع هذا المنظر، منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين

على مدافعهم، وهي مكشوفة في العراء، وكأنما هـم فـي استعراض حربي لا يرهبون الموت الذي يكتنفهم إذ لم يكن لهم دروع واقية ولا متاريس وكانت معظم الحصـون بـلا ساتر، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان كنا نلمحهم وسط الـدخان الكثيف كأنهم أرواح الأبطال في حومة الوغى سـقطوا ثـم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفون لنيران مدافعـه، وكان الأئمة يزرون الحصون ويشجعون المقاومـة، وقـام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ولـم تكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحون علـى أداء واجبهم، بل إن عاطفة الوطنية والثورة كانت تسـتثير الحماسة في صدورهم " (٥٥)

ويضيف " ومع أن المدافع المصرية كانت أقل عيارا من المدافع الإنجليزية فإن رماتها قد أدوا واجبهم على أكمل وجه بحيث أن سبع بوارج إنجليزية أصيبت بعطوب بعضها جسيم وبعضها خفيف (٥٦).

ويقول الشيخ محمد عبده في هـذا الصـدد " كـان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المـدافع ينقلـون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية الـذين كـانوا

يضربونها، وكانوا يغنون بلعن الأميـرال سـيمور، ومـن أرسله " [٥٧] .

ويقول عرابي " في أثناء القتال تطـوع كثيـر مـن الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية وأعطائهم الماء وحمل الجرحي وتضـميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات [٥٨]

وقال محمود فهمي " ورأيت في ذلك الوقت بعينـي ما حصل من غيرة الأهالي بجهـة رأس التـين وأم كبيـة وطوابي باب العرب وهمتهم في مساعدة عساكر الطوبجيـة من جلبهم للمهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونسائهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهـالي صـار يعمر المـدافع ويضـربها علـى الأسـطول " [٥٦] ويقـول القومندان هنت " لما وجدت أن الحصون أقوى ممـا كـان يظن وأن جنود المدفعية لا يستهان بهم وأنهـم يحكمـون الضرب رأيت أن من الصواب أن القي المراسي لكي أحصل على المسافة اللازمة بدقة " [٦٠]

ويقول الماجور تاك من رجال المخابرات الإنجليزية " في اعتقادي أنه لا يستطيع إلا القليل من الناس أن يـؤدوا

واجبهم بمثل ما أدي أولئك الجنود، وليس في مقدور الإنسان أن يخفي دهشته وإعجابه من بسالة الجنود الذين كانوا يقاومون تحت وابل القنابل، بل ويحاولون أن يرفعوا أحد المدافع بعد أن سقط من مكانه " [٦١].

ويقول وكيل القنصل اليوناني بالإسكندرية " أنني لا املك سوى الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات في مواقعهم، كانوا شجعان يصمدون لغارات جبارة وبالقرب من الإسكندرية كانت معارك صمد فيها الجيش المصري صمودا مذهلا" [٦٢] ، ففي واقعة الرمل بالقرب من كفر الدوار صد المصريون ثلاثة هجمات إنجليزية يصفها الرافعي بقوله" وهجم المصريون على الإنجليز هجوما شديدا وأضطروهم إلى التقهقر إذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصف " [٦٣].

وفي واقعة عزبة خورشيد " ٧ أغسطس ١٨٨٢ " صمد المصريون صمودا باسلا ودافعوا دفاعا مجيد " [٦٤] .

وكانت خسائر الإنجليـز أكثـر عـددا مـن خسـائر المصريين وأضطر الإنجليز في النهاية إلى التقهقر بعد قتال أستمر أربع ساعات.

وفي أيـام ١٩، ٢٠، ١٢، ٢٢ أغسـطس ١٨٨٢ نجح المصريون في صد الهجمـات الإنجليزيـة المتكـررة وتكبيدهم أفدح الخسائر ويقول الرافعي معلقًا على ذلـك " وتعتبر معارك الميدان الغربي في جملتها فوزا للعـرابيين؛ لأن الإنجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع المصرية فـي كفـر الدوار" (٦٥) وهكذا صمد الجـيش المصـري أمـا الغـزو الإنجليزي، بل وأنزل بقوات الغزو أفدح الخسائر مما جعـل الإنجليز يفكرون في تغيير مسار الغزو، فقرروا نقل المعارك إلى منطقة قناة السويس، أي غزو مصر من الشرق، وهـو الأمر الذي لم يكن أحد يفكر فيه بفضل وجود قناة السويس؛ لأن معنى الغزو عن طريق القناة أن تحدث تعقيدات دوليـة شديدة، ولكن متي كانت المعاهدات والتعهدات حـائلا أمـام المستعمر فهذا المستعمر لا يرعى حرمة ولا يحترم عهودا أو معاهدات على أن المسألة كانت أيضا اكبر مـن مجـرد معاهدات دولية كانت المسألة أن الغرب كل الغـرب يـدعم

الاحتلال الإنجليزي لمصر، ألم تقف الدول الأوروبية تتفرج على الغزو بل وتباركه ألم يقوم المسـيو دكلـرك رئـيس وزراء فرنسا بتهنئة السفير البريطاني في باريس قائلا " إن انتصار الإنجليز على المسلمين في مصر ينتج ثمرة طيبـة لفرنسا في تونس والجزائر " (٦٦).

ألم يبادر الميسو تيسو سفير فرنسا بلنـدن إلـى تهنئة اللورد جرانفيل وزير خارجيـة إنجلتـرا قـائلا:" إن انتصار الإنجليز هو انتصار أوروبي، ولو انهـزم الجـيش الإنجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تعمل حسابا للإسلام "؟(٦٧)

وهكذا لم يكن غريبا على دليسبس الفرنسي أن يخدع عرابي ولكن الغريب أن عرابي أنخدع، كان المجلس العسكري بقيادة عرابي قد أنعقد في شهر يوليو للنظر فـي أمر القناة، وأجتمع رأي المجلس على وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الإنجليـزي اجتيازهـا والوصـول إلـى الشاطئ الغربي منها ولكن دليسبس أرسل إلى عرابي فـي أن يمتنع عن قطع القناة وأكد له " أن الإنجليز يسـتحيل أن يدخلوا القناة " وحتى بعد أن وصلت البوارج الإنجليزية إلى

بورسعيد أستمر دليسبس في خداعه مؤكدا استحالة دخـول الإنجليز للقناة، وأنه مسئول عن ذلك شخصيا.

وإذا كان من الطبيعي أن يدعم الغـرب والفرنسـيين بالذات الاحتلال الإنجليزي لمصر لذبح الثورة، وإذا كان من الطبيعي أن يساهم دليسبس الفرنسي في تحقيق ذلك عـن طريق الخداع ولو على حساب شـرفه الشخصـي، ففـي مواجهة الإسلام فالجميع مستعد لعمل أي شيء، فإن الغريب أن عرابي قد أنخدع وكان هذا سببا من أسباب الهزيمة، فلو تم قطع القناة في وقت مبكر،وقد كان الوقت يسـمح حيـث أنعقد المجلس العسكري المذكور في شهر يوليو "، أي قبل احتلال القناة بوقت كاف،- احتلت القناة في ٢٠ أغسـطس ١٨٨٢ "-، لو تم قطع القناة لما أمكـن للإنجليـز احـتلال مصر وليست هذه مبالغة فالرافعي ذاته يرى هـذا الـرأي حيث يقول " كان الخطأ في مسألة القناة هي العامل الأكبـر إن لم يكن الوحيد؛ لانتصار الإنجليز [٦٨] .

ولا شك أن عرابي قد أخطأ، وليس هناك مـن هـو معصوم من الخطأ، وهو كقائد عسكري أو سياسي يمكن أن تخطئ حساباته ويمكن أيضا أن ينخدع ولا يقدح هـذا فـي

كفاءته ولا إخلاصه ،نعم عرابي أخطأ، ولكن هـذا الخطـأ كشف إلى أي حد يمكن أن يتواطأ الغرب ضد الإسلام وضد الثورة، وتجمع كافة المصادر التاريخية، وكل مـن نـاقش الثورة العرابية على أن قطع قناة السويس كان بـلا شـك سيؤثر حتما في نتيجة الحرب، حيث أن قطع القناة سيجعل على الإنجليز احتلال البلاد عن طريـق الإسـكندرية وهـذا محفوف بالمخاطر وتجربـة ١٧٩٨، ١٨٠٧ تثبـت ذلـك، فهناك ثقل سكاني من الإسكندرية إلى القـاهرة يمكـن أن يشكل مقاومة شعبية كبيرة كما حدث فـي ١٧٩٨، ١٨٠٧، وكذلك هناك جسور يمكن قطعها،

وهناك وسائل لإغراق المنطقة بمياه النيـل وجعـل حركة الجيش الإنجليزي فيها صعبة جدا، وإذا كان ولابد من غزو مصر من الشرق، مع قطع القناة، كان على الإنجليـز أن ينزلوا جيشهم في بور سعيد ثم السـير إلـى القـاهرة ومعاناة نفس المشاكل التي يمكن أن يعانوها فـي طريـق الإسكندرية القاهرة، وإذا حاولوا غزو مصر عـن طريـق السويس مع قطع القناة فإن معنى هذا أن طرق مواصـلات الحملة ستكون طويلة جدا حيث يلزم الـدوران حـول رأس

الرجاء الصالح مادامت القناة مغلقة كما أن طريق القـاهرة السويس أطول ومكتظ أيضا بالثقل السكاني وهكـذا فلـيس عجيبا أن تجمع المراجع التاريخية على أن خديعة دليسبس كانت من أهم العوامل التي حسمت نتيجة المعركة.

****

واجه العرابيون موقفـا صـعبا بعـد احـتلال قنـاة السويس، فخططهم الأساسية اعتمدت على حشد قوتهم في الميدان الغربي (الإسكندرية، كفر الدوار، رشيد) اعتمـادا على احترام إنجلترا لحياد القناة ووعود دليسبس وتأكيداته وبرغم الصعاب، استمر الجيش المصري في القتال بشجاعة وبسالة ولكن الخيانة لعبت دورا آخر في هزيمة الجـيش، احتل الإنجليز بور سعيد والإسماعيلية يـوم ٢٠أغسـطس. وكان معنى هذا أن مصير الحرب قد تقرر، يقول نينيـه " وبوصول الإنجليز إلى الإسماعيلية كانت نتيجة الحملة قـد تقررت "[٦٩]، ثم واصل الإنجليز زحفهم فـاحتلوا نفيشـة، والمجفر، ودخلوا في معركة كبيرة مع الجيش المصري في واقعة المسخوطة انتهت بهزيمة الجيش المصـري وأسـر رئيس الأركان محمود باشا فهمي، وكـان وقـوع رئـيس

الأركان في الأسر ضربة حاسمة أصابت الجيش المصـري وجعلت نتيجة الحرب أصبحت شبه مؤكـدة، ثـم أسـتولي الإنجليز على المحسمة والقصاصين وقام الجيش المصـري بالهجوم على الإنجليز في القصاصين ودارت معركة كبيـرة استمرت ثلاث ساعات ثم كادوا يوقعون بالجيش الإنجليزي فيها لولا أن الخطة تسربت عن طريق الخائن على خنفس، ويقول بلنت في هذا الصدد " أن الإنجليز فوجئوا بشـجاعة المصريين في هذه المعركة، وكاد الدوق أوف كنـوت يقـع أسيرا " [٧٠] .

ويقول عرابي:" إنها كانت معركة شديدة، وقد خسـر فيها الجيشان خسارة كبري وأن هذه الواقعة كانـت أشـد حرب بيننا وبين الإنجليز " [٧١] ويقول نينيـه " إن إصـابة القائدين الباسلين راشد باشا حسني وعلى باشا فهمي تـدل على مدى بسالة الجيش المصري في نفس الوقت " [٧٢].

ويعلق عرابي على تلك المعركة في مذكراته قـائلا :" إنه لولا الخيانة التي قام بها كل من على خنفس الذي سلم الخطة للإنجليز، ومسعود الطحاوي الـذي ضـلل محمـود سامي البارودي فمنع قواته من الوصول في الوقت المناسب

لكنا قد أستطعنا أن ننزل بالإنجليز خسـارة ضـخمة " [٧٣]
وكانت معركة التل الكبير هي المعركـة الأخيـرة وبـرغم هزيمة الجيش المصري فيها فإنها لم تخلو مـن بطـولات عظيمة.

فقوات الاميرالاي محمد عبيد ظلت في مواقعها تدافع حتى آخر رجل وسقط معظمها شهيدا بمـا فـيهم قائـدها الشجاع محمد عبيد، الذي ظل اسمه يرعب الإنجليز طـويلا واستبسل أيضا في القتال آلاي من البياده بقيادة احمد بـك فرج، وآلاي عبد القادر عبد الصمد، وتميز المقاتل حسـن رضوان مع رجاله في القتال إذ استطاع أن يصمد للهجـوم وأخذت مدافعه تصلي الإنجليز نارا حاميه وكبدتهم خسـائرا جسيمه، وقد لعبت الخيانة أيضا دورها في هـذه المعركـة فعلى خنفس وأحمد عبد الغفار وغيرهم من الضباط الخونة الذين اشتراهم سلطان باشا لحساب الخـديوي لعبـوا دورا حقيرا في كشف دفاعات الجيش المصـري وتسـببوا فـي هزيمته ويقول بلنت في هذا الصدد " إن الأميـرالاي عبـد الرحمن بك حسن الذي كان معهودا إليه حراسـة المقدمـة بدل في مواقع الحرس خصيصا لكي يفتح الطريق للإنجليز،

وأن أ ميرالايا آخر هو على بك يوسف خنفس كـان علـى قيادة خطوط الخنادق المتوسطة فارشد الإنجليز المهاجمين بأن وضع المصابيح في نقطة من الاستحكامات أخلاها مـن جنودها لكي يهتدي بها الإنجليز " (٧٤) .

إذا فلم تكن عملية الغزو نزهـة عسـكرية وبـرغم التفوق الساحق لقوات الغزو عددا وعـدة، فـإن الجـيش المصري قاوم مقاومة باسلة واستطاع أن يصـد هجمـات الإنجليز في كفر الدوار أكثر من مرة، ولم ينجح الإنجليـز أبدا في اختراقها، وفي الميدان الشـرقي خاضـة الجـيش المصري معاركا باسلة فـي القصاصـين وغيرهـا، إلا أن الخيانة لعبت دورها في تحقيق انتصار إنجليزي رخيص،وقد لمعت في سماء المعركـة عشـرات البطـولات وعشـرات الأسماء مثل محمد عبيد الذي صمد مع جنوده حتى أستشهد وظل لسنوات عديدة شبحا يخيف الإنجليز هنا ظهر محمـد عبيد، محمد عبيد في يافا، محمد عبيد يستعد لتكوين جيش والإنجليز يصدقون ذلك، ويفتشون ويقلبون الدنيا بحثا عن البطل الشهيد. وأحمد بك فرج قومندان آلاي البياده، وعبـد القادر عبد الصـمد، وحسـن أفنـدي رضـوان قومنـدان

الطوبجية، الذي مزقت مدفعيته صفوف العدو، وظل يقاتـل وهو جريح، وإعجابا ببسالته ترك له ولسلي قائـد العـدو سيفه تقديرا له.

ومن خلف الجيش كان هناك شعبا عظيما،وقد رأينـا كيف شارك وساعد في الدفاع عن الإسكندرية ضد الأسطول وكيف شارك الآلاف من الفلاحين والبـدو فـي المعـارك، مشاركة مباشرة أو عن طريق الدعم المـادي والمعنـوي، ألوف المتطوعين من كل مكان والتبرعات بالمال والغـذاء تنهال من كل مكان، وفرق كاملـة مـن الـدعاة الثـورين يحشدون الجماهير ويلهبون حماسها مثل الشيخ محمد أبـو الوصل والشيخ أحمد الدمنهوري والشيخ عبد الوهاب أبـو عسكر، وعبد الله النديم يجوب مصر كلها لـدعم المجهـود الحربي للجيش، بل ويرافق الجيش في المعارك ويخطب فيه ملهبا حماسه.

وفي صدد الدعم الشعبي يقـول محمـد عبـده " إن الجميع قد تبرعوا بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش " [٧٥] ويذكر نينيه " أن الشعب قد أمـد الجـيش

بالمال والقمح والشعير والفول والسمن والخضر والفاكهـة والخيل والماشية " [٧٦].

ويقول عرابي في مذكراته " أن الخزينـة المصـرية كانت خالية من المال؛ لأن السير كلفـن المراقـب المـالي الإنجليزي أخذ الأموال الموجودة في خزانة المالية وأنزلها بالأسطول الإنجليزي قبل إعلان الحرب بأيام وكذلك الأموال الموجودة بصندوق الدين حملها أعضاء القومسـيون إلـى السفن الحربية بالإسـكندرية " السـير كـولفن وأعضـاء القومسيون يسرقون، أي يفعلون أي شيء حتى السرقة في سبيل ذبح الثورة الإسلامية والمحافظة على النفوذ الأجنبي، فأرسلت (، أي عرابي) إلى المديرين أدعوهم إلـى جمـع الأموال والإعانات من مديرياتهم للجيش، ولما أعلن ذلـك للعموم جاءت الأمة على اختلاف طوائفها ونحلتها بالمـال والغلال والخيل والجمال والأبقـار والجـواميس والأغنـام والفاكهة والحبوب والخضراوات حتى حطب الحريق، حتـى أنه عند نهاية الحرب كان في مستودعات الجيش والمخازن ما يزيد على مليون جنيه من المال والمنتجات، وكل ذلـك

قدم هدايا من الأمة للجيش، وأن الجيش لم ينفق عليه درهم واحد أثناء الحرب من خزائن الحكومة " [٧٧]،

ويبدو عدد كبير من كبار المتبرعين مثل " موسي بك مزار الذي تبرع بألف وثلاثمائة ثوب بفتة وثلاثـين عجـل بقر، حميد بك أبو ستيت الذي تبرع بألف وخمسمائة ثـوب بفتة للجهادية، كما قدم وجهز ألف نفر مـن المتطـوعين، وكذلك أحمد بك المنشاوي الذي قدم تبرعات كبيرة للجيش، وعلى رأسهم طبعا السيد حسن موسي العقاد الـذي تبـرع بآلاف الجنيهات " [٧٨] والانطباع الذي يخرج بـه أي دارس أو قارئ لأحداث تلك الفترة يكتشف أن الشعب والجماهير لم تقصر إطلاقًا وكانت على مستوى المسئولية فالشعب الـذي يتبرع بمليون جنيه في شهر واحد رغم حالة الفقـر التـي كان يعانيها هو شعب عظيم جدا.

بل إن قائمة المتبرعين تضم أقصي درجـات الفقـر وأقصي درجات الغني مرورا بكل الدرجات فالذين تبرعـوا بحطب النار كانوا أشد الفلاحين فقرا ولم يكونوا يمتلكون ألا هذا الحطب، والذين تبرعوا بالغلال والحبوب هـم فقـراء الفلاحين ومتوسطيهم، والذين تبرعوا بالخضراوات كـانوا

فقراء الفلاحين والذين تبرعوا بالفواكه كانوا ممن يمتلكون حدائق الفواكه وهم فلاحون متوسطون أو أغنياء، والـذين تبرعوا بالحمير والبقر والجاموس كـانوا مـن الفلاحـين المتوسطين والأغنياء، والذين تبرعوا بالخيل كـانوا مـن الأغنياء من الفلاحين أو الأعيان أو التجار، والذين تبرعوا بالأقمشة كانوا تجارا، والذين تبرعوا بالأموال كـانوا مـن كبار التجار، بل تبرع أيضا أمراء البيـت الخـديوي مـن الشرفاء الذين انحازوا إلى الأمة، فوفقا لمذكرات عرابي: (فقد تبرعت والدة إسماعيل بجميع خيـول عرباتهـا (قـال جميع وليس بعض).

واقتدى بها بقية أفراد العائلة الخديوية وحرم خيـري باشا رئيس الديوان الخديوي وحرم رياض باشا" [(٨٠)].

ووفقا أيضا لمذكرات عرابي " فإن من الأهالي مـن تبرع بنصف ما يمتلك ومنهم من تبرع بجميع ما يمتلـك " [(٨١)] ،أليس هذا شعبا عظيما .والشعب تطوع فـي القتـال؟ فالعربان تطوعوا، والبدو تطوعوا والفلاحـون تطوعـوا، وطلبة الأزهر والمدارس تطوعوا، والـبعض كـان يجهـز المتطوعين بالسلاح، ووصل عدد المتطوعين فـي تقـدير

الرافعي أكثر من ثمانين ألفا، حيث بلغ عدد المقاتلين حوالي ١٠٠ ألف بعد أن كان عدد الجيش ١٣ ألفا في بدء القتال، أي أن عدد الذين قاتلوا فعلا مع الجيش مـن المتطـوعين كان٨٧% بخلاف من تطوع فـي نقـل المـؤن والسـلاح ومساعدة الجرحى، وصحيح أن هـؤلاء المتطـوعين لـم يضيفوا كثيرا إلى قوة الجيش النظامي ولم يـؤثروا علـى نتائج المعارك؛ لأنهم غير مدربين على الحـرب النظاميـة، ولكن ذلك لم يكن خطأهم، بل خطأ قيادة الثورة، وكان مـن المفروض ألا ينضم هؤلاء للجيش النظامي،بل أن تسـتفيد بهم قيادة الثورة في عمليات الكفاح الشعبي المسلح، وكان هذا لو حدث كفيلا بإفشال الغزو تماما واندحار الإنجليز، ألم يحدث ذلك في ١٧٩٨- ١٨٠١- ١٨٠٧). وبالطبع كـان الملايين مستعدين للمشاركة في هذا الكفاح الشعبي المسلح لو أرادت قيادة الثورة وعملت لهذا.

إذا فالشعب لم يقصر، وعلى مستوى الجيش و برغم عدم تكافؤ القوى صمد الجيش في الميدان الغربـي حتـى النهاية، وانهزم في الجناح الشرقي؛ لأن الدفاع عـن هـذا الميدان لم يكن في تخطيط القيادة اعتمـادا علـى وعـود

ديليسبس أو الثقة في حياد القناة واحترام إنجلترا لاتفاقياتها الدولية، ومع ذلك قاتل الجيش ظهـرت البطـولات، ولـولا الخيانة لكان الأمر مختلفا ولكن انهزمت الثورة في النهاية، ودخل الإنجليز القاهرة واستسلم عرابي، فما هـي أسـباب الهزيمة ؟

***

أسباب الهزيمة

كانت أسباب الهزيمة كثيرة ومتعددة، منها ما هـو عام ومنها ما هو خاص، منها ما هو فوق طاقـة الثـورة ومنها ما هو بسب أخطاء قيادة الثورة، لعل الحديث عـن تلك الأسباب يوضح السؤال الهام الذي يقفز أمام، أي باحث أو قارئ وهو لماذا نجحت مصر في صد الغزوتين الفرنسية في ١٧٩٨-١٨٠١، والإنجليزية في ١٨٠٧ وفشـلت فـي ذلك سنة ١٨٨٢، في ١٧٩٨، ١٨٠٧ كانت هناك مؤسسات وأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية تحقق أقصي قـدر من حشد الجمـاهير وتحريكهـا وتنظيمهـا فـي عمليـة المقاومة،وقد قام محمد علي بضرب تلك الأوضاع وتصفية تلك المؤسسات وخاصة الأزهر، ثم أكمل ورثته مـن بعـده ذلك، بالإضافة إلى الآثـار السـلبية لعمليـات الاختـراق الأوروبي لمصر اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا والتي استمرت وبلا هوادة منذ ١٨٤٠ إلى ١٨٨٢ وبالتالي فـإن قدرة المؤسسات وتلك الأوضاع الاجتماعيـة علـى حشـد الجماهير وتعبئتها كان قد ضعف في ١٨٨٢ بـرغم أنهـا حاولت على قدر استطاعتها، وبالطبع كان هذا العامل فـوق

طاقة الثورة وليس لها ذنب فيه، بل هي بالتحديد قامت من أجل استعادة تلك الأوضاع والقضاء على عوامل الاختـراق والاستبداد.

في ١٧٩٨- ١٨٠٧ كانت أوضاع العالم الإسـلامي والخلافة الإسلامية أفضل كثيرا جدا من تلك الأوضاع سـنة ١٨٨٢ وصحيح أن منحني الحضارة الإسلامية في الحالتين كان في حالة هبوط – ولكن درجة هبوطه في ١٨٨٢ كانت أكبر من ١٧٩٨– وهذا أيضا كان أمرا فوق طاقة الثـورة ولم تكن لها يد فيه – بل عن الثورة قامت لمحاولة وقـف الهبوط في هذا المنحني ومحاولة عمل انقلاب فـي اتجـاه الصعود من جديد، في الحالة الأولى – كان حكـام مصـر" المماليك " رغم كل أخطائهم اختاروا القتال ضد الفرنسـيين الكفار في ١٧٩٨ – ١٨٠١ وخاضوا العديد من المعـارك ضدهم – وحتى بعد هزيمتهم في القاهرة استمروا يقـاتلون في الصعيد حتى النهاية – وفي ١٨٠٧ تكرر الشيء نفسه وإن كانت مساهمتهم كانت أقـل؛ لأن محمـد علـي كـان يطاردهم وعلى كل حال، فهم لم ينحازوا للإنجليز .

أما في (١٨٨٢) فقد أختار الخديوي أن ينحاز إلى معسكر الإنجليز وتجمعت حوله فلول الخيانـة والتـردد – وهذا أيضا كان فرقا بين زمانين وبين نظامي حكم وعلـى مستوى الأسباب المترتبة على أخطاء الثورة وقيادتها فـإن الهزيمة كانت للأسباب الآتية:

١- أن الثورة لم تبادر إلـى الإطاحـة بنظـام الحكـم الخديوي مبكرا مما جعله يشكل في النهاية نواة تتجمع حولها قوى الخيانة والتردد.

٢- أن الثورة أخطأت في حساباتها عندما اعتمدت على التوازن الدولي في منع الإنجليز من الدخول عن طريق القناة.

٣- أن الثورة اعتمدت على الجـيش فـي المقاومـة، وبديهي أن الجيش الإنجليزي كان أقوى عددا وعـدة، ولو لجأت الثورة إلى الحرب الشعبية لتغيرت النتيجـة تماما، وكان هذا متاحا على كل مستوي، فالجماهير لـم تتأخر لحظة وكانت دائما أعظم من الثورة وأعظم مـن قيادتها، أما اختيار الثورة لأسلوب الحرب النظامية في مواجهة جيش حديث ذو تسليح أفضـل فهـذا معنـاه

الهزيمة المؤكدة، بل إن تطوع الأهالي هنا سيكون عبئا على الجيش وليس إضافة له، فالمتطوعون بـالطبع لا يصلحون للحرب النظامية، والحرب النظامية ذاتهـا لا تصلح في مواجهة جيش أقوى عددا وعدة،

٤- أن قيادة الثـورة أخطـأت خطـا جسـيما عنـدما استسلمت بعد هزيمة التل الكبير فقد كان من الأفضـل على كل مستوى استمرار المقاومة الشعبية المسـلحة، والفرصة كانت مهيأة لذلك فقد كانـت هنـاك جمـاهير جاهزة لذلك، بل هي حاولت من تلقاء نفسها وصـرفها محافظ القاهرة، وكذلك كان هناك أجزاء من الجيش في دمياط وكفر الدوار مازلت قادرة على المقاومة.

٥- أن جهاز الثورة أفتقد الكفاءة في اكتشاف وضـرب الخونة كما أن الثورة لم تعالج مسألة الخونة بالحسـم الكافي، ولو كانت الثورة تمتلك جهازا كفأ في هذا الأمر لقضي على خلايا الخونة في مهدها ولتغيـرت نتيجـة المعارك كثيرا، حيث أن الخيانة لعبت دورا كبيرا جـدا في الهزيمة، لدرجة أن المـؤرخ بيـوفيس يقـول " لا تحسبوا أن انتصار القوات الإنجليزية كان بسبب كفاءة

قوادها ومهارتهم ولكن كان سببها الخيانة، فالذي هزم عرابي ليس الجنرال ولسلي ولكن الذي هزم هو سلطان باشا وعلى خنفس وغيرهما من الخونة " [٨٢]

***

الإنجليز يشربون الأنخاب في القاهرة

أحداث ما بعد التل الكبير، وهي التسليم، والمحاكمة تستحق أكثر من تأمل، فما حدث في تلك الفترة من أحداث وتصرفات أعطت خصوم الثورة وأعداءها سلاحا قويا لذبح سمعة الثورة وسمعة عرابي، وجعلت حسني النية يبتلعون الطعم إلى آخره، ولكن هذا كله بالطبع لم يكن يستهدف ذبح الثورة لا ذبح عرابي، فالجيش الإنجليزي قد فعل ذلك، ولكن كان المطلوب ذبح ما تبقي من جذور ثورية وإسلامية لا تموت داخل التربة الشعبية، كان المطلوب هو ذبح الأمل ونشر روح اليأس حتى لا تنبت بذور المقاومة ضد الاحتلال ويستمر الاحتلال جاثما على صدرنا،وقد فعل الإنجليز بذكائهم التقليدي ورؤيتهم المستقبلية كل ما يمكن لتحقيق ذلك،وقد فعل أيضا مثقفي المدرسة الاستعمارية نفس الشيء، وهذا بالطبع شأنهم فهم جميعا يعملون لصالح قوى الاستعمار ويعملون ضد الثورة الإسلامية أمس واليوم وغدا، ولكن علينا أن نلفت نظر حسني النية فلا يبتلعون الطعم الخبيث، وأن يضعوا المسائل في موضعها الصحيح، وفي إطار ظروفها الموضوعية، ولنبدأ بعرابي، عاد عرابي

إلى القاهرة بعد هزيمة التـل الكبيـر، تـدارس الموقـف العسكري على الطبيعة فلم يجد ألا عدد ضئيل من الجنـود النظامين " ٤٠ جندي و١٠٠٠ خفيـر " وبالحسـابات العسكرية البحتة وجد أن الدفاع عـن القـاهرة مسـتحيل، نصحه نينيه بتسليم نفسه كأسير حرب إلى القائد البريطاني وبديهي أنه يترتب على ذلك أن يعامل كأسير حـرب وفقـا للقواعد المعمول بها في هذا الصدد، قبل عرابـي نصـيحة نينيه وأمر جنوده بالتسليم، وذهب هو وطلبـه باشـا إلـى مركز القيادة الإنجليزي في العباسية وسلما سيفهما للقائـد البريطاني الذي أمر باعتقالهما، بعد ذلك تم نقله إلى حيـث تمت محاكمته على يد محكمة عسكرية شـكلها الخـديوي، وصدر الحكم على عرابي بالنفي وتم تنفيذ الحكـم، حـدثت مشاجرات بين المنفيين، صدرت عن عرابي عنـد الإفـراج عنه تصريحات سيئة أو تنسب إليه تصـريحات سـيئة إذن فعرابي تصرف كقائد عسكري مهزوم، سلم سـيفه للقائـد المنتصر، ولا شك أن عرابي أخطأ هنا، فهو لم يكن مجـرد قائد عسكري مهزوم، بل هو قائد الجناح العسكري للثـورة وعليه أن يتصرف في هذا الإطار، ولا شك أنه كـان مـن

الأفضل بكل الحسابات أن يستمر عرابي في المقاومة بمـا بقي من الجيش مهما كان ضعيفا وأن يفجر مقاومة شعبية مسلحة ضد الاحتلال.

ولا شك أن هذا كان هو الطريق الصـحيح لقائـد يمثل ثورة، ولا شك أيضا أن الكفاح الشعبي المسـلح هـو الطريق الوحيد والحتمي؛ لأننا أمام قوى استعمارية أقـوى منا عسكريا وبالتالي فلن ينجح معها جيش نظامي، بل كفاح شعبي مسلح وواسع نعم علينا هنا من أجـل المسـتقبل أن نقر بخطأ عرابي، ولكن أيضا علينا أن نحـاول أن نـتفهم سلوك الرجل في ضوء تفكيره هو حتى ولـو كنـا مبـدئيا نخطئ هذا التفكير، فعرابي هنا لم يتصرف بمنطق قائد يمثل ثورة، ولكن بمنطق قائد عسكري مهزوم ظن أنـه سـوف يعامل كأسير حرب، وبالتالي فمنـذ الآن علينـا ألا نعامـل عرابي كأحد قادة الثورة وألا ننسب أي سلوك يسلكه إلـى الثورة بل إليه هو شخصيا كقائد عسكري أسير،نعم عرابي ظل طوال الثورة كقائد عسكري لها، ورفض دائما الخضوع لأعداء الثورة، بل وقاتل مع الثورة رغم أنف الخديوي، بل وأستمر في المقاومة بعد خيانة الخديوي وإصدار قرار عزل

عرابي، أي أن عرابي أستمر يقاتل طالما كانت هناك قـوة عسكرية مصرية تسمح بالقتال، أستسلم عندما انهارت تلك القوة، ومنذ استسلامه علينا أن نفصل بينه وبـين الثـورة هذه واحدة، والثانية أن وقائع الثورة كلها تقول أن زعـيم الثورة هو عبد الله النديم، فهو الذي فجر الثـورة بخطبـه وأفعاله وتحركاته، وكان دائما من وراء كل الأحداث الكبرى في الثورة، فهو الذي يقود الجماهير في التظـاهر وتوقيـع العرائض، وهو الذي يحشدها خلف الجيش في المعارك مع الخديوي أو مع الإنجليز، وهو أيضا فيلسوف الثورة وجهاز دعايتها، ووقائع الثورة تقول أن القائد السياسي للثورة هو محمود سامي البارودي، فهو رئيس الـوزارة فـي وزارة الثورة، في حين أن عرابي كان وزيرا للحربيـة فيهـا إذن فيجب وضع سلوك عرابي في هذا الإطار، فعرابي لم يكـن زعيم الثورة ولا مفجرها وكذلك لم يكن قائدها السياسي، بل هو قائد الجناح العسكري للثورة أو قائـد جـيش الثـورة، وبالتالي فإن خطأ عرابي في التسليم للأعداء ينحصـر فـي إغفاله كونه قائدا عسكريا يمثل ثورة.

وبالطبع فإن محاولة جعل عرابي زعيم الثـورة أو قائدها السياسي ومحاسبته ومحاسبة الثـورة علـى هـذا الأساس هي محاولة مشبوهة تستهدف تحقيق اكبر قدر من الإساءة إلى عرابي شخصيا وإلى الثورة وهكذا فإن عرابي قد أدي واجبه طوال مراحل الثورة في إطـار أنـه القائـد العسكري لجيش الثورة أو قائد الجناح العسـكري للثـورة، وينحصر خطأه في موضوع التسليم في كونه قائد عسكري يمثل ثورة وليس مجرد قائد عسكري هزم في معركة أمـا بشأن ضعف عرابي أثناء محاكمته، فهـذا مـن الضـعف الإنساني الذي ينتاب الكثير من المناضلين فـي السـجون والمعتقلات ولا يشكل بأي حال من الأحوال أدانه لهم، ولكن بالطبع فإن الـذين يظهـرون اسـتعلاء وتماسـكا أثنـاء المحاكمات والسجون هم أفضل من الذين يضعفون، وأمـا بخصوص المشاجرات الصبيانية بينه وبين رفـاق المنفـي فهذا من الملل الذي يعرفه الذين عانوا من فترات السجون الطويلة وليس له أي دلالة سياسية أو نضالية، ولا مانع أن نكرر أن المتماسكين في هذه الظروف أفضـل مـن غيـر المتماسكين، وأخيرا بخصوص ما نسب إليه من تصريحات

عقب عودته من المنفي، فالله يعلم مدى صـحتها، وحتـى يفرض صحتها فلا قيمة لها، فلم يكن عرابي عند ذاك ممثلا لحركة الجماهير ولا غيرها، بل كان مصطفى كامل في ذلك الوقـت هـو قائـد النضـال الشـعبي ضـد الاحـتلال، وعلى كل حال، فإن مصطفى كامل قد انتقد عرابي في تلـك التصريحات في حين أنه أشاد بمحمود سامي البارودي، أي أن الجيل الثاني من حركة الكفاح يقول نحن نعتز بـالثورة، ونرفض التصرفات المترتبة على الضعف الإنساني ويجـب أن نفهم موقف الحزب الوطني من الثورة العرابية في هذه الإطار، فمن المعروف أن الحزب الوطني كان يشيد دائمـا بالنديم وبالبارودي، وكان يعترض على أخطاء عرابي التي حدثت في إطار ضعفه الإنساني وخاصة في فتـرة سـجنه ومنفاه وبالطبع فإن أولي العزم من المناضلين في لحظـات المد ولحظات الجذر أفضل من غير أولي العزم.

ويظل دائما الاعتزاز بالثورة العرابية، وبعرابي كقائد للجناح العسكري للثورة رغم ضعفه الإنساني فـي السـجن والمنفي، ومن كان من المناضلين بلا ضعف فليلقي عرابي بحجر.

****

على أن عددا آخرا من رجـال الثـورة كـان يريـد المقاومة ويحاول أن يؤدي واجبه حتى اللحظـة الأخيـرة، فمحمود سامي البارودي يرفض أن يسلم نفسه مع عرابـي وطلبة، وذهب إلى المنصورة ومن هناك أبرق إلى عرابـي يطلب إغراق مديريتي القليوبية والشـرقية ليعطـل زحـف الجيش الإنجليزي ثم الاستيلاء على جميع المراكب في النيل وشحنها بالذخيرة وتوجيهها إلى الصعيد مع الجيش، ومـن الصعيد تستمر المقاومة أو من السودان إذا أعجزهم الدفاع من الصعيد " [(٨٣)] وفي دمياط أبى عبـد العـال حلمـي أن يستسلم، وحاول إقناع الأهالي بأن عرابي مـازال يقـاوم، ودعا إلى القتال حتى النهاية وأستمر على موقفه حتى يوم ٢١ سبتمبر " [(٨٤)] وفي القاهرة " قال الأميرالاي أحمد نيـر أنه يقف في وجه العدو ويقاتله برجاله الأربعين حتى يموت معهم " [(٨٥)] بل أن الأمير إبراهيم باشا ابن عم الخـديوي الخائن توفيق، وكان هذا الأمير من المؤيدين للثورة، قال " الواجب هو الدفاع مادام فينا بقية.

وفي القاهرة " حاول أهالي باب الشعرية والحسينية أن يحاربوا الإنجليز ولو بالنبوت فمنعهم محـافظ القـاهرة وأخذ يراقب حركاتهم منعا لوقوع الاحتكاك بـين الإنجليـز والأهلين [٨٦]

****

وفي المحاكمات ظهرت أيضـا حـالات الاسـتعلاء والصمود وليس الضعف فقط، فالشيخ حسن العدوي مـثلا عندما سألته المحكمة هل أصـدرت فتـوى بعـزل سـمو الخديوي توفيق ؟ يجيب في استعلاء وشموخ " لو قـدمت المحكمة الآن فتوى بعزل توفيـق " لاحـظ توفيـق بـدون خديوي أمام محكمة شكلها توفيق نفسه " لما ترددت " بـل ويضيف " وليس في وسع هيئـة المحكمـة وأعضـاؤها مسلمون أن تنكر أن توفيق مستحق للعزل؛ لأنه خرج على الدين والوطن " [٨٧].

ويوسف أبو رية الذي يصدر عليه الحكم بالإعـدام، وعندما يأتي أوان التنفيذ، يسأله الجلاد، هل تريد شيئًا قبل إعدامك ؟، فيرد قائلا" أريد لمصر الاستقلال – لكـم اليـوم وغدا لنا " [٨٨].

والسيد حسن موسي العقاد، تلت المحكمـة عليـه رسائل، لم تكن بخط يده، تقول تلك الرسائل أن توفيق أهبل وأنه لم تعد له ولاية على مصر فقد خرج علـى الشـرع؛ لانضمامه إلى الإنجليز، فقال العقاد ببساطة " نعم أنا كاتب

هذه الرسائل، برغم أنها لم تكن بخط يده، بل وأعترف أنـه وقع قرار عزل توفيق راضيا مختارا عندما حاولت المحكمة استدراجه إلى أنه اكره على توقيعها، ولما سئل عن ثروته أين ذهبت،وقد كان تاجرا ثريا جدا، بل كبير تجار مصر، قال أنفقتها في سبيل الثورة.

كان هؤلاء الرجال الـذين حـاولوا الاسـتمرار فـي المقاومة والذين لم يضعفوا في المحاكمة، كـانوا هـؤلاء جميعا يحمون جذور الثورة ويحافظون على شعلتها متقـدة تحت الرماد، وكان قبل هؤلاء زعيمها ومفجرها وفيلسوفها عبد الله النديم الذي رفض التسليم، واختفي داخل الوجـدان المصري، تسع سنوات كاملة، يحمل مشعل الثورة ويرعـى جذورها، ويحرث الأرض من جديد ويسقيها، وكان معه كل الذين أحبوا الثورة وحلموا بها من البسطاء والشرفاء وهم الشعب جميعا، هؤلاء الذين رفضوا تسليم النديم و أخفـوه في حبات عيونهم، رغم سيف الاحتلال والخديوي، ورغـم ذهب الاحتلال والخديوي، هؤلاء الذين رفضوا أن يسـلموا النديم أو يرشدوا عن مكانه بـرغم ألـف جنيـه مكافـأة مرصودة لمن يرشد عنه، وبعضهم لم يكن قد أمتلك يومـا

ولو جنيها واحدا أو حتى امتلأت بطنه يوما ولو من الخبـز الجاف، كان النديم يحمل شعلة الثورة، تحميه الجمـاهير، وكان يراسل عرابي في المنفي، ويعمل على إعادة تشـكيل قواعد الثورة، أو على الأقل تسليم الشـعلة متقـدة للجيـل الثاني،وقد وفي النديم وسلم الشعلة إلى مصطفى كامل.

الدهاء الإنجليزي

كان الإنجليز مرعوبين، مذعورين، فهم يعرفون أنـه لا يكفي احتلال مصر للبقاء فيها، فنابليون احتلهـا ١٧٩٨، واستمر الشعب يقاوم إلى أن هزم الحملة الفرنسية فرحلت ١٨٠١.

كان الإنجليز يعرفون أنه طالما كـان هنـاك تفكيـر ومحاولات للمقاومة فإن الجذور موجودة والشـعلة متقـدة تحت الرماد، خاصة وأن النديم زعـيم الثـورة وجهازهـا الإعلامي ومفجرها وعقلها المفكر قد أختفي داخل مصـر، أي أن النواة مازلت في التربة، والتربـة صـالحة، ومـن يدري، فإذا كان اليوم للإنجليز فلعل الغـد يكـون للثـورة، وتحرك الإنجليز تحت تأثير رعبهم وخوفهم من هذا الغـد، تحركوا في محاولة شيطانية لإفساد هذا الغـد ومصـادرته قبل شروقه تحركوا لقتل الأمل، وإلقاء الحشائش الضـارة على التربة لتخنق الجذور الثورية، كانوا يعرفون أن القبض على ٣٠ ألفا لا يكفي، ومحاكمة المئات لا يكفي، بـل لابـد من انتزاع الفكر الثوري من الواقع المصري، وفـي هـذا الإطار جاءت عملية الإساءة المتعمدة إلى رمـوز الثـورة،

وخاصة عرابي فأشاع الإنجليز أنه عقد معهم صفقة عندما سلم نفسه وتظاهروا بالدفاع عنه أمام المحكمـة ومنعـوا إعدامه؛ لأن إعدامه سيحوله إلى شهيد ورمـز فـي نظـر الجماهير مما يلقي ماء عذبا على جذور الثورة أو زيتا على قنديلها المشتعل تحت الرماد، وفي نفس الوقت فإن الـدفاع عنه عن طريق محامين إنجليز يسئ إلى الرجل، والإشاعة التي أطلقوها وجدت بالطبع من العملاء ومن الأغبياء مـن يرددها، وفي الحقيقة فإن حكاية تلك الصفقة ظلـت مجـرد إشاعة تغذيها الدوائر الاستعمارية ويرددها الأغبياء، ولكنها لم ترد في، أي مرجع محترم أو حتى غير محترم، بـل إن الرافعي الذي لا يترك نقيصة إلا وألصقها بعرابي رفض هذه الإشاعة ونقدها؛ لأنها بالطبع لا تحمل، أي جانب جـدي أو منطقي، وإذا كان الأغبياء قد رددوا تلك الإشـاعة الخبيثـة التي روجتها وتروجها الدوائر الاستعمارية، فإن الوجـدان الشعبي الذي أخفي النديم تسع سنوات، رد بطريقته الفـذة على ذلك الدهاء الشيطاني الإنجليـزي، فـردد الفلاحـون البسطاء أقوالا وأ شعارا هي الوعي بعينه، فـالولس هـو الذي هزم عرابي، أي الخيانة، وأن عرابـي مـازال فـي

وجدانهم رمزا للثورة على النفوذ الأجنبي، وقائد عسـكريا ثوريا مخلصا ومازال البسطاء والثوريون والشرفاء يغنون المواويل " من طلعة الفجر قومي يا مصـر يـا عياشـة، وقمري العيش، ومدى أيدك لأحمد عرابي باشا، آمر لـواء الجيش ".

***

دروس الثورة وعبرها

من البديهي أن الكتابـة عمومـا و كتابـة التـاريخ وقراءته خصوصا ليست بهدف التسلية أو الامتاع، بل هـو محاولة لاستخلاص التجـارب والعبـر والـدروس بهـدف الاستفادة منها، أي أنه موجه للمستقبل، هذه واحدة والثانية أن العوامل التي تفاعلت وأثرت في أحوال أمتنا فـي تلـك الفترة مازالت موجودة، بل ربما أمتنا تعاني حتـى اليـوم نفس الظروف، ونفس التحديات بل نفس الأساليب، وبديهي أيضا أن الحديث عن الثورة العرابيـة باعتبارهـا محاولـة إسلامية للتخلص من النفوذ الأجنبي ووضع قواعد النهضة والاستقلال أمر هام وضروري لمسـتقبل ومصـير أمتنـا المرتبط في محاولة للاستقلال والنهضة بالثورة الإسـلامية باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحقيق الاسـتقلال والنهضـة، وكثيرة هي دروس الثورة، وكثيرة هي تجاربها:

التخلص من النفوذ الأجنبي فريضة إسلامية

لعل أول وأهم هذه الدروس هـو أن الـتخلص مـن النفوذ الأجنبي ومقاومة الاحتلال السـلمي أو العسـكري، وعملية تحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي

والثقافي فريضة إسلامية بل هي فريضة مقدمة على الصلاة ذاتها، وأن ممالأة الأجانب مجرد ممـالأتهم خـروج عـن الشروع، وبالطبع الانحياز لهم خروج عن لشرع،

وفي الحقيقة فإن المسألة، هي سبب الثورة، واكبـر أهدافها إن لم يكن الهدف الوحيد باعتبار الأهداف الأخـرى متفرعة عن هذا الهدف ومرتبطة بمحاولة تحقيقـه، وهـذا السبب هو مفتـاح فهـم الثـورة، مفتـاح فهـم أفكارهـا وتصرفاتها ومفتاح فهم تصرفات القوى المعادية للثـورة، نعم كان التخلص من النفوذ الأجنبي هـو الهـدف الوحيـد والأكبر للثورة على مستوى أفكار قادتها وعلـى مسـتوى وسائل الثورة أيضا في حشد الجماهير وعلى مستوى حركة الثورة وأحداثها، فالأفغاني باعتباره الأب الروحـي للثـورة كان هو ذاته ثورة على النفوذ الأجنبي، وفـي كـل خطبـه ودروسه وتحركاته كان يدعو إلى " تخلص أهل الإسلام من سيطرة أهل الكفر ".

وكان يحدد الوسائل الكفيلة لتحقيق هذا الأمر ويحلـل الأسباب التي أدت إليه فهو يرى أن استبداد الحكام هو الذي مكن الأجانب في بلادنا، وأن تفرق كلمة هؤلاء الحكام هـي

أيضا التي أدت إلى امتلاك الكفار لديار الإسلام،وأن الفساد والرشوة هما اللتان مكنتا الأجنبي من اختراق بلاد الإسلام، وهو حين يدعو إلى الجهاد والوحدة والحرية فمن أجل التخلص من سيطرة أهل الكفر على أهل الإسلام.

وعبد الله النديم مفكر الثورة وزعيمها، كان لا يفتأ في خطبه ومقالاته وجميع أعماله الفنية والأدبية يدعو إلى التخلص من النفوذ الأجنبي، ويحلل أيضا هذا النفوذ وخطورته اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا، بل يصل إلى درجة الهجوم على تقليد السلوك الأوروبي، ويصل أيضا إلى درجة التحريض على العنف في مواجهته، أنظر إلى النديم يقول " إن الأجانب أصبحوا إخطبوطا ضخما في مصر، حتى لكأنك تشعر أنك غريب في بلادك فتخيل نفسك عائدا إلى وطنك بعد غيبة، وحين تصل إلى الإسكندرية فسوف تجد قائد الميناء بحارا إنجليزيا، فإذا وصلت إلى حقائبك بالجمرك فستجد مديرا إنجليزيا كان موظفًا سابقًا في مصلحة البريد، فإذا أردت أن تسافر إلى القاهرة بالسكة الحديد فسوف تجد هذا المرفق يدار بواسطة موظفين إنجليز وهنود وفرنسيين، فإذا أردت أن ترسل تلغرافا إلى أهلك تنبئهم بوصولك

فستجد المشرف على التلغراف موظفًا إنجليزيا أيضـا، وإذا أردت أن ترسل لأصدقائك خطابات تخبرهم بقدومك فسـتجد مصلحة البريد مرؤوسة لموظف سابق في البريد الإنجليزي "(٩٠).

وعرابي يقول في مذكراته" ثم أخذت في نشر أفكاري بين علماء الأمة وأعيانها وعمد البلاد ومشـايخ العربـان، طالبا منهم تأييدي في مطالبي لكي ننتشل الأمة من وهـدة الاضمحلال وهاوية التلاشي التي سـقطت فيهـا أو كـادت بتفريط الحكومة في صفوف الأمة للأجانب وممالأتها لهـم، وببيعها كثير من الأراضي لهؤلاء الأجانب مع تعيين كثيـر منهم في إدارات الحكومة ومصالحها بالمرتبات الفاحشة " (٩١).

ويقول الرافعي في أسباب حركة ٩ سبتمبر ١٨٨١) :
" كانت المظالم التي أشتكى منها زعمـاء الجـيش تشـبه المظالم التي كان الشعب يشكو منهـا، ولـم يكـن النـاس راضيين عن الحكومة وسياستها، كانوا يتبرمـون بمظـالم الحكومة وينقمون من الوزارة استسلامها للنفوذ الأجنبـي وخضوعها لأوامر القناصل ومحاباتها الموظفين الأجانب في

مصالح الحكومة وتمييزها إياهم بالرواتب الكبيرة والمزايـا العديدة" [٩٢].

بل الأكثر دلالة في هذا الأمر أن الأمة عندما قـررت توكيل عرابي في المطالبة باسمها بمطالبها، كانـت وثيقـة التوكيل تنص على أسباب الثورة وأهدافها كالتـالي: " أن الحكومة خاضعة للنفوذ الأجنبي، وأنها مستسـلمة لأوامـر القناصل، وأنها تبيـع الأراضـي للأجانـب، وأن الأجانـب تحكموا في مالية البلاد، وأن الموظفين الأجانب قد انتشروا في كل الوظائف والمصالح" [٩٣].

أي أن البرنامج المعلن للثورة، أو العقد الذي وكلـت الأمة بمقتضاه عرابي للمطالبة باسمها فقد حصر المسـألة في التخلص من النفوذ الأجنبي، ليس هذا فحسب، بـل إن علماء الأمة عندما قرروا خلع الخديوي بفتـوى شـرعية استندوا في هذه الفتوى على أن الخديوي يمالئ الأجانـب وباع بلاد الإسلام للأجنبي وانحاز إلى الإنجليز.

وهكذا كان النفوذ الأجنبي هو سبب الثورة والتخلص منه هو هدفها الأكبر إن لم يكن الوحيد.

وعلى مستوى ممارسات الثورة نجـد أن الثـورة رفضت دستور شريف باشا رغم ما فيه من مميزات كثيرة؛ لأنه حرم مجلس النواب من حق نظر الميزانية وإقرارهـا، أي أن الثورة رفضت كل ما في الدستور من مميزات؛ لأنه حرمها من أهم أهدافها وهو ضرب النفوذ الأجنبي، فما دام نواب الأمة لا ينظرون في الميزانيـة، أي مـادام النفـوذ الأجنبي مازال مسيطرا على مالية البلاد فالدستور مرفوض ألم تقم الثورة أصلا للتخلص من هذا النفوذ بالتحديد وهناك حادثة ذات دلالة هامة في هذا الصدد وهي أن السيد أمـين الشمس تقدم بطلب إلى مجلس النواب لمنع تصدير الغـلال حتى لا ترتفع أسعارها، والسيد أمين الشـمس هـو أحـد عناصر الثورة، بتقديمه هذا الاقتراح يعني أن الثورة كانـت تفكر في الاستقلال الاقتصادي لأنها حين تمنع الغلال مـن التصدير اليوم، ثم تزرع وتصنع ما يحتاجه الناس غدا ثـم تمنع استيراد كذا من البضائع حتـى لا تضـر المنتجـات الوطنية، فإن هذا يؤدي إلى الاستقلال بالسوق وقطع خيوط التبعية للاقتصاد الأوروبي.

ومعنى هذا أن الثورة لم تكن تريد ضرب النفوذ الأجنبي في مصر فقط بل الاستقلال بالاقتصاد إنتاجا واستهلاكا، أي وضع قواعد النهضة الاقتصادية على أساس الاستقلال، وليس التبعية.

ولعل هذا يكون درسا لنا، فالقضاء على التبعية والقضاء على النفوذ الأجنبي يجب أن يكون الهدف الأول للحركة الإسلامية وللثورة الإسلامية فطالما كان هناك نفوذ أجنبي، وطالما كانت هناك تبعية، وطالما كانت بلادنا مستهدفة للسيطرة الاستعمارية فالانعتاق من هذه السيطرة والتبعية والنفوذ فريضة إسلامية مقدمة على غيرها من الفرائض.

الحركة الإسلامية ليست حركة طائفية

لاشك أن الحركة الإسلامية لم ولن تكن حركة طائفية، وكذلك الثورة الإسلامية لم ولن تكون حركة طائفية، هـذه حقيقة يدركها كل من عرف الإسلام وكل من درس الحضارة الإسلامية سواء كان مسلما أو غير مسـلم، فـأي باحـث موضوعي أيا كان انتماؤه الديني أو الاجتماعي أو القـومي أو الثقافي أو السياسي يعرف هذه الحقيقة؛ لأنها واضـحة وضوح الشمس لكل ذي عينين فالإسلام، هـو رسـالة الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان منذ بدء الخليقة وإلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها، وهو تكليف للإنسان بالاسـتخلاف في الأرض وعمارتها بمقتضي العدل والإحسان، وهو دعوة إلى التفكير بحرية، ودعوة إلى التصدي لكل من يحـاول أن يصادر حرية التفكير أو يمارس الظلم على الإنسـان بـأي صورة من الصور.

وهذا بالتحديد هو مفهوم الجهاد، فالجهاد ما هـو ألا حركة يقوم بها هؤلاء الذين حملوا الرسالة للقضـاء علـى كافة أشكال والوان الظلم والاستبداد والقهر سواء كان ذلك نظام حكم – أو نظام اجتماعي – أو طبقـي أو عشـائري

أوغيرها –، فإذا ما ارتفعت وسائل القهر والاستبداد والظلم – كان للناس أن يختاروا عقيدتهم بحرية ﴿ لا إكراه فـي الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ – إذن فالجهاد ليس إكراه أحد على دين معين أو تفكير معين – بل هو العكس من ذلك تماما –، أي أنه حركة لتحقيق الحرية برفع أسباب غيابهـا – وكذلك ليس الجهاد لسيادة جنس على جـنس أو قوميـة على قومية أو دين على دين أو طائفة على طائفة – بل هو دعوة للعدل – وهو كذلك ليس وسيلة لاستئثار مجموعة من الناس تنتمي للإسلام مثلا بالثروة والسلطة دون النـاس – بل هو عكس ذلك تماما، أي أنه يرفـع الاسـتبداد والظلـم الطبقي والقومي والديني، إذا الإسلام على كل صعيد ليس دينا طائفيا وصحيح أن الناس بمجرد أن ترتفع عنهم أسباب الظلم والاستبداد والفقر والجهل يعتنقون الإسلام طواعية – ولكن ذلك؛ لأن الإسلام هو فطرة الله في الناس جميعـا –، فإذا انتفت عوامل القهر – رجع الناس إلى فطرتهم ببساطة – هذا من ناحية – ومن ناحيـة أخـرى فـإن الحضـارة الإسلامية لم تمارس أبدا طول فترة سيادتها، أي شكل مـن أشكال الاضطهاد الطائفي – بل عندما غاب الحكم الإسلامي

ظهرت المذابح الطائفية ومهما كانـت أحـوال الحضـارة الإسلامية – حتى لحظات ضـعفها لـم يحـدث منهـا، أي اضطهاد طائفي – رغم آلاف العوامل الاستفزازية التي كانت تدفعها وتغريها بذلك – ولكن الحضارة الإسلامية في لحظات ضعفها وبرغم التآمر في داخلها من بعض الطوائف فضلت الانتصار لقيم الإسلام على الانتصار لوجودها ذاته،

وإذا حاولنا أن نضرب قليلا من الأمثلة نجد أن بلـدا كلبنان متعدد الطوائف والمذاهب لم يشهد المذابح الطائفيـة إلا بعد سقوط الحكم الإسلامي وسقوطه في يـد الاسـتعمار الفرنسي بل حتى في ظل هذا الاحتلال – فإن رجلا مثل عبد القادر الجزائري الزعيم الإسلامي المعروف والـذي كـان منفيا قام بنفسه بحماية النصارى والوقوف دون ذبحهم في الحوادث الطائفية التي أشعلها الاحتلال الفرنسـي – وكـان عبد القادر الجزائري يفعل ذلك " وهو في المنفـي " وهـو الذي عاني شخصيا من التعصـب الصـليبي الفرنسـي – انطلاقا من مسئوليته كمسلم أمام الله،

ومن ناحية ثالثة، فإن الظاهرة الاسـتعمارية – قـد شملت العالم الإسلامي كله، وشملت بلادا أفريقية وآسيوية

غير إسلامية، أي أن العالم أنقسم إلى عالم مستكبر وعـالم مستضعف ، وإذا كان الـدفاع عـن المظلـومين فريضـة إسلامية ، وإذا كانت الثورة الإسـلامية علـى الاسـتعمار فريضة إسلامية ، فإن مناهضة الإستعمار أصـبح قاعـدة للتحالف بين البلاد الإسـلامية المسـتعمرة وغيرهـا مـن المستعمرات، وبالتالي فإن الحركـة الإسـلامية والثـورة الإسلامية تضم كل من يحارب الاستعمار وثقافتـه ونفـوذه ووجوده وجيشه وبنوكه .

إذن فالظروف التي تمر بالعالم الآن تؤكد وتحتم ألا تكون الحركة الإسلامية حركة طائفية – فهـي أولا بحكـم الإسلام وبحكم الحضارة الإسلامية وبحكم الظروف السائدة في العالم حركة تتبني مطالب كل المستضعفين والمقهورين والمحرومين.

ولأن الحركة الإسلامية هـي الخطـر الأكبـر علـى الاستعمار فلابد من محاولة عزلها وتطويقها عن غيرها من المستضعفين لإضعاف الاثنين معا وهكذا فـإن أي حركـة مناهضة للاستعمار لابد أن توصف في دوائـر الاسـتعمار بالطائفية والتعصـب.

ولعل الدرس الكبير الذي تركته لنا الثورة العرابية – كان هذا الدرس، كانت الثورة العرابية ثورة إسلامية ولذلك لم تكن طائفية ولا متعصبة.

فالأفغاني مثلا – ولأنه كان إسلاميا – دافع عن كـل المستضعفين بل واسـتطاع أن يحشـد المسـلم والقبطـي المصري و المسيحي غير المصري بل واليهودي في جبهة واحدة هي جبهة الانتماء للحضارة الإسلامية في مواجهـة الاستعمار – وكانت دروس الأفغاني تضم المسلم والمسيحي واليهودي رغم أن هذه الدروس كانت فـي عقيـدة وفكـر وتاريخ الإسلام – لماذا كان ذلك ؟!

كان ذلك؛ لأن الأفغاني بما أنه إسلامي فهـو غيـر طائفي وغير متعصب، كان ذلك؛ لأن المسـيحي المصـري يعرف ويؤمن أنـه مسـلم ثقافـة ووطنـا وحضـارة وأن المسيحي القبطي إن لم يكن منتميا إلى هذه الثقافة وهـذه الحضارة وهذا الوطن فهو خائن، ولم تكـن هـذه إحـدى علامات عبقرية الأفغاني – ولكنهـا كانـت ترجمـة لأمـر معروف ومقرر، ومخالفه خائن.

كانت إذن حركة الأفغاني تضم كل مـن ينتمـي إلـى الحضارة الإسلامية سواء كان مسلما أو مسيحيا أو حتـى يهوديا – وكانت هذه إحدى أهم العوامل التي تؤكد إسلامية الأفغاني –، أي أنها لم تكن انتقاصا من إسلامية الرجـل أو تشكيكا فيها أو حتى تساهلا في أمرها – بل كانـت تأكيـدا لتلك الإسلامية، وكانت جماهير الشعب المسلم تعرف ذلـك وتستوعبه بل وتحرص عليه؛ لأن هـذه بديهيـة إسـلامية معروفة.

وكل حوادث الثورة تؤكد ذلك، فالنديم يحرص علـى هذا الأمر، ويدعو المسلم والمسيحي إلى التمسك بالأخلاق والسلوك الإسلامي والثقافة الإسلامية وكذلك كان عرابـي، وكان الجميع.

وحينما صدرت الفتوى الشرعية من علماء الأزهـر بأن الخديوي توفيق مارق عن الدين وقـع هـذه الفتـوى بالإضافة إلى علماء الأزهر – بطريرك الأقباط – وحاخـام اليهود في مصر.

نعم فالحركة الإسلامية حركة جامعة وليست طائفية – وهي تضم المسلم والمسيحي بل واليهـودي طالمـا كـان

منتميا إلى حضارة الإسلام وثقافة الإسلام وتلفظ أيضا كـل من يمالئ الأجانب ويناصـر الاسـتعمار – وينحـاز إلـى الاحتلال حتى ولو كان مسلما؛ لأنه بذلك الانحيـاز أصـبح مارقا، أي كافرا وكذلك المسيحي الذي ينحاز إلـى أعـداء الحضارة الإسلامية ويمالئ الأجانب يستحق أيضا العقاب ولا يكون عقابه هذا تعصبا ، أي لا يكون الخوف مـن تهمـة التعصب حاجزا دون عقابه أو تصبح مسيحيته مانعا للأمـة من عقابه، أي يصبح له امتيازا خاصا لمجرد أنه مسيحي.

إذن فالثورة العرابية تعلمت الدرس وهو أن الثـورة الإسلامية ثورة ليست طائفية ولا متعصبة.

ولأن الثورة العرابية كانت إسـلامية –، أي تشـكل خطرا حقيقيا على النفوذ الأجنبي – فإن الغـرب الصـليبي حاول إلصاق تهمة التعصب والطائفية بهـا، وهـذه سـنة استعمارية تقليدية وأسلوب مستمر من أساليبها فأي مسـلم هو بالضرورة عندها متعصب وطائفي وخاصـة إذا رفـض النفوذ الأجنبي وتمسك بالثقافة الإسـلامية فـي مواجهـة الثقافة الاستعمارية فما بالك إذا فجر ثـورة ضـد النفـوذ الأجنبي ولتأكيد الحضارة والثقافة الإسلامية ومحاولة وضع

قواعد للنهضة، وبالطبع سيتعرض لحملة مـن الافتـراءات ومن ضمنها الافتراء بالتعصب الإسلامي والطائفية، وتعتمد تلك الحملة ضد الثورة العرابية على عدد من الحوادث لعل أهمها حادث ١١ يونيو ١٨٨٢ المشـهور تاريخيـا باسـم مذبحة الإسكندرية – وحتى هذا الاسم التي اشـتهرت بـه الحادثة اسم فيه افتراء وتجني – فهذه الحادثـة لـم تكـن مذبحة بل هي مشاجرة – إذ لو كانت مذبحة مـدبرة لكـان القتلى الأوروبيين فيها كثيرين جدا بالنسبة إلى قتلي الأهالي – ولكن جميع المصادر تؤكد أن العكس صـحيح تمامـا – فجون نينيه – الذي كان في الإسكندرية وقتها يقـول " إن عدد القتلى الوطنيين ١٦٣ قتيلا عدا من حملهم رفاقهم سرا على حين كان القتلى من الأوروبيين ٧٥ "[٩٤].

والشيخ محمد عبده يؤكد صـحة ذلـك أيضـا " [٩٥] والذي بدأ المشاجرة كان أوروبيا وهو مالطي مـن رعايـا الإنجليز – رفض أن يعطي لأحد الأهالي إيجار حماره ولمـا أعترض صاحب الحمار طعنه المالطي بالسكين وعلى أثـر ذلك حدثت المشاجرة خاصة وأن صاحب الحمار قـد مـات متأثرا بجراحه وأهالي القتيـل يعرفـون طبعـا أن نظـام

الامتيازات الأجنبية يحول دون محاكمة المالطي الذي يحمل جواز سفر إنجليزيا، فأين التعصب إذن ؟!

على أن المسألة أيضا كانت أوسع من ذلك – فالشيخ محمد عبده يرى أنها كانت من تدبير إنجليزي أساسا لخلق ذريعة للهجوم وخلق أجواء ملائمة للغزو – ويتفق معه في ذلك جو نينيه – أما عرابي وبلنت فيران أن ذلك تم بتـدبير إنجليزي بالاتفاق مع الخديوي ورجاله، ويرى الرافعـي أن الإنجليز هم الذين دبروا الحادثة تبريرا للغزو ، إذن فمسألة التدبير الإنجليزي للحادثة وافتعالها موضع إجماع المؤرخين الأجانب والمصرين على حد سواء ، وهـذا أمـر طبيعـي فافتعال الحوادث الطائفية أو تدبيرها منخصـائص الـدوائر الاستعمارية بل هذه طريقة تقليدية وسـنة ثابتـة وسـلوك متكرر لها.

أين إذن التعصب الإسلامي ؟! فلا المسـلمين بـدءوا المشاجرة ولا الضحايا من الأوروبيين أكثر مـن الضـحايا المسلمين والظروف المحيطة بالحادثة ووقائعهـا الماديـة تشير إلى التورط الإنجليزي فيها بـل وافتعالهـا ، ولكـن الجعبة الاستعمارية لابد أن تخـرج دلـيلا يـردده مثقفـو

المدرسة الاستعمارية وكان هذا الدليل هـو أن المسـلمين كانوا يصيحون أثناء المذبحة قائلين (جاي يا مسـلمين) وكان على المسلمين ألا يصرخوا – وكـان علـيهم أن يخجلوا من كلمة مسلمين وكان عليهم أن ينهبوا ويقتلـوا وتحتل بلادهم وأن يكون الأسطولين الفرنسي والإنجليـزي أمام ساحل الإسكندرية وأن يقوم الأوروبيين الذين نهبـوا البلاد طويلا بشراء السلاح وإطلاق الرصاص على الأهالي وأن يقوم الأهالي لهم بواجب الشكر – ولا يقولون " جاي يا مسلمين " وفي الحقيقة فإن حادثة الإسكندرية تـدل علـى التعصب الأوروبي الصليبي وليس على التعصب الإسـلامي فالأوروبيون الذين كانوا في مصر كانوا ينهبونهـا جهـارا نهارا – في الجهاز الحكومي – وفي البنوك وفي الشـركات وفي الريف ذاته عن طريق المرابين – ليس هذا فحسب بل كان الأوروبيون يقتلون ويسرقون ويرتكبون الجنايات فـي حماية النظام القضائي القنصلي والحماية الأجنبيـة – دون أن تطاولهم يد العدالة – ثم هاهو أسطولهم يتربص بـالبلاد وهاهم القناصل يدعون الأوروبيين المقيمين بمصـر إلـى التسلح ويهربون إليهم السلاح عن طريـق القنصـليات –

وهاهو المالطي الذي يحمل جواز سفر إنجليزيا يطعن أحـد الأهالي بالسكين – ويستكثرون بعد هذا أن يقول المسلمون (جاي يا مسلمين) أليس هذا تعصبا أوروبيا صليبيا؟

وبعد ضرب الإسكندرية ونزول الجيش الإنجليزي إلى مصر بهدف احتلالها، تعرض الأوروبيون لعدد من الحوادث والاعتداءات على ممتلكاتهم في أكثر من بلـد مثـل طنطـا والمحلة وكفر الزيات وطوخ وبنها والدقهلية والتل الكبيـر ورشيد – وفي كل تلك الحوادث كانت الجمـاهير الهائجـة تصادر أموال الأجانب وممتلكاتهم أو تسترد صكوك الدين " الكمبيالات " من المرابين وبـالطبع مـن كـان يحـاول أن يعترض من الأجانب يضربه الأهالي – وفي كل تلك الحالات كانت حكومة الثورة ترسل قواتها لمنع حـدوثها وحمايـة الأجانب إذن فهي لم تكن عمليات منظمة أو مدبرة بل كانت عمليات عفوية – بل والحكومة الثورية تحـاول منعهـا –، وإذا ناقشنا المسألة بموضـوعية – نجـد أنهـا عمليـات لاسترداد شيئًا مما نهبه الأجانب وكانت موجهة ضد هؤلاء الذين يمثلون النفوذ الأجنبي – وهـؤلاء الـذين اغتصـبوا أراضي الفلاحين أو أموالهم، أي كانت موجهة ضد طلائـع

الاستعمار وممثليه – ثم كانت محاولة لاسـترداد الحقـوق المغتصبة وهذا كله يؤكد أنها لم تكن حـوادث طائفيـة ولا بسبب التعصب الإسلامي – بل كانت بسبب أن هؤلاء الذين تعرضوا لتلك العمليات من الأجانب لصوص ونهابين وطلائع استعمار، ومع ذلك فالحكومة الثورية كانت تحاول منعها.

وبالطبع فإن مثقفي المدرسة الاستعمارية، سيبحثون في الوقائع عن، أي شيء يدين الثورة، وسيفركون أيـديهم فرحا قائلين قد وجدنا الدليل على التعصب الإسلامي، فقـد امتدت تلك الأحداث لتشمل بعـض الأقبـاط المصـريين – وبالطبع لا يكمل هؤلاء الجملة لآخرها على طريقة لا تقربوا الصلاة، ولو كملوها لعرفوا أنها امتدت إلى هـؤلاء الـذين عملوا بالربا وتمتعوا بالحمايات الأجنبية –، أي ليس؛ لأنهم أقباط أو مسيحين بل؛ لأنهم جزء من عملاء الاسـتعمار – والحقيقة أن امتداد الحوادث ليشمل هؤلاء يؤكد أنها أحداث غير طائفية – فلو أمتنعت تلك الجماهير عن الاعتداء علـى هؤلاء لمجرد أنهم مسيحيون لكان هذا تفكيرا طائفيا – حيث أصبحت القبطية مبررا للانحياز للإنجليز أو الأجانـب – أو أصبحت حامية ومانعة للعقاب.

إذن فالحوادث لم توجه للأوروبيين؛ لأنهم مسيحيون – ولأنهم أوروبيين بل لأنهم لصوص ونهـابين وطلائـع استعمار فهي لم تشمل الأوروبيين وحدهم لنقول أنه تعصب قومي بل شملت معهم الأقباط المصريين – بل والمسـلمين الذين عملوا أيضا في الربا وحصلوا على حماية الاستعمار، فحوادث الاستيلاء على الأراضي شـملت أيضـا ممتلكـات مسلمين، وهي لم تشمل الأوروبيين والأقباط لتكون تعصب إسلامي بل شملت أيضا مسلمين بل الأكثر عظمة من هـذا كله أنها شملت الأقباط المرابين والحاصلين علـى حمايـة أجنبية مما يؤكد عدم طائفية الثورة والجماهير فلـو كانـت امتدت إلى الأقباط لمجرد أنهم أقبـاط لكـان هـذا طائفيـة وتعصب – ولو تركت هؤلاء الأقباط بـرغم أنهـم مـرابين وحاصلين على الحماية الأجنبية لكان هـذا أيضـا سـلوكا طائفيا – بل أنها عاقبت كل من نهب وسرق وشـارك فـي التغلغل الاستعماري سواء كان أوروبيا أو مصريا ، مسـلما أو مسيحيا.

كانت الثورة العرابية ثورة إسـلامية ولأنهـا كانـت إسلامية فلم تكن طائفية – ولا متعصبة.

أوروبا الصليبيـة المتعصبـة

لعل من أهم دروس الثورة هي أنها كشفت التعصب الصليبي الأوروبي، وصحيح أن التعصب الصليبي الأوروبي يكشف عن نفسه في كل حادثة وواقعة، إلا أن ما كشفت عنه وقائع الثورة والأحداث التي أحاطت بها في هذا الإطار كان كثيرا جدا.

ولنتأمل هذا القول للرافعي فهو يكشف الكثير: انسحبت فرنسا من الميدان، ومعنى ذلك أنها تركت انجلترا تفعل ما تشاء وتعتدي على مصر، ولو أرادت فرنسا منعها لكان لها من مركزها الممتاز في المسألة المصرية ما يحول دون هذا الأعتداء، وكذلك فعلت لعل أوروبا العظمى فإنها ظلت جامدة لا تحرك ساكنا، ولو وقع مثل هذا الأعتداء على أمة أوروبية كاليونان أو الجبل الأسود أو بلغاريا لاهتزت الحكومات الأوروبية، وتوعدت وأنذرت المعتدى بالضرب على يده، وليس من العسير علينا أن نفهم هذا التباين في المعاملة فمرجعه إلى أن أوربا لا تنظر إلى مصر بالعين التي تنظر بها إلى الأمم الغربية ولا تراها جديرة بالعطف الذى حبت به أمثال اليونان وبلغاريا، ومما يدلك على

مشاركة أوروبا؛ لانجلترا في مسئولية حوادث(١٨٨٢) أنه لم يكد الجيش الإنجليزي ينتصر على العرابيين في واقعـة التل الكبير؛ حتى بادر الميسو تيسو سفير فرنسا بلنـدن إلى مقابلة اللورد جرانفيل وزير خارجية إنجلتـرا، وهنـأه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار، وكـان جـواب جرانفيل على تهنئته " إن واقعة التل الكبير هـي انتصـار أوروبى، ولو أنهزم الجيش الإنجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تحسب حسابا للإسلام، ويضيف الرافعي، وقد هنأ الميسو دكليرك رئيس وزراء فرنسا السفير البريطـانى في باريس بهذه الواقعة قائلا " أن انتصار الإنجليـز علـى المسلمين في مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسـا فـي تـونس والجزائر، ويستمر الرافعي قائلا، وقبل نبـأ الضـرب فـي مؤتمر الأستانة بالفتور والجمود، ولم يكـن المـؤتمر قـد أنفض بعد، ولو كانت الدول الأوروبية حريصة على الدفاع عن حقوق مصر، بل عن الحقـوق عامـة لكـان لضـرب الإسكندرية صدى عاجل في المؤتمر يحفزه إلى وضع حـد لهذا الأعتداء، ولكنه قابله بالصمت والبرود، ولم يبـد أي اعتراض على إنجلترا في نقضها للعهود وخاصة عهودهـا

في ذلك المؤتمر ولم يكن لهذا المؤتمر أي أثر فعلـى فـي نفوس المؤتمرين وهم سفراء الدول الأوروبية في الأستانة " (٩٦).

إذن فإنه إذا ظهر الخطر الإسـلامي، فـإن الـدول الأوروبية تتغاضى عن تناقضاتها الثانوية، فـدول أوروبـا تركت الكعكة كلها؛ لانجلترا في مقابل ذبح الثورة الإسلامية، بل وفرنسا التي كانت تمتلك من النفوذ في مصر أكثر مـن إنجلترا قبل الغزو تضحى بهذا النفوذ، بل وتهنـئ إنجلتـرا خوفا من الإسلام والخطر الإسلامي.

ولكن نص الرافعي يكشف شيئا طريفا، فهو يقول: إن التصرف الأوروبي حيال بلغاريا واليونان والجبـل الأسـود غيره في حالة مصر، التي لم تحظ بالعطف الأوروبي مثـل اليونان والجبل الأسود وبلغاريا، وأن أوروبا نظـرت إلـى مصر بغير العين التي تنظر بها إلى الأمم الغربية، ولم يقـل لنا الرافعي: لماذا كان هذا التباين في الموقـف؟ والرافعـي بالطبع يعرف لماذا ؟

ولكنه خجلان من التصريح بأنه التعصب الأوروبي الصليبي ضد الأمم الإسلامية، والرافعي مكسوف حتـى لا

يتهم بالتعصب الإسلامي، وهذه آفة كثير من المثقفين الذين يتجاهلون التفسير المنطقي للحوادث، ويفضلون أن يتركوها بلا تفسير أو يلفون ويدورون حول المسـألة، وكـل هـذا؛ لأنهم مكسوفون ومعتذرون ومهزومون أمام الابتزاز الثقافي الصليبى، الذى يتهم كل من ذكر الإسلام بكلمة حتـى ولـو كانت حقيقية بحجم الشمس بأنه متعصب.

وبالطبع فـإن هـذه المدرسـة الفكريـة المعتـذرة والمهزومة والمكسوفة التي يمثلها الرافعي تستحق الرثاء، فليس في الإسلام ما يخجل، وليس في ذكر الحقيقة كاملـة أية شبهة للتعصب.

وصلاح عيسى يقول" إن أوروبا شجعت البرجوازيات النشطة في اليونان وبلغاريـا علـى الاسـتقلال بأسـواقها القومية، ولكنها أصرت على ضرب البرجوازية المصـرية " [٩٧] ولم يقل لنا صلاح عيسى: لماذا كان التشـجيع هنـاك والضرب هنا ؟

إذ لو كانت المسألة مجرد أسواق واستعمار صـرف لكان التشجيع أو الضرب قد طال الطرفين، وبالطبع صـلاح عيسى أيضا يعرف، ولكنه يكتم الحق، صلاح عيسى يعرف

أن السبب في اختلاف موقف أوروبا في اليونان عنه في مصر أن شعب اليونان أوروبي مسيحي أي ينتمي إلى الحضارة الغربية، أما مصر فشعبها مسلم وينتمي إلى أمة الإسلام وحضارة الإسلام.

وصلاح عيسى يكتم هذه الحقيقة؛ لأنها تنسف أسس الفلسفة الماركسية التي يعتنقها، وبالطبع لم يقتصر الحقد الصليبي على تلك الواقعة في إطار الثورة العرابية فبسبب التعصب الصليبي لم يتورع ديليسبس عن الخداع، وللسبب نفسه لم يتورع سير إنجليزي كبير عن سرقة أموال صندوق الدين والذهاب بها إلى الأسطول الإنجليزي، ولم تتورع إنجلترا عن اختراق كل المعاهدات وعدم احترام حياد القناة، ففي سبيل ذبح الثورة الإسلامية يهون كل شيء، التضحية بالشرف وبالمعاهدات وممارسة السرقة والكذب والخداع.

وفي الحقيقة فإن التعصب الأوروبي الصليبي لم يقتصر على وقائع الثورة العرابية وحدها بل هو سمة أساسية في السلوك والتفكير الأوروبي، لا يختلف في هذا الليبرالي والمحافظ، اليسارى واليميني، الملكي والجمهوري

فأمام الإسلام فالتعصب واحد، فحزب الأحـرار البريطـاني وليس المحافظين هو الذي نفذ عملية غـزو مصـر سـنة ١٨٨٢، وهو الذي حقق لانجلترا احتلال مصر وتمسك بهذا الاحتلال، واستمر الاحتلال ٧٤ عاما تعاقـب علـي حكـم بريطانيا فيها اليمين واليسار والمحافظون والليبراليون، بل أن الاعتداء الذي وقع سنة ١٩٥٦، نفذته حكومة العمـال البريطانية مع حكومة فرنسـا الاشـتراكية بالتعـاون مـع إسرائيل، والجزائريون تعرضوا للاحتلال والمذابح علي يـد الملكيين والجمهوريين لا فرق، وعلى يد اليمين الفرنسـي واليسار الفرنسي لا فرق، بل إن أشد المـذابح والفظـائع التي ارتكبت في حق شعب الجزائـر نفـذها الاشـتراكيون والشيوعيون الفرنسيون، والدرس المستفاد من كل هذا أن كل الغرب بجميع قواه السياسية والفكرية يحمل تعصبا دفينا على الإسلام وأن من العبث أن نأمل فـي الاسـتفادة مـن التناقضات الثانوية بين هذه القوى أو الدول، بل إن الظاهرة الاستعمارية بكاملها هي شكل من أشكال التعصب الصـليبي الأوروبي ضد الإسلام، فلو كان استعمارا صرفا وبلا دافـع صليبي لتصرف مع مصر كما تصرف مع اليونان مثلا.

المغتربون وخيانة و الثورة

نماذج الاغتراب كثقافة وكسلوك كثيرة ومتعددة تبـدأ برياض باشا وتنتهـي بشـريف باشـا، وهـذه النمـاذج كمؤسسات وأحزاب وأشخاص لعبت أدوارا كثيرة وخطيـرة ومتعددة في حياتنا السياسية ونوبار باشا نمـوذج للـذين يرتبطون بالاستعمار بغير حدود، وشريف باشا لـه تميـزه وله أفكاره وله سلوكه المتقاطع أو المتفق مع الاسـتعمار، نوبار باشا أمتد بعد ذلك على شكل أحزاب ومؤسسات ثقافية وسياسية تبرر الاستعمار بل وتدعو للتعاون معه، وشريف باشا أيضا أمتد في مدرسة حزبية وسياسية وثقافية أيضـا سلكت سلوكا متميزا " مثل الوفد " وغيره.

كل من رياض باشا وشريف باشا لا يؤمن بـالثورة، بل يؤمن بالبناء بطريقة غير ثورية وفـي إطـار التفكيـر الغربي أو التفكير المنبثق من ثقافة الحضارة الغربية.

وقد اخترنا هذا النموذجان؛ لأنهما أولا امتدا بعد ذلك في شكل أحزاب ومدارس سياسية وفكرية، وثانيا؛ لأنهمـا ليسو عملاء للاستعمار، بمعني أنهم يقبضـون بـل همـا مقتنعان تماما بما يفعلان، بل أيضا يتمتعون بأخلاق سلوكية

جيدة في هذا الإطار فكل منهم لا يرتشـي، ولـيس فاسـدا ويتمتع بمواهب فكرية وسياسية وإدارية عالية جدا وهمـا يختلفان في الكثير و يتفقان أيضا في الكثير، هما يتفقان في السلوك النزيه وفي إيمانهما بـالنمط الحضـاري الغربـى، ويختلفان في إيمان رياض باشا بالأسلوب المطلق للحكـم، وبإيمان شريف باشا بالحياة الدستورية والنيابية، يتفقان في رفض الأسلوب الثوري، ويختلفان في أسلوب مواجهته وفي مدي الاستفادة منه.

رياض باشا وكما يقول عنه الرافعي: مـن عائلـة مصرية مسلمة وهي عائلة الوزان، بدأ حياته كاتبا بـديوان المالية، أخذ يتدرج في سلك الوظـائف والجـيش إلـى أن أصبح رئيسا للوزراء، ويكمل الرافعي، أن رياض باشا كان من الوجهة الإدارية حاكما ممتازا، حازما قـوى الشـكيمة ماضي الإرادة، محبا للعمل، نزيها مستقيما ممتنعـا عـن الرشوة، ويضيف الرافعي أن رياض باشا كان يميـل إلـى الحكم المطلق والرغبة عن نظام الشورى، والإذعان للتدخل الأجنبي "[٩٨].

إذن فرياض باشا مع كل هذه الميزات، ينحاز إلـى التدخل الأجنبي والحكم المطلق فما الذي يجعله يجمع بـين هذه المتناقضات، أنه الاغتراب، وعـدم التشـبع بـالروح الإسلامية والوطنية، وعدم انتمائه إلى الثقافة الإسـلامية، إذن فشخصية رياض باشا تؤكد أن الاغتراب وعدم الانتماء إلى الثقافة الإسلامية يفسد كل شـيء، بـل يفسـد أعظـم الشخصيات التي تمتلك أفضل المواهـب وتتسـم بالنزاهـة والتعفف عن الرشوة.

ولكن على أي حال فنموذج ريـاض باشـا لـيس مشكلة فمادام واضحا في انحيازه إلى التدخل الأجنبي منـذ البداية فهو أيضا منذ البداية مرفوض مـن الشـعب ومـن الثورة ولم ينخدع به أحد بل اصطدمت به الثورة منذ البداية فلما ازداد نفوذ الثورة رحل رياض باشا إلى أوروبا ثم عاد بعد هزيمة الثورة، وأمثال رياض باشا يستخدمهم الاستعمار في حالة الجذر الثوري وعن طريقهم يمارس الاستعمار اشد أساليب القمع والقهر على الشعوب وعلى الطلائع الثورية.

أما نموذج شريف باشا فهو المشكلة، فهو يتفـق مع قوى الشعب والثورة في المطالبة بالدسـتور والحريـة

وبالتالي فهو يصلح لاستخدامه لتطويق الثورة أو احتوائها أو ليها عن أهدافها الرئيسية، وخاصـة المتعلـق بضـرب النفوذ الأجنبي، نموذج شريف باشا نموذج يصلح؛ لأن يقدم للجماهير كبديل للنموذج الثورى، وهنـا مكمـن الخطـر، نموذج شريف باشا يجد من يعجب به أمس واليوم وغـدا، بل ويدافع عنه ويجعله نموذجا للاقتداء، بـالرغم ممـا أداه من أدوار في خدمة الاستعمار، نموذج شريف باشا يقدمـه الرافعي كنموذج، بل ويفضله على عرابي والنديم ويقول أنه لو أستمع هؤلاء لنصائح شريف باشا لكـان ذلـك أفضـل لمصر، ونموذج شريف باشا مقبول من حسني النية، ويجد من يروج له أيضا في معسكر مثقفي المدرسة الاستعمارية مثل لويس عوض، الذي يقدم شريف باشا كنموذج واجـب الاقتداء والاتباع، ولكن لويس عوض أمره معلوم؛ لأنه يكيد للثورة وللإسلام وللعرب ولمصر، أما حسنو النية فهم كثير ولم يكن عجيبا أن تتسع دائرة السائرين على درب شـريف باشا مثل حزب الوفد مثلا إذن فلنتابع حكاية شريف باشـا، ينتمي شريف باشا إلى أصـل شركسـي، دخـل المدرسـة الحربية وأتم بها دراسته، ثـم التحـق بالبعثـة التعليميـة

المصرية في أوروبا وحصل علـى عـدد مـن الدراسـات الحربية في أوروبا وتدرب في الجيش الفرنسي، ثم عاد إلى مصر في عهد عباس الأول والتحق بالجيش وأخذ يترقـى إلى أن صار برتبة لواء ثم التحق بالوظائف المدنيـة فـي عهد سعيد بوزارتي الداخلية والخارجية ثم سفيرا بدرجـة قائمقام في الأستانة ثم رئيسا للوزراء سنة (١٨٦٨) وقـد شكل بعد ذلك أكثر من وزارة في عهد توفيق أولها بعد خلع إسماعيل، والثانية بعد حادثة ٩ سبتمبر والثالثة عقب دخول الإنجليز مصر ١٨٨٢، يقول الرافعي: إنه جمع بين الكفاءة وكريم الخصال وعفة النفس إلى إدراك حظ كبير من العلوم الحديثة وأساليب الحياة الأوروبية مما جعله لا يقل مستوى عن رجال السياسة في أوروبا وأنه كان ذا ثقافة عصـرية اكتسبها في فرنسا، ويضيف أنه مؤسس النظام الدسـتوري في مصر وأنه كـان يـؤمن بالحيـاة الدسـتورية ويكـره الاستبداد، ويعود الرافعي لينتقد شريف باشا على أنـه لـم يسدي النصيحة إلى الخديوي إسماعيل في سياساته المالية "(٩٩).

إذن فنموذج شريف يري النهضة من خلال الدستور واستنادا إلى الثقافة الغربية، ولا يهتم بمسألة النفوذ الأجنبي كثيرا، ولا يؤمن بالثورة على هذا النفوذ ولا بالوسائل الثورية عموما، وهو لا يسدي النصح إلى إسماعيل رغم إغراق مصر في الديون ورغم النفوذ الأجنبي المالي والسياسي في عصر إسماعيل، وقبله سعيد ولا يجد غضاضة في أن يقدم هذا الدستور بدون التمسك بالسيادة البرلمانية على موضوع الميزانية، أي المهم هو الدستور والحياة النيابية حتى ولو في ظل هيمنة أجنبية على مالية البلاد وحرمان النواب من النظر في تلك السياسة بل ولا يجد غضاضة في الانضمام لمعسكر أعداء الثورة أثناء الغزو الإنجليزي وبعد هزيمة الثورة ولا يجد غضاضة أيضا في تشكيل وزارة في ظل الاحتلال بل أول وزارة في ظل الاحتلال، ولا يجد غضاضه في استعراض الجيش الإنجليزي مع الخديوي في ميدان عابدين باعتباره رئيسا للوزارة، ولا يجد غضاضه أيضا في حضور الولائم التي تقام للإنجليز في القاهرة ويشرب معهم الأنخاب.

إذن فنموذج شريف لا يهتم بالتـدخل الأجنبـي ولا بالاحتلال، ويري أن الدستور أهم من ذلك كله حتى ولو في ظل الاحتلال، أو حتى لوخلي الدستور من هيمنـة نـواب الشعب على الميزانية.

وبالطبع فإن هذا النموذج يفتقر إلى أدني حـد مـن الموضوعية، فأي دستور في ظـل الاحـتلال هـراء، وأي دستور في ظل النفوذ الأجنبي أيضا هراء والموقف الثوري الإسلامي الصحيح بالنسبة لهذه المسألة، أن القضاء علـى الاحتلال أو على النفوذ الأجنبي مقدم على الدستور وعلـى غير الدستور وصـحيح أن الإسـلام والثـورة والحركـة الإسلامية مع الحرية ومع الدسـتور، مـع حريـة الـرأي والعقيدة والفكر وحرية تعدد الأحـزاب وحريـة التعدديـة السياسية والثقافية، وحرية إصدار الصحف وحريـة نشـر الآراء والأفكار ومع كل الحريات، ولكن يجب أن نـدرك أن حرية في ظل الاحتلال أو النفوذ الأجنبي هي حبر على ورق فلا تلبث أن تضيع شكلا ومضمونا، نعم مـن الصـحيح أن نعمل من أجل هذه الحريات حتى في ظل الاحتلال والنفـوذ الأجنبي، ولكن بشرط: أن ندرك أنها هنا ليست بـديلا عـن

النضال ضد الاحتلال، وأنها ليست نهاية المطاف، وأنــه لا يجب أن تكون وسيلة من وسائل التطويق لقوى الثــورة أو تنفيس الضغط، وأنه يجب استخدامها والحرص عليها مــن منطلق توسيع وتحسين ظروف العمل الجماهيري والشعبي ضد الاحتلال وضد النفوذ الأجنبي، ويجب أن نعــض علــى الحرية بالنواجذ في كل الظروف، ولكن في إطــار الفهــم السابــــق.

وفي الحقيقة فإن هؤلاء الذين يتوهمون إمكانية قيام نهضة في ظل نفوذ أجنبي عن طريق الدستور واهمــون ، فالنفوذ الأجنبي لن يسمح بحرية أو نهضة لا على أســاس إسلامي ولا حتى على أساس تغريبي وكل ما في الأمر أنــه يلجأ إلى تصعيد القوى الدستورية لتطويق الثورة أو يسمح بهامش من الحرية لتنفيس الضغط فإذا ما حقق هدفه فــي التنفيس والتطويق عاد إلى سيرته الثابتة في القمع والقهر والنهب.

نموذج شريف باشا درس يجب ألا ينســاه الجميــع، يجب ألا ينساه الثوريون وأن يعرفون كيف يتعاملون معــه، كيف يستفيدون من الحرية المتاحة لتعميق الثورة وتحسين

ظروف العمل الثورى، وأن يعرفوا أيضا كيف يمنعون تلـك القوي من تطويق الثورة أو السير بها في متاهات جانبيـة، وهو درس يجب ألا ينساه أيضا حسـنوالنية، بـل والـذين يؤمنون بالإصلاح عن طريق الدستور في ظـل احـتلال أو نفوذ أجنبي أو وفقا لثقافة الغرب، يجب ألا ينسي هؤلاء أن الاستعمار لا يلبث أن يطيح بتلك المكاسب الجزئية بعـد أن يستخدمهم في ضرب الثورة، ويجب ألا ينسوا أن الاستعمار لن يسمح بأي نهضة حقيقية ولا دستور حقيقي حتى ولـو كان ذلك من منطلق ثقافته هو واعتمـادا علـى نموذجـه الحضاري.

الاستعمار لا يريد لنا حرية ولا نهضة لا في إطـار إسلامي، ولا في إطار حضارة الاستعمار أيضا.

ولعل مأساة شريف باشا تؤكد هذا الأمر فـإذا كـان شريف باشا قد قبل الوزارة على أسنة الرماح الإنجليزيـة من أجل الدستور فهو أيضا لم يحظي بالدستور بل عنـدما طالب بالدستور في خطاب قبوله تشكيل الوزارة رد عليـه توفيق بوضوح بأنه يري أن يمسك في يديه (أي توفيـق) كل السلطات، ومع هذا قبل شريف باشا الـوزارة، وحـاكم

العرابيين وشرب الأنخاب مع الإنجليز وأستعرض جيش الاحتلال.

****

قد يقول قائل: إن شريف باشا قد قبل ذلك كله إنقاذا لما يمكن إنقاذه وهذه مأساة أخرى، فمازال البعض يدافع عن شريف بدعوى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فهل أنقذ شريف شيئا ؟! هل حصل حتى على الدستور ناهيك عن الاستقلال ؟!

وفي الحقيقة فإن هذه الأقوال تغرق في التفاؤل والوهم، فلن ينقذ بلادنا من الاستعمار رجل دولة محنك ؛ لأنه مهما كان محنكا فهو ليس أكثر حنكة من الإنجليز خاصة وأنه لا يملك عناصر قوة تسمح له بالمناورة، ولن ينقذ بلادنا أن ندعي الإيمان أو حتى نؤمن بالثقافة الغربية، فالاستعمار لا يريد لنا أي نهضة ولو حتى في إطار الثقافة الغربية، لن ينقذ بلادنا إلا الكفاح المسلح ضد الاستعمار، إلا مواجهة الاستعمار بلغة لا يفهم غيرها وهي لغة المقاومة الشعبية وقطع خيوط التبعية.

***

وهناك آراء أخرى تري أن مأساة شريف لم تكن في كونه مؤمنا بالثقافة الغربية ولا في كونه مؤمنا بالدستور قبل الاستقلال، ولكنها تكمن في انتمائه إلى طبقة كبار ملاك الأراضي وأنه خان الثورة وقبل التعاون مع الإنجليز بسبب انتمائه للأرستقراطية الزراعية أي أن خيانته جاءت كنتيجة؛ لانتمائه الطبقي وليس بسبب ثقافته الغربية وهذا القول أيضا تحليل خاطئ للأمر؛ لأن محمود سامي البارودي أحد كبار قادة الثورة إن لم يكن قائدها السياسي الأول كان أيضا ينتمي إلى الأرستقراطية الزراعية ومع هذا ظل مع الثورة حتى النهاية، بل وحتى بعد السجن والمحاكمة والنفي ومثل البارودي كثيرون بل هناك بعض أمراء البيت الخديوي ذاته ممن رفضوا التعاون مع الاحتلال، وساعدوا الثورة ووافقوا على خلع توفيق ودفعوا الأموال للجيش في حربه ضد الجيش الإنجليزي.

وقد يقول قائل آخر إن خيانة شريف باشا ترجع إلى أصله الشركسي، ونموذج البارودي وغيره يفند أيضا هذا السبب، فالبارودي وغيره كثيرون كانوا أيضا غير

مصريين، بل شراكسة، ولم يكن هذا سببا لخيـانتهم، بـل وقفوا مع الثورة حتى النهاية.

الدرس واضح ولن نمل من التكرار، فلا أمـل فـي نهضة بغير استقلال ولا أمل في استقلا بغيـر ثـورة، وأن المغتربين عاجلا أو آجلا يسقطون في الخيانة، سواء كانوا مستبدين أم ديمقراطيين، وأن الاستعمار الأوروبي لن يسمح لنا بالنهضة سواء تمسكنا بإسلامنا أو حتى خالفناه وأعلنـا إيماننا بالحضارة الغربية، وأن الطريق الوحيد إلى الاستقلال هو الثورة.

****

يحلو كثيرا لمثقفي المدرسة الاستعمارية، أن يتعمدوا الخلط في الأوراق وأن يناقشوا المسائل بشكل جزئـي، وأن يضعوا مسألة الدستور والحياة البرلمانية والحريات منفصلة عن النفوذ الأجنبي والتبعية وبالتالي يجدوا الفرصة لنشـر أكاذيبهم حول ديكتاتورية أو استبداد الاتجـاه الإسـلامي أو عدم إيمانه بالحرية وإلى هؤلاء نقول أننا نـؤمن بالحريـة بكافة أشكالها ونؤمن بالدستور وبالحيـاة البرلمانيـة بـل ونناضل من أجل انتزاع أي قدر كبير أو صغير من الحرية،

ولكننا لن نفرط في أن أهم وأول أهدافنا هو القضاء علـى النفوذ الأجنبي والتبعية.

****

الغرب لا يريد لنا أية نهضة لا في الإطار الإسلامي ولا في الإطار الغربى،

من أهم دروس الثورة، أن الغرب لا يريد لنا أي شكل من أشكال النهضة سواء نهضة في الإطار الإسلامي، أو حتى نهضة في إطار الثقافة الغربية والحضارة الغربية وقيم الغرب.

وإذا كان هناك إجماع على أن الغرب لا يريد أمة إسلامية موحدة وقوية وعلى أنه لا يريد أي نهضة على الأساس الإسلامي في تلك الأمة ولا في أجزاء منها فإن البعض تراوده الآمال على إمكانية تحقيق النهضة في الإطار الغربي وعلى أساس الثقافة والحضارة الغربية، وفضلا عن أن هذا القول يفتقر إلى الجدية ؛ لأنه لا يمكن أقامه نهضة في أي مكان من الدنيا إلا استنادا على عقائد وقيم ووجدان أهل هذا المكان، ولكن بافتراض إمكانية قيام نهضة على أساس عقائد وقيم مغايرة ومختلفة عنا- بافتراض إمكانية قيام نهضة في إطار الحضارة الغربية وثقافتها، فهل سيسمح الغرب بذلك.

الواقع والتاريخ يقولان أن الغـرب لا يسـمح بـأي نهضة ولو حتى علي أساس ثقافته وتلـك مسـألة طويلـة وهامة سنتحدث عنها وقد نكرر ما قلناه في أجزاء سـابقة، ولكنه على أي حال تكرار محمود.

فشل الاستعمار الأوروبي في احتلال مصـر مـرتين، مرة في ١٧٩٨، ١٨٠١ ومرة أخرى فـي ١٨٠٧، وفـي المرتين حققت المقاومة الشـعبية إنجـازات هائلـة، بـل واستطاعت بفضل التحدي وفي ظروف ثورة القاهرة الثانية ١٨٠٠ أن تنجح في صناعة المدافع والقذائف وترتب على نجاح المقاومة الشعبية في مصر أمام غزوتين أوروبيتـين في أقل من عشر سنوات انطلاق طاقة هائلة، وكـان مـن الممكن أن تتحول تلك الطاقة إلى نهضة صناعية وقيام نظام حكم غير مستبد هذا في أقل الأحوال، وفي أكثر الأحوال كان من الممكن أن تتحول مصر إلى قوة إسلامية كبري تسيطر على أفريقيا وتحرم الغرب من الامتداد الاستعماري جملـة وتفصيلا، وتلك الطاقة التي تفجرت لم تكـن مجـرد طاقـة عاطفية لا تستند على شيء، بل كانت تستند على مفهـوم يرفض الاستبداد وكانت تستند على قوة شعبية تثور علـى

الحكام المستبدين بل وتـرفض حتـى قـرارات السـلطان العثماني إن لم تكن شرعية وتفرض شخص الحاكم الـذي تريده وكانت تستند إلى مؤسسـات قـادرة علـى القيـادة والثورة والنهضة مثل الأزهر وكانت تسـتند علـى تـراث علمي واضح متمثل في ظهور اهتمامات علميـة متقدمـة داخل الأزهر واهتمام العلماء عمومـا بـالعلوم الطبيعيـة؛ لدرجة أن التلاميذ كانوا يأتون من الغرب لتلقي تلك العلـوم على يد هؤلاء العلماء، وكانت تستند على قاعـدة شـعبية واجتماعية واسعة تضم جميع الطوائف من تلاميذ وحرفيين وطلاب علم وعلماء بل وتجـار أثريـاء مثـل المحروقـي والبشتيلي اللذين كانا من قيادات الثورة ضد الفرنسيين وهم من كبار تجار مصر، إذا فالطاقة والرغبة موجودة والأساس العلمي موجود بل والتمويل موجود والنتيجة الحتمية هـو ظهور قاعدة صناعية هائلة وبـالطبع تحـرك الاسـتعمار لتطويق هذه النهضة وضربها ولابد هنا أن تكون الضـربة ذكية وقاسية في نفس الوقت وجاءت الضربة عن طريـق محمد على فإذا كانت الحرية والمشاركة الشعبية من أسس تلك النهضة، فلابد من ظهور نظام مستبد بل شديد الاستبداد

وهذا هو نظام حكم محمد على، وإذا كان هناك مؤسسات أو زعامات شعبية قادرة على التعبئة والحشد وقيـادة حركـة النهضة فلابد من ضربها أو إفسادها فقـام محمـد علـى بتصفية نفوذ الأزهر وضرب بعض علمائه وأفسد الـبعض الآخر بالرشوة والمصالح الشخصية وضرب أيضا الزعامة الشعبية المتمثلة فـي عمـر مكـرم، وإذا كانـت الطبقـة المتوسطة من حرفيين وتجار قادرة في ظل تلك الظـروف على التصنيع، فلابد من ضربها، وقد صفاها أيضـا محمـد على بلا هوادة، بل أمم كل الصناعة الصغيرة والكبيرة وأمم الزراعة والتجارة وأصبح هو المالك الوحيد لكـل شـيء، ولكن بعد هذا تبقي الطاقة الهائلة كامنة فـي النفـوس، إذا لابد من استنفاذ تلك الطاقة فـي الطريـق الخطـأ، وكـان الطريق الخطأ هو الصدام مع الخلافة العثمانية لإضعافها من ناحية واستنفاذ تلك الطاقة المصرية من ناحية أخرى.

واستنفذ محمد على الطاقة في بناء صناعات وجيش وصناعات كبيرة وهامة وجيش قوى، وتركه الغـرب بـل وشجعه وأمده بما يلزم، فمادام كل هذا سيصب في الصـدام مع الخلافة العثمانية فلا مانع، ولكن بشرط واحد أن يكـون

ذلك مرتبط بشخص محمد على فقط لا غير أي لا يستند إلى مشاركة شعبية، وبالتالي فمن السهل القضـاء عليـه بعـد استنفاذ الأغراض منه.

إذن فالغرب كان يدرك أن الطاقة المتولدة والظـروف المحيطة بها ستتمخض حتما عن شكل من أشكال النهضة، وبما أنه غير قادر على ضربها بجيوشه فقد حاول وفشـل، إذن يجب ألا تكون النهضة في إ طار مؤسسات شـعبية أو فئات شعبية واسعة؛ لأنه إذا حدث ذلك فمن الصعب تصفية ذلك بل من المستحيل إذا فلتكن النهضة من خلال حاكم فرد ومرتبطة به إلى أقصي مدي بحيث يكون هذا الحاكم الفـرد هو عمودها الفقري فإذا ما انهـار هـذا العمـود انهـارت النهضة.

ولنكمل القصة فبعد أن حقق محمـد علـى الخطـة الاستعمارية بحذافيرها تكالبت عليـه هـو قـوى الغـرب وحطمت جيشه مجتمعة !! واجتماعهـا هنـا لـه دلالتـه وفرضت عليه في معاهدة ١٨٤٠ /١٨٤١ أن يفتح السوق المصرية بلا قيد ولا شرط وفقـا لمعاهـدة يالطـة ليمـان ١٩٣٨ ، و بدأ الاختراق الغربي على قدم وساق، فلمـا

حاول عباس باشا التصدي لهذا الاختراق ومحاولة منعه، تم اغتياله في ظروف غامضة، وأستمر الاختراق في عهـدي سعيد وإسماعيل وجاء الأجانب إلى مصر مـن كـل حـدب وصوب، مرابون، رجال بنوك، حثالات أوروبـا، أفـاقون، مغامرون، وعلى حين كان في مصر أقل من ١٠٠ أجنبـي قبل الحملة الفرنسية نجد أن الأعداد التي جاءت في عهـد سعيد وإسماعيل كانت كبيرة بدرجة غير عادية فبمجـرد أن ذاع خبر موت عباس تدفق علـى مصـر ١٢٠ ألفـا مـن الأجانب ما بين عامي ١٨٥٧ و ١٨٦١ بمعدل ٣٠ ألف في كل عام، ثم ارتفع العدد، ففي ١٨٦٢ دخل البلاد ٣٢ ألـف أجنبي، وفي ١٨٦٣ دخل ٥٦٥٠٠، ونفس العدد تقريبا في ١٨٦٤، ثم كانت الذروة في ١٨٦٥ حيث دخل الـبلاد ٨٠ ألف أجنبي، ثم انخفض العدد إلى(٥٠) ألفا سـنة ١٨٦٦ "[١٠٠] وبالطبع أستمر تدفق أجانب بنفس المعدل حتى اندلاع الثورة العرابية.

وهؤلاء الأجانب لم يأتوا إلى مصر طبعا للاسـتمتاع بشمسها بل جاءوا لاحتلالها سلميا، وضـرب أي محاولـة للنهضة، جاءوا للسيطرة على كل شيء فسـيطر بعضـهم

على جهاز الحكم الإداري والسياسي عـن طريـق العمـل كمستشارين للخديوي أو موظفين كبار في جهـاز الدولـة، وحققوا بذلك السيطرة على القرار السياسي ونهب المرتبات الضخمة في نفس الوقت " بلغ عدد الموظفين الأجانب في سنة ١٨٨٢، ١٣٥٥ موظفا مجموع مرتباتهم ٣٧٩٠ ٥٦ جنيها سنويا، بينما كان عدد كل موظفي الحكومـة ٩٢٠٠ موظف "[١٠١]، وعمل بعضهم في إنشاء البنـوك وإغـراق الحكومة في الديون ونجد أسـماء بنـوك مثـل قطـاوي، سوارس، سرسق، وسيطر أجانب على النشـاط المصـرفي بالكامل وانتهي الأمر بالسيطرة على مالية البلاد والتـدخل السافر في شئونها عن طريق المراقبة الثنائية والـوزرين الأوروبيين اللذين يسيطران على الـواردات والمصـروفات وبلغ أمر السيطرة إلى حد التدخل بخلـع خـديوي وتعـين خديوي آخر كما حدث مع الخـديوي توفيـق، وإلـى حـد الاعتراض على إصدار الدستور بالمـذكرات والمظـاهرات البحرية وإلى حد الاعتراض على حق مجلس النـواب فـي نظر الميزانية وامتدت السـيطرة إلـى تـدمير الاسـتقلال القانوني والقضائي لمصر عن طريـق فـرض الامتيـازات

الأجنبية والقضاء المختلط والقضاء القنصلي وسيطر أجانب أيضا على ٩٦% من النشاط التجاري والمشـروعات مثـل السكك الحديدية، الطرق، النقل البحري، تجارة الحاصـلات الزراعية، السكر، الغـزل، الميـاه، التلغـراف، المـوانئ، الاستيراد، التصدير، وابورات المياه، استصلاح الأراضـي " [١٠٢].

وتطرق فسادهم إلى محاولة نشر الرذيلة والانحـلال بهدف تدمير التماسـك الاجتمـاعي والأخلاقـي للمجتمـع المصري ونهب الأموال في نفس الوقت وذلك عن طريـق إنشاء الخمارات في كل شارع وحارة ومدينة وقرية ونجع، وكذلك بيوت الدعارة والقمار " [١٠٣] .

ولم يكتف الأجانب بالسيطرة على جهاز الحكم وتدمير الاستقلال القضائي والسيطرة على الاقتصاد والماليـة فـي خطوطها العريضة، بل انتشروا كالجراد في الريف المصري لامتصاص آخر جنيه في جيب المصريين، ذهبوا إلى الريف واشتروا من الفلاحين بثمن بخس عن طريق المـرابين أو عن طريق بيع المياه للفلاحين والتحكم فيها بالوبورات ومن يرفض بيع أرضه يتعرض للاضطهاد او حتى القتل على يد

الأجانب في حماية الامتيازات الأجنبية طبعا، فعلى سبيل المثال قام " الأجنبي جرجس باكوس بالاستيلاء على مواشي الحرث في قرية الإبراهيمية وأحتجز الفلاحين وعندما تدخل العمدة لوقف هذا التعدي رفض الأجنبي المذكور الاستجابة لطلبه " (١٠٤).

وبالطبع كان كل هذا النشاط الأجنبي معفيا من الضرائب في حين كان على المصري أن يدفع الضرائب عن الأرض، وعن أدوات النقل البسيطة كالحمار والحصان والبغل وعربات(الكارو)، وكان على الحرفيين أن يدفعوا أيضا ضرائب وكان على التجار المصريين أن يدفعوا الضرائب الباهظة ناهيك عن عمليات السلب والنهب التي تمارسها السلطة المستبدة على هؤلاء الفلاحين أو الحرفيين أو التجار المصريين وبالطبع لا تجرؤ على ممارستها على الأجانب؛ لأنهم يتمتعون بالحماية والامتيازات.

ومحصلة هذا كله إفلاس التجار المصريين والحرفيين المصريين والفلاحين المصريين _ أي منع وجود أي تراكم مالي يسمح بقيام صناعة من ناحية، ووقوع النشاط

التجاري والصناعي بالكامل في يد الأجانب وجزء كبير من النشاط الزراعي.

وبالطبع أدار الأجانب عملية الإنتاج بما يخدم تحقيق أكبر قدر من نهب مصر، فالنشاط الزراعي يوجه إلى إنتاج المحاصيل التصديرية مثل القطن حتى ولـو علـى حسـاب غلاء أسعار الغلال طبعا، والنشاط الصناعي الوطني قد تـم تدميره -الكبير منه والصغير- ولا يسمح بظهـوره، أمـا الأجانب فلا مانع لديهم في عمل سكك حديـد وطـرق، أو مشروعات ري وصرف وابورات مياه أو مصانع غزل على أساس زيادة الإنتاج الزراعي من المحاصيل التصديرية مثل القطن والسيطرة أيضا على الناتج المالي لهذا الإنتاج، أمـا الطرق والسكك الحديدية فهي لخدمة عمليات النقل وتسهيل عملية النهب استيرادا وتصديرا، وبالطبع اغـرق الأجانـب السوق المصرية بالمنتجات الأوروبية من كل نوع.

والنشاط الوحيد المسموح به للمصريين هو الاستثمار في القطاع الزراعي عن طريق تشجيع أرستقراطية زراعية، أي محظور على المصريين ممارسة التجـارة والصـناعة، ومسموح لهم فقط بجزء من الاستثمار الزراعـي، ولكـن

أيضا بشرط أن يكون ذلك في يد الخديوي والأسرة الخديوية والحاشية " أي المؤسسة الاستبدادية " وهذا طبعـا يحقـق فائدتين، إحساس هؤلاء بشيء مـن الفائـدة تبـرر لهـم وتقنعهم باستمرار النفوذ الأجنبي، وتمتص في نفس الوقت أي فائض مالي يتراكم لدى هؤلاء بعيـدا عـن الصـناعة، ولنكمل القصة، جاء جمال الدين الأفغاني، وبعث الشـرارة في القلوب، ونبه إلى خطورة النفوذ الأجنبـي ودعـا إلـى الصناعة وتحصيل العلوم، والتقف الشرارة النديم وعرابي، وثارت مصر كلها، وفجرت الثورة الحماس والوعي، وبدأت الثورة في التفكير بالاستقلال بالسوق عـن طريـق منـع تصدير الغلال والتفكير في إنشاء بنك أهلي، وإصرارها على السيطرة على الميزانية وكان معني هذا أن هنـاك ملامـح نهضة صناعية تبدو في الأفق وتسـتند إلـى روح ثوريـة وطاقة ضخمة متفجرة، وتستند إلى إحساس بأهمية العلـوم ورغبة في تحصيلها، وتستند إلى الدور التقليدي للأزهر في تشجيع دراسة العلوم، وتستند إلى توجيهات الأفغـاني فـي هذا الصدد وتستند إلى مشاركة شعبية واسعة، ثم هي لديها خبرات علمية هائلة تراكمت من التعلـيم والبعثـات ومـن

خبرات المصانع التي أنشأها محمـد علـي، ثـم انهـارت بانهياره، فلا شك أن الذين عملوا في هذه المصانع اكتسبوا خبرات صناعية كبيرة، ليس هذا فحسب بل لديها التمويـل عن طريق المساهمة الشعبية التي تبرعت بمليون جنيه في أقل من شهر إبان الغزو البريطاني وليها أيضا مجموعـة من التجار الأثرياء كانوا من كبار قيادات الثـورة والـذين أخلصوا للثورة حتى النهاية مثل السيد حسن موسي العقـاد كبير تجار القاهرة الذي ورث عن أبيه ١٠٠ ألف جنيه نقدا عدا العقارات والأطيان، ومثل السيد أمين بك الشمسي، بـل ولدى الثورة الوعي بالمسألة، الم تفكر في منـع تصـدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها على الناس فيمكن أيضـا أن تفكر في تقليص المساحة المنزرعة بالقطن حتـى لا يـؤثر ذلك أيضا على أسعار الغلال ويجعلها ترتفع علـى النـاس، ومن يبدأ بهذا ينتهي بالاستقلال بالسوق في النهايـة، الـم تفكر الثورة في أنشاء بنك أهلي إذن هناك ملامـح نهضـة صناعية، ولابد من ذبحها، فكان لابد من ذبح الثورة حتـى ولو تكلف ذلك ٣، ٢ مليون جنيه إسترليني هـي تكـاليف غزو مصر حتى ولو جاء ٦٠ ألف جندي إنجليـزي مـنهم

أبناء الملكة الإنجليزية، حتى ولو كان ذلك أن تسمح أوروبا بانفراد بريطانيا بالكعكة كاملة في مصر، حتى ولو ضحت فرنسا بنفوذها ومصالحها في مصر وكان أكبر من نفوذ ومصالح إنجلترا، كان لابد من ذبح الثورة وملامح النهضة بأي ثمن.

ومسألة عدم السماح بظهور نهضة مهما كانت وسائلها وأساليبها وإطاراتها مسألة تقليدية تتكرر كلما كانت هناك محاولة، تتكرر في كلياتها وفي جزئياتها أيضا، فعندما حاول الشيخ محمود خطاب السبكي إنشاء مصانع للنسيج بأموال الجمعية الشرعية تدخلت وزارة الشئون الاجتماعية ومنعت ذلك بدعوى أن هذا يهدد بضياع أموال الجمعية !!

بل ودفع الشيخ السبكي الثمن بدخوله السجن على يد الإنجليز سنة ١٩١٦، وعندما حاولت مصر ذلك عن طريق بنك مصر وتجربة طلعت حرب تعرض الرجل والتجربة لأقصي حالات التضييق والتخريب على يد الاستعمار وعملاء الاستعمار، ووصلت الحملة إلى حد اتهام الرجل في شرفه وفي أثناء الحرب العالمية الثانية نجحت

مصر في إقامة عدد من المشروعات الصـناعية الناجحـة، وذلك بالاستفادة من حالة الحـرب التـي منعـت عمليـات الاستيراد بسبب النشاط الحربي العسـكري، وكانـت تلـك الصناعات من الكثرة والاتساع بحيث شكلت خطـرا علـى النفوذ الأجنبي، وخاصة أن الشارع المصري كـان يغلـي بالوعي والثورة وكان من الضروري أيضا ذبح تلك النهضة وتطويقها، فكان انقلاب ١٩٥٢ المدعوم أمريكيا وأوروبيا، لتكرار، تجربة محمد على، ولكن بصـورة هزيلـة جـدا، وبشكل جمع كل عيوب تجربة محمد على دون أن يشـتمل على أي من مزاياها، فلما ذبحت النهضة وملامـح الثـورة تمت تصفية تجربة عبد الناصر الهزيلـة أيضـا بهزيمـة ١٩٦٧، وتلاشت بشكة دبوس؛ لأنها قامت علـى أنقـاض صناعة الشعب وحريات الشعب ومشاركة الشـعب، ومـن جديد تعرضت مصر في السبعينات والثمانينات من القـرن العشرين ا لنفس عمليات الاختراق الأجنبي وتغلغل النفـوذ الأجنبي التي شهدتها مصر في الستينات والسـبعينات مـن القرن التاسع عشر، القصة متكررة والدرس واحد،

****

دور القوى الاجتماعية في الثورة العرابية

ولأن الثورة العرابية كانت ثورة إسـلامية، ولأنهـا كانت موجهة ضد النفـوذ الأجنبـي فـإن جميـع القـوى الاجتماعية قد احتشدت خلفها ولم يقف في معسكر الخيانـة إلا الخديوي والخونة والمغتربين، ولدواعي البحث العلمى، سنحاول أن نناقش مدي ما ساهمت به القوى الاجتماعيـة المختلفة في الثورة والظروف التي شكلت هذه المساهمة.

دور الأزهر

ظل الأزهر منذ إنشائه هو طليعة الأمة، وهو المدافع عن حقوقها والمعبر عن طموحاتها، ومـع بدايـة الغـزو الاستعماري لعب الأزهر دور الحاضنة الثوريـة لحركـات المقاومة الإسلامية والشـعبية ضـد الاسـتعمار والنفـوذ الأجنبي، وإذا حاولنا أن نطالع شيئًا من كفاح الأزهـر فـي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لوجدنا أن الأزهر ظـل دائما هو القائد الحقيقي للجماهير والمعبر عنها، فكلما وقع استبداد أو ظلم أو تعسف من قبل القـوى الحاكمـة كانـت الجماهير تلجأ إلى علماء الأزهر وتعتصم بالجـامع فيقـوم العلماء بعرض مطالب الجماهير على السلطة فإذا استجابت كان بها، وإذا لم تستجيب كانـت الانتفاضـات والثـورات الشعبية التي تبدأ بإغلاق الأزهـر والامتنـاع عـن إلقـاء الدروس وتنتهي بثورة شعبية شاملة يخرج فيهـا علمـاء الأزهر على رأس الجماهير الغاضبة؛ لانتزاع حقها أو إبطال المظالم، وفي مواجهة الغزو الأجنبي كان الأزهر هو مركز المقاومة وكان علماء الأزهر هـم قيادتهـا الطبيعيـة،ففي مواجهة الحملة الفرنسـية ١٧٩٨- ١٨٠١ كـان علمـاء

الأزهر هم محركو الثورات وهم قادتها، وفي مواجهة الغزو الإنجليزي ١٨٠٧، كان للأزهر الدور الأكبـر فـي حشـد الجماهير وتعبئتها وتحقيق النصر على الجيش الإنجليـزي الغازي بقيادة فريزر، وكان من الطبيعي أن يكون الأزهـر هدفا للحقد الأوروبي الصليبي وكان من الطبيعي أن تحاول القوى الاستعمارية والحكام المستبدين المرتبطين بالاستعمار تقليص أو تصفية دور الأزهر، وأن تفصم العلاقة التاريخية بين العلماء والجماهير، ونجح محمد على فـي إضـعاف الأزهر كثيرا، ولكن الأزهر برغم الضـعف الـذي اعتـراه بفضل ممارسات محمد على ظل على العهد، وظـل مركـز الثورة وموضع ثقة الجماهير، وحاضـنة خصـبة للفكـر الثوري، وهكذا لم يكن عجيبا أن يكون الأزهر فـي طليعـة قوى الثورة العرابية وفي طليعة القوى التي فجرت الثـورة أو شاركت فيها.

وعلى مستوى احتضـان الفكـر الثـوري وتسـليح الجماهير به، نجد أن معظم قادة الثورة وخاصـة عرابـي، عبد العال حلمي، على فهمي قد تلقوا العلوم الإسلامية فـي الأزهر، وقضي كل منهم ٤ سنوات على الأقـل فـي هـذه

الجامعة الدينية العريقة، وبديهي أنهم تشربوا روح الإسلام الرافضة للاستبداد والمناهضة للغزو الأجنبي والداعية إلـى الجهاد ضدهما وعدم السكوت عليهما، وصحيح أن هـؤلاء الزعماء قد تأثروا أيضا بالأفغاني، ولكن هذا يدعم وينمـي البذور التي غرسها فيهم الأزهر، فـالأزهر لـيس مجـرد حوائط، ولكنه جامعة دينية إسلامية، إذن فالأفغاني يغرس نفس البذور التي يغرسها الأزهر ويـدرس نفـس العلـوم وينادي بنفس المبادئ، وكما قلنا فلم يكن الأزهر مجرد قوة اجتماعية شاركت في الثورة، بل كان أسبق هـذه القـوي وأكثرها تأثير، فمن ناحية السبق فإن علماء الأزهر فكـروا في خلع إسماعيل قبل أن تخلعه أوروبا، وبالطبع فكروا في ذلك لعكس الأسباب التي خلعته أوروبا مـن أجلهـا، بـل وفكروا سرا وتباحثوا في ربيع عام ١٨٧٩ فـي الـتخلص منه باغتياله[١٠٥] .

وعلى مستوى التأثير فإنه من المعـروف أن شـعب مصر بكل طوائفه لا يخـرج فـي الثـورة ولا يؤيـدها إلا بمقتضي فتاوى العلماء، وقد كانت الثورة تدرك ذلك وتعرفه

وكانت تطالب الفتاوى التي تعطي لحركتها الغطاء الشرعي دائما.

وعلى مستوى المشاركة المباشرة في الثورة يقول الدكتور على شلبي " أنخرط الأزهريون كلية في أتون الثورة ونزلوا إلى الميدان الثوري وبدأ دورهم في إثارة الحمية الدينية والوطنية لقوى الشعب، مما كان له أكبر الأثر في تحريك الجماهير وإضفاء الشرعية على حركتها وعاش رجال الدين خطوة بخطوة مع الثورة فكانت لهم مواقفهم من الأحداث فنجدهم يرفضون مذكرة مايو التي تقدمت بها فرنسا وإنجلترا في محاولة لنفي عرابي، ووصل الأمر إلى أن أعلن الشيخ محمد الإمبابي عزل توفيق، كما هاجم علماء الأزهر دائما وأبد النفوذ الأجنبي في دروسهم وخطب الجمعة، وكان مما يزيد في قوة تأثيرهم في المجتمع استخدامهم للقرآن والحديث التي تؤيد وجهة نظرهم في الهجوم على الخديوي والأجانب " ويضيف الدكتور على شلبي " وواكب علماء الأزهر الثورة في حركتها، وكان في مقدمتهم الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى، فقد أفتي الشيخ عليش بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما

للمسلمين بعد أن باع مصر للأجانب باتباع ما يشير به عليه القنصلان، الإنجليزي والفرنسي، ولذلك وجب عزلـه، كمـا أفتي الشيخ حسن العدوي بشرعية عصيان الخديوي فقـال أنه بأمر الله ورسوله لن تطاع أوامر الخديوي، وأن الوقت قد حان لنشوب حرب مقدسة وقد أيده الشيخ عليش أيضا " [١٠٦].

ويذكر عرابي في مذكراته: أنه في الاجتماع الذي تم في وزارة الداخلية عقب الإنذار الإنجليـزي، تلقـي فتـوى شرعية من المشايخ حسن العدوي ومحمد عليش ومحمـد أبو العلا الخلفاوي تقول أن الخديوي بانحيازه إلـى العـدو المحارب لبلاده يعد مارقا عن الدين " [١٠٧].

وتبدو هنا عظمة الإسلام الذي أنجب أمثـال هـؤلاء العلماء وتبدو أيضا عظمة هؤلاء العلماء الذين لـم يبيعـوا دينهم للخديوي مقابل متاع الدنيا الزائـف والزائـل، بـل انحازوا إلى الثورة، تبدو هذه العظمـة فـي كـون مجـرد الاستماع إلى نصائح القنصلان يبرر خلع الخديوي، أي حتى قبل أن ينحاز إلى الجيش الإنجليزي.

وبالطبع استمر الدور المتميز والرائع لعلماء الأزهـر في تأييد الثورة حتى آخر لحظة، يقول الدكتور على شلبي " في أثناء الحرب التي دارت رحاها بين المصريين والقوات الإنجليزية كان لمشايخ الأزهر وطلبته مـوقفهم المشـرف، فقد أعتبروها حربا صليبية " كانت صليبية بالفعـل" فكـان ذهابهم أفواجا إلى ميدان القتال برئاسة الشيخ حسن العدوي وذلك للتأييد الروحي والمعنوي واعتبار ذلك مـن دواعـي المدافعة عن الوطن وراح طلبة الأزهـر بعـد أن وحـدوا جهودهم يجوبون الشوارع ويوزعون المنشورات التي تحث على الجهاد في سبيل الله.

كما كان للخطابة الدينية وخاصة خطب الجمعة الأثر الكبير في تعبئة الرأي العام وتجميعه حول هدفين هما بـذل الأرواح عن طريق التطوع، والتبرع بالأموال في سبيل الله، وبلغ الأمر إلى حد الدعوة لعرابي على المنـابر بـدلا مـن الخديوي " اللهم أنصر عرابي بجيش المؤمنين " كذلك كـان لهم دورهم في ميدان التبرع بالأموال وإيـواء المهـاجرين وساهموا بالتبرعات كل على حسب مقدرته ، فقام الشـيخ حسن العدوي بإخلاء منزله بعابدين لينزل بـه مائـة مـن

مهاجرين الإسكندرية ورتب لهم خمسمائة رغيف كل يـوم، ولم يكن العدوي وحده هو الذي قام بذلك العمل وإنما كـان ذلك شأن معظم العلماء الذين تبرعـوا بمنـازلهم لسـكني المهاجرين وأجروا عليهم المأكل والشرب " (١٠٨).

حقا هؤلاء هم العلماء الذين يسـتحقون أن يكونـوا ورثة الأنبياء كما في الأثر الشريف، كانوا علماء يعرفـون حدود المسئولية التي حملوها على عاتقهم عنـدما حملـوا العلم.

وكان من الطبيعي أن تكون قائمـة المعتقلـين بعـد هزيمة الثورة ودخول الجيش الإنجليزي إلى القاهرة مكتظة بعلماء الأزهر الكبار والمتوسطين والصـغار، وكـان مـن الطبيعي أن يكونوا في مقدمة هؤلاء الذين أصدرت سلطات الاحتلال وحلفاؤها الأحكام ضدهم، وإذا قرأنا قائمة الأحكـام المثبتة في كتاب الرافعي (١٠٩) .

نجد أن الشيخ عبد الرحمن عليش قد نفـي خمـس سنوات، والشيخ عبد القادر قد نفي ٤ سـنوات، والشـيخ محمد الهجرسي نفي ٤ سنوات، والشيخ أحمد عبد الجـواد الغاياتي نفي ٤ سنوات، والشيخ محمد عبد الجواد الغاياتي

" شفيق السابق " نفي ٤ سنوات،والشيخ يوسف شرابه نفي ٣ سنوات، والشيخ محمد عبده نفي ٣ سنوات، والشيخ أمين أبو يوسف نفي ٣ سنوات مع تجريدهم جميعا من الرتب و الامتيازات والمناصب وعلامات الشرف.

ونكمل القائمة مع الرافعي فنجد أن كل من الشيخ أبو المعاطي السيد،والشيخ محمد شداد، والشيخ مصطفي عبد اللطيف، والشيخ محمد شلبى، والشيخ إسماعيل بطين، والشيخ حسين الأعسر، والشيخ عبد الهادى، والشيخ أحمد الفقي. الشيخ عبد المجيد الفقي،الشيخ على الفقي، الشيخ على نايل، قد صدر الحكم على كل منهم بالإقامة الجبرية تحت الملاحظة الضبطية مع تجريدهم من الرتب والنياشين والمناصب.

كما قضت المحكمة بتجريد العلماء الآتي أسماؤهم من جميع رتبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم، الشيخ حسن العدوى، والشيخ أحمد المنصورى، والشيخ محمد السمالوطي، والشيخ أحمد البصرى، والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوي، والشيخ محمد أبو عائشة، والشيخ عبد الوهاب عبد المنعم، والشيخ محمد السيوفي، والشيخ أحمد العدوي "

نجل الشيخ حسن العدوى"، والشيخ محمد جبر، والشيخ عبد البر الرملي، والشيخ أحمد حلمي، والشيخ محمـد غـزال، والشيخ موسي علي.

المثقفـ ـون

يلعب المثقفون عـادة فـي أي ثـورة دورا متميـزا يتناسب مع قدرتهم على استيعاب الأفكار ونشرها بالوسائل المتاحة لديهم من صحافة وطباعة وغيرها وبـالطبع فـإن المثقفين كانوا ومـازالوا جـزءا لا يتجـزأ مـن الواقـع الاجتماعي في أي مرحلة تاريخية، فهم يمكن أن يكونوا أداة للسلطة الحاكمة لتبرير سياساتها أو خوض معاركها داخليا وخارجيا أو حتى يكونوا أداة خداع للجمـاهير، ويمكـن أن يكونوا أداة لحمل الفكر الثـوري أو نشـره أو بلورتـه أو الدفاع عن حقوق الجماهير، أي يمكن أن يكـون المثقـف مرتبط بوجدان الشعب، أو أداة من أدوات الحكـم ويمكـن أيضا أن يكون شريفا ومخلصا لقضاياه حتى ولو كانت فـي أي اتجاه ويمكن أيضا أن يكون مرتزقا.

ومحاولة دراسة دور المثقفين في الثورة العرابية، لا يمكن بحال من الأحوال أن ينفصـل عـن دراسـة مجمـل الظروف التي كانت تعيشها مصر في ذلك الوقـت وكـذلك أطراف الصراع أو الأطـراف الموجـودة علـى السـاحة المصرية،

وفي الحقيقة فإن الذين تحدثوا عن دور المثقفين في الثورة العرابية وقعوا في عدد من الأخطاء المنهجية في هذا الصدد لأسباب كثيرة ومتعددة، فمنهم من حاول النظر إلـى المسألة بالمنظور التقليدي من تقسيم المثقفين إلى رجعـي وتقدمي، أو يميني ويساري وفـق تعـريفهم طبعـا لتلـك المصطلحات، وإذا بهم عنـد التطبيـق يكتشـفون أمـورا أصابتهم بالحيرة فالأفغاني والنديم وعلمـاء الأزهـر مـثلا خرجوا في رأيهم من عباءة الرجعية ومع هذا كانوا أكثـر المثقفين ثورية بل وانحيازا للفقراء في حين وقف الآخرون الذين خرجوا من قبضة الفكر التقدمي أما ضـد الثـورة أو حتى في مستنقع الخيانة.

ومنهم من نظر إلى المسألة في إطار لا يفهم غيـره وهي أن الثورة لابد أن تكون ثورة على أوضاع أقطاعيـة وكنسية " دينية " أي لابد أن تكون ثورة برجوازيـة ضـد الكنيسة والإقطاع " هنا المسجد والإقطاع أو تحالف رجـال الدين والإقطاع " أي أن هؤلاء يريدون تطبيق الفكر الثوري الأوروبي على الثورة في بلادنا، وإذا بهم عند التطبيق على وقائع الثورة يصابون أيضا بالحيرة الشديدة فعلماء الـدين

وكل من خرج من عباءة الإسلام كالأفغاني والنـديم كـانوا ثوريين في حـين أن قطاعـات كبيـرة مـن الأعيـان أو البرجوازية " بمصطلحاتهم " قد خانت الثورة ووقفت ضدها وآخرون درسوا المسألة بهدف البحث عن مدارس فكريـة غير إسلامية يمكن أن تكون قد لعبـت دورا فـي الثـورة، وتسرعوا فاعتبروا الطهطـاوي مـثلا هـو رائـد الفكـر التحرري، وهو رفاعة العظيم وأنـه نقـل الفكـر الثـوري الأوروبي، وأيضا عند التطبيق أصيبوا بالدهشة، ولم يجدوا أثرا للطهطاوي ولا لأفكار الطهطاوي.

أنظر مثلا إلى صلاح عيسى مصابا بالدهشة يقـول " أن العداء الجاد بين التيار العلماني والليبرالي وبين رجـال الدين لم يظهر، فلم يطالب الأولون كما طالب نظراؤهم فـي فرنسا بشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسـيس " ، ثـم يفـتح صلاح عيسى فمـه مـن الدهشـة قـائلا " والعجيـب أن الليبراليين اتخذوا عدة خطوات للخلف، " مكسـوف يقـول أنهم خانوا " بينما تقدم الأزهريون عدة خطوات للأمام "!!

والدكتور رفعت السعيد يفـرد عشـرات الصـفحات للطهطاوي، ليجعله رائدا للتنوير وللتحرير، بل إن العنـوان

الذي اختاره لهذا الحديث كان " رفاعة الطهطاوي بستانيا يغرس أزهارا " (١١٢) ثم يعود فيضطر أن يعترف في عنوان رئيسي آخر " ولكن الأزهار لم تتفتح " (١١٣).

وبالطبع الأزهار لم تتفتح؛ لأنها نبات لا يصلح لتربتنا، كما أنها أصلا لم تزرع في تربة الجماهير، بل زرعت في بستان الخديوي ولحساب الخديوي وبأجر مدفوع من الخديوي".

ولويس عوض أيضا يفرد الفصول للطهطاوي تحت عنوان رفاعة العظيم فإذا جاء وقت الحديث عن الثورة العرابية اختفي رفاعة تماما كشخص وكفكر.

وفي الحقيقة فإن الأخطاء المنهجية والحيرة التي أصابت هؤلاء ترجع إلى أن كل من رفعت السعيد وصلاح عيسى أراد أن يطبق النمط التقليدي للفكر الثوري الأوروبي على واقعنا فجاءت حيرتهما وتشوشهما أما لويس عوض فهذا مزور يكتب التاريخ لطمس دروسه الحقيقية لصالح التعصب الأوروبي الصليبي.

ولو حاول أي باحث أن يدخل إلى المسألة بدون نظرة مسبقة وتعامل مع الحوادث كما هي ثم أستنتج ما تعطيه

هذه الحوادث من نتائج لاكتشف أن الإسلام في أصله رسالة إلى الإنسان للثورة على الظلم والاستبداد وأن الجمـاهير لا تثور إلا من خلال الإسلام وأن الثورة العرابية ثورة إسلامية شاملة اعتمدت على الإسلام كأيدلوجية للثورة وكأداة أيضا لتثوير الجماهير وحشدها.

الأخطاء المنهجية إذن هي تجاهل أن الإسلام هـو الأيدلوجية الوحيدة القادرة على تثوير الجماهير، لمـاذا لا يعترف هؤلاء بذلك ويستريحون ويريحون ؟!

وأن الظروف التاريخية والحضارية لبلادنا تختلف عن تلك الظروف في أوروبا، وبالتالي فمن الخطأ تطبيق مبادئ الفكر الثوري الأوروبي على واقعنا، وأن أمتنا تخوض منذ البداية حربا ضد التعصب الأوروبي الصليبى، وإذا لم تكـن هذه الحقيقة قابلة للفهم لديهم، نقول لهم أن الثورة العرابية كانت ثورة على النفوذ الأجنبي.

وإذا وضع أي باحث هذه الحقائق فـي ذهنـه فمـن السهل عليه إذن أن يتفهم أحداث الثورة وموقـف مختلـف القوي منهـــا.

وإذا حاولنا أن نتتبع المثقفين الـذين انحـازوا إلـى الثورة نجد أن الأفغاني يأتي على رأس هؤلاء، والأفغـاني كما قلنا من قبل لم يأت من فراغ أو عمل في فـراغ، هـو امتداد طبيعي وعضوي للفهم الإسلامي الصحيح وهو أيضا عمل في مناخ يستطيع أن يتفهم ويستجيب إلى هذا الإسلام الصحيح ودور الأفغاني هنا هو أنـه طـور ونظـم وأثـار الحماس فكان الأب الروحي للثورة بلا منازع وخلال إقامته في مصر ١٨٧١، ١٨٧٩ دعـا الأفغـاني إلـى الجامعـة الإسلامية وحث المسلمين على الوحدة والجهاد والحريـة، وهاجم الاستبداد بلا هوادة بل أعتبره السبب الرئيسي فـي تخاف المسلمين وفي وقوعهم في قبضة النفـوذ الأجنبـي وكان الأفغاني ثوريا حتـى النخـاع، لا يـؤمن بالأسـاليب الإصلاحية، بل يري أن الثـورة هـي الطريـق الطبيعـي والوحيد؛ لانتزاع الحقوق، وفي هذا الصدد يقول الأفغـاني: أن الحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خـاطر بـل إن الأمم تحصل عليها قوة واقتدارا " [١١٥]

بل ويحرض الفلاحين تحريضا على الثورة ويغـريهم باستعمال الفأس في شق رأس الظالم قائلا: أنت أيها الفلاح

تشق قلب الأرض بفأسك لتنبت منها ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال فلماذا لا تشق قلب ظالمك، لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك " (١١٦).

والأفغاني يحلل أسباب التخلف ويضع الحلول للنهضة، الأفغاني يري أن التخلف والاحتلال والجهل والجمود ليست إلا نتائج الاستبداد وتفرق كلمة حكام المسلمين، ويكتب عن الحرية والشجاعة والقوة والعلم والصناعة.

قام الأفغاني في الناس خطيبا وجلس في الناس يدرس لهم العلوم والفقه وكتب في الصحافة باسمه أو باسم مستعار بل وينشئ الصحف ويحتضن الصحفيين الثوريين، ويشكل الجمعيات السرية والعلنية مثل مصر الفتاه بل ويستطيع أن يحشد خلفه كل المنتمين إلى الحضارة الإسلامية حتى ولو كانوا يهودا أو نصارى.

وهكذا لم يكن عجيبا أن يخرج الأفغاني منفيا من مصر سنة ١٨٧٩ بناء على طلب قنصل بريطانيا من الخديوي توفيق بإبعاده،

وعبد الله النديم يأتي على رأس المثقفين الثوريين بل هو القائد الحقيقي للثورة وهو فيلسوفها ومفجرها وجهازها الإعلامي في نفس الوقت.

والنديم هو التلميذ النجيب للأفغاني، وهـو الامتـداد العضوي له بل هو التجسـيد العملـي والطبيعـي لأفكـار الأفغاني، وإذا كان الأفغاني قد وضع الخطوط العريضة فإن النديم يقدم تلك الأفكار بالتفصيل ويطبقهـا علـى الواقـع المصري محللا وقائدا وثائرا، " وكان الأفغاني قـد لاحـظ نبوغ النديم وقوة حجته وسرعة بديهتـه ووضـوح دليلـه واتقاد حماسه فاخذ يدربه وأعطاه من وقته الكثير" [(١١٧)].

والنديم يستخدم الكتابة والخطابة الكتابة للذين يقرأون والخطابة للذين يقرأون والذين لا يجيـدون القـراءة بـل ويستخدم النديم جميع ألوان وفنون الكتابة من مقال وزجل وشعر وتمثيليات ومسرحيات، وله أسلوبه اللاذع والسـاخر دون أن يفقد الحماس، فقد كانت خطبه وكتاباته قطعا مـن الجمر الملتهب، يرتقي منابر المساجد ويذهب إلى الفلاحين في الحقول ويخطب في التجمعات الثقافية وعن ذلك يقـول النديم عن نفسه:" أخذت أتقلب في البلاد وجاهرت بالتضـاد

ولبست ثوب الجلاد وتابعت الخطب في كـل بلـد وحركـت الأفكار حركة لا سكون لها ونشرت مظالم الحكام وأعمالهم وناديت بهدم دعائم الاستبداد وكسرت قيد الاستعباد"[١١٨].

والنديم كامتداد لأستاذه الأفغاني من ناحية وتطبيـق عملي وبرنامجي وتفصيلي لأفكاره يكثر من الحديث عـن الأوضاع الفاسدة، عن إسراف الخديوي والحاشية و عـن استبدادهم، يكتب عن الأجانب وسيطرتهم على الحياة المالية والسياسية للبلاد ويشرح كيف كونوا الثروات من دم الشعب ويشرح دورهم في الربا وذلك بأسـلوب مفهـوم وبسـيط، ويهاجم الفساد الخلقي الذي ينشره الأجانب في البلاد عـن طريق الخمارات ودور الدعارة والقمار ويسخر من هـؤلاء الذين يريدون تقليد الغرب في سلوكه وأخلاقه وقيمه وذلـك في خطبه أو مقالاته أو في تمثيلياته " مثل العرب والـوطن وطالع التوفيق "، ويدافع عن الفلاح ويطالب بحقوقه ويحلل أوضاعه ويشير إلى الظلم الذي يقع عليه والبـؤس الـذي يعيش فيه، ولم يكتف النديم بشرح أوضاع الفساد والظلـم والتبعية للأجنبي بل نراه يحدد الطريـق وهـو الثـورة: لا

تتركوا الغرباء يتولون إدارة بلادكم ولا تمكنون الأجانب من الوصول إليها " (١١٩).

ويدعو أيضا إلى الحرية والشورى ،وليست حريـة الأعيان أو انتصار مجلس النواب على الوجهاء والأعيان بل حرية كل فئات الشعب يقول النديم: إن الوجـود مضـبوط بممالك مقيدة بقوانين وضـعت بـأغراض ذاتيـة وأفكـار مقصورة على فرد واحـد أو بعـض أفـراد، وإن قيـل أن الممالك تعرض القوانين على مجالسها قبل تقريرها قلنا أن الممالك مقصورة على أرباب الثروة أو أهل الكلام وليسـت الأمة كذلك " (١٢٠) ويدعو إلى حرية الانتخابات ليس فقـط مجرد الحرية السياسية بل وكـذلك رفـع نفـوذ السـلطة والأعيان ومنعها من التأثير في الانتخابات يقول: تترك مـا كانت عليه من الميل للأغنياء والخوف من العمد والرهبـة من المآمير وتنتخب من تريد من أهل المعرفة والـدهاء " (١٢١).

ويهتم النديم اهتماما بالغا بالدعوة إلى تحصيل العلوم والاهتمام بإقامة الصناعة يقول النديم: المطلـوب توسـيع العمران بالصنائع والمعارف والأمن والثروة " (١٢٢) .

ولعل كلام النديم هذا هو قطعة من العبقرية في فهم مسألة التصنيع حيث أنه وضع الشروط الصحيحة للتصنيع عن طريق المعارف والأمن والثروة فلا صناعة بدون معرفة ولا صناعة بدون انتشار الأمن؛ لأنه من البديهيات أن السلطة المستبدة إذا مارست الباطجة والسلب لا نصرف القادرون على بناء الصناعة عن ذلك، وكذلك لو فشلت السلطة في بسط الأمن وضرب الخارجين عن القانون لضاعت الصناعة أيضا ورغب الناس عن بناء مصانع أو مؤسسات إنتاجية، وكذلك الثروة ضرورية للصناعة، بل النديم يرشدنا إلى أن العمران يتم بالصناعة ولم يقل بالزراعة مثلا مما يدل على اهتمام قيادة الثورة بمسألة التصنيع، وفي ذلك تقول لطيفة سالم" وجه النديم العناية إلى مسألة النهضة العلمية والصناعية " [(١٢٣)].

والنديم أيضا منحاز اشد الانحياز للفقراء والمستضعفين يقول النديم: نرضى بالخبز والملح ولا تقنعون بآلاف من الجنيهات ونقنع بالقرش الواحد ولا تقنعون بالذهب والفضة، أخلقتم من ذهب وخلقنا من تراب، أولدتم قابضين على أزمة الدنيا وولدنا عبيدا لكم، أم نزلتم

من السماء ونزلنا من بطون الأمهات ألا ترون أنكم تعدون بالأصابع في بلادنا والفقراء هم الأمة " (١٢٤)

وعندما حدث الغزو الإنجليزي لمصـر سـنة ١٨٨٢ كان النديم صريحا في تحديد طبيعته وأهدافه فوصفه بأنه " حرب صليبية جديدة، وأنها جاءت لتذبح ثورة أهل الإسـلام على أهل الكفر " (١٢٥).

كان النديم مع الثورة، يدور معها حيث دارت، تـراه في كل خطوة من خطواتها، كان النديم عقل الثورة وقلبهـا معا فالنديم هو الذي يكشف الأحوال التي كانت تعيشها مصر من نفوذ أجنبي وظلم واستبداد الحكام، وهو الذي يذهب إلى كل قرية ومدينة ليدعو إلى الثـورة وهـو الـذي يحشـد الجماهير خلف الثورة وهو الذي يجمع التوقيعـات لتوكيـل عرابي للتكلم باسم الأمة وهو الذي يقود المظاهرات لتأييـد الجيش في ٩ سبتمبر ١٨٨١ أو فـي رفـض اللائحـة أو إعلان رأي الأمة لمن يهمه سماع رأيها، وهو الذي لا يكاد يفارق الجنود والضباط في الجناح العسكري للثـورة، بـل ويسافر مع فرق الجيش التي تم نقلها في وزارة شريف إلى الشرقية أو إلى دمياط ويستغل هذه الواقعة ليؤكـد وحـدة

الشعب والجيش ففي كل محطة احتفال، في محطة الإقـلاع وفي محطة الوصول وفي كل محطة يمر عليها القطار، وبعد الوصول والاستقرار يستمر النديم في حشد الجماهير وزيادة التحامهم مع الجيش بشكل يـومي ودائـم، وعنـد الغـزو الإنجليزي تجد النديم في كل معركة، وفي كل عملية لحشـد المتطوعين أو جمع التبرعات للجيش بل وحتى بعد هزيمـة الثورة اختفي النديم تسع سنوات رغـم الاحـتلال ورغـم الخديوي ورغم المكافأة المرصودة لم يدل عليـه وعنـدما يظهر يستمر في الكفاح، ويرفض كل المغريات، وقد أرادوا إغرائه بأي ثمن حتى لا تتكرر الحالـة الثوريـة، ورغـم الظروف الصعبة رفض النديم كافة الإغراءات وظل مخلصا لقضية الثورة حتى النهاية، فأصـدر جريـدة " الأسـتاذ " وأستمر ينشر فيها الأفكار فضاقوا به وكان من الطبيعي أن يضيقوا به، ويقرر الخديوي نفيـه فيختـار الـذهاب إلـى الأستانة حيث يلحق بالأستاذ "الأفغاني" ليستمرا معـا فـي رحلة الكفاح من المنفى،

لقد كان النديم إسلاميا حتى النخاع -فكان ثوريا حتى النخاع ولأنه كان إسلاميا فقد انحاز للفقراء، كـان النـديم

نموذجا فذا للإسلام وللثورة الإسلامية ولأنه كان إسـلاميا ثوريا فذا، فقد فهمته الجماهير واستجابت له أليـس يعبـر عن وجدانها، بل وقدمت له الحماية والتغطية طوال سنوات تسع لم تهدأ فيها جيوش الاحتلال ولا عسس الخديوي عن مطاردته، نعم فهمته الجماهير وأحبتـه، ولكـن آخـرين احتاروا فيه وعبروا عن حيرتهم بل وانتقـدوه لأنهـم لـم يفهموه أولم يريدوا أن يفهموه.

فبلنت وصابونجي يتهمانه بالتعصب الـدينى، وبأنـه كان يلجأ إلى النصوص الدينية في حديثه وخطبه ومقالاته، ويردد معهما رفعت السعيد" (١٢٦) نفس الكلام في صـفحة ١٣١ من كتاب " المؤلفات الكاملة لرفعت السعيد، المجلـد الأول، دار الثقافة الجديدة طبعة ١٩٧٧ "

ثم يعود رفعت السعيد بعد أن ينسي أنه أتهم النـديم بالتعصب الديني فيقول عنه أنه اشتراكي طوباوي ثم يعـود فينسي أيضا ثانية فيقول " أن الأفغاني والنديم كانا زعيمين إسلاميين في تفكيرهما وفي أساليبهما وفي جماهيرهمـا " ص ١٠٠، المؤلفات الكاملة لرفعت السعيد، المجلـد الأول أما صلاح عيسى فيقول " أن دعاية الثورة التي قادها النديم

وقعت في مأزق بسبب أسلوب التجنيد الخاطئ والقائم على وجه واحد هو الوجه الديني بينما كان ضروريا وأساسيا لها أن تعتمد معه على وجه آخر أكثـر أهميـة هـو الوجـه السياسي "(في ص ٤٢٧، صلاح عيسى، الثورة العرابية، دار المستقبل العربي، ١٩٨٢، القاهرة)

ويعود صلاح في نفس الصفحة ليقول " أن عبـد الله النديم ساهم في نشر الهـوس الـديني " وهـذه اللخبطـة والتخريف والتناقض في كتابة هؤلاء وإطلاقهم التهم وإلقاء النصائح والمواعظ ترجع إلى أنهم إما أغبياء جدا وأما أنهم يتغابون، فإذا كان النديم متهم بالتعصب الدينى؛ لأنه وصف الغزو البريطاني بأنه كان غزوا صليبيا أو لأنـه اسـتخدم الآيات والأحاديث الشريفة في خطبـه ومقالاتـه، فهـذا لا يكشف عن تعصب النديم بل يكشف عن تعصـب منتقديـه فلأن النديم كان إسلاميا فبديهي أنه لم يكـن متعصـبا؛ لأن الإسلام بداهة ضد التعصب.

أما انتقاده لإسلاميته أو لاستخدامه الأحاديث والآيات القرآنية فهذا دليل على تعصب منتقديه، فهل محـرم علـى المسلم مثلا استخدام الآيات والأحاديث في التعبئة السياسية

؟! أما كون النديم وصف الغـزو البريطـاني بأنـه غـزو صليبي، فهذا لا يدل على التعصب بل يد على الصدق مـع النفس، ووصف الأشياء على حقيقتها فبالفعل كـان الغـزو البريطاني غزوا صليبيا، ، ومن يراجع تلك الأحداث بروح الحياد والمنطق فسيعرف أن النديم كان يصف الواقع كمـا هو والحقيقة أنه لو كان النديم قد وصف الغزو بغير ذلـك لظنناه متعصبا إسلاميا وإلا فكيف يخفـي حقيقـة ؟، هـل يخفيها حتى لا يقال أنه متعصب فيقع في التعصـب دون أن يدري.

أما بشأن وصف رفعت السعيد له بأنه كان اشـتراكيا طوباويا بعد أن يتهمه بالتعصب الديني ثم يعود فيصفه بأنه زعيم إسلامي في وسائله وجماهيره ثم يقف حائرا متعجبا، فإن الأمر ليس فيه ما يبرر العجب ولا الحيـرة، فالإسـلام والمسلمون والثورة الإسلامية والحركة الإسلامية وكل مـا يمت للإسلام بصله ينحاز إلى الفقراء والمستضعفين ، بـل أكثر انحيازا لهم مـن مـاركس ولينـين علـى مسـتوى الأيدلوجية والفلسفة والوسـائل والمواقـف بـل ونمـاذج التطبيق.

إذا فلا عجب أن يكون النديم منحازا للفقراء ومدافعا عنهم ولا عجب أن يصل إلى تحليلات هامة في هذا الصدد، فهذه التحليلات الهامة مثل سرقة الأغنياء عمل الفقـراء أو مثل إدراك حقيقية أن جماهير الإسلام الطبيعية هي الفقراء والمستضعفين، هي تحليلات أو قل حقائق إسلامية معروفة قبل الأفغاني والنديم وهي من القرآن الكريم أو من أقـوال الرسول والصحابة .

نعم فلأن النديم كان إسلاميا حتى النخاع انحاز إلـى الفقراء والمستضعفين ودافع عن الفلاحين وتصدي للفسـاد والاستبداد والنفوذ الأجنبي، ولأنه كان إسلاميا حتى النخاع فإنه عرف أن الطريق الوحيد لتحقيق ذلك هو الثورة وليس الإصلاح ولأنه كان إسلاميا حتـى النخـاع فقـد أدرك أن جماهيره الطبيعية هي الفقراء وأن اشد جنود الثورة حماسا سيكونون من الفلاحين وأن تكوين عصـبة مـن الفقـراء لتحقيق الثورة كما قال النديم هو فهم إسلامي صميم؛ ولأن النديم والأفغاني كانا إسلاميين حتى النخاع فقـد فهمتهمـا الجماهير ووافقتهما وسارت معهما على طريق الثورة.

أما ما قاله صلاح عيسى في أسلوب مـن الـوعظ والإرشاد واتخاذ موقف الأستاذ الذي يعلـم الثـوار كيـف يحركون الجماهير وكيف أنهم أخطأوا حين اعتمدوا علـى الدعاية الدينية وليس السياسية، فهذا شيء لا يمت بصـلة إلى الكتابة التاريخية أو حتى الصـحفية، فصـلاح عيسـى يفضح نفسه فهو لا يعرف الفرق بـين الخطـاب الـديني والخطاب السياسي أو الدعاية الدينية والدعاية السياسـية، ولن نحاسبه علي أساس المفهوم الإسلامي بل على أساس المفهـوم العلمـاني الـذي يعتنقـه، وإن أراد فبـالمفهوم الماركسي ، فالمبتدئ في علم السياسة أيا كانت المدرسـة الفكرية والسياسية والفلسفية التي ينتمي إليهـا يعـرف أن الثورة في دعايتها كانت تقوم بالدعاية السياسية فـي كـل أحوالها وأطوارها وحتى لو اعتمدت هنا علـي النصـوص الدينية، فالثورة مثلا لم تكن تقول للناس صلوا أو صوموا، بل كانت تدعوا إلى قتال الإنجليز أو الثورة علـى الفسـاد والنفوذ الأجنبي، أو انتزاع حقوق الفلاحـين وحتـى فـي الجانب الأخلاقي مثل الهجوم على الخمارات ودور الدعارة والقمار كان في المسألة بعد سياسي، أليس كل هـذا مـن

الدعاية السياسية، إلى هنا مازلنا نناقشه بالمفهوم العلمانى، ولكن الحقيقة أن الثورة اعتمدت في دعايتها السياسية على الإسلام جملة وتفصيلا؛ لأن المعركة كانت حربـا صـليبية على الإسلام، والا فلماذا تركوا لليونان أسواقها وشـجعوها على الاستقلال بتلك الأسواق، ناهيك عن مسـاعدتها علـى التحرر والثورة والاستقلال السياسي عموما ؟!

هل نتجاهل الثورة الحقيقة والواقع، لمـاذا لا تقـدم الثورة الحقيقة كاملة إلى الجماهير، ألـيس الصـدق مـع الجماهير أسلوب ثوري مائة في المائة، ثم أن الثـورة مـا كان لها سوي أن تفعل هذا فالجماهير لم تكن تفهم غير تلك اللغة، قبل أن تصاب بصلاح عيسى ولويس عوض، وقـادة الثورة وزعمائها وخطبائها وكتابها وكل جهاز دعايتها أيضا لم يكن يفهم غير تلك اللغة ولا يجيد الدعاية إلا بها، فجميع قادة الثورة خرجوا من مشكاة الإسلام أما عن طريق الأزهر أو عن طريق التتلمذ على الأفغاني أو هما معا.

وفي إطار دور المثقفين في الثورة نجد أن هناك أيضا الكثير من المثقفين الذين انحـازوا للثـورة وقـاتلوا فـي صفوفها مثل السيد حسن الشمسي وهو من خيرة مثقفـي

الثورة ،عمل بالتدريس ثم بالنظارة وأعطي رسالة التعليم حقها، وتولي تحرير جريدة " المفيد " ثم أصدر صحيفتي السفير والنجاح ومثل السيد إبراهيم سراج الذي أصدر صحيفة "الحجاز" لتكون في خدمة الثورة، ومثل " يعقوب صنوع " الذي بدأ المعارضة الثورية عن طريق الصحافة بالاتفاق مع السيد جمال الدين الأفغاني، فأصدر العديد من الصحف مثل أبو نضارة وأبو صفارة وغيرها قاد فيها الحملات على النفوذ الأجنبي والاستبداد والفساد، وكان لها انتشارا واسعا بفضل الأسلوب الساخر الذي أتبعه، ووصلت إلى أقاصي الريف وأعماق المدن وأثرت تأثيرا كبيرا وكانت تتعرض للمصادرة، فإذا ما صادرت السلطة صحيفة أنشأ أخرى وهكذا إلى أن تم نفيه إلى الخارج مع السيد جمال الدين، ولكنة أيضا يؤيد الثورة من الخارج ويصدر الصحف باللغة العربية فتجد طريقها إلى داخل البلاد عن طريق خلايا الثورة المنتشرة في موظفي الجمارك والبريد وغيرهم لدرجة أنها تثير فزع الخديوي توفيق فيعمل على محاولة تعطيلها عن طريق الضغط على المبعوث العثماني نظامي باشا؛ لأن يعقوب صنوع كان من رعايا الدولة العثمانية، بل

وأكثر من هذا يصدر يعقـوب صـنوع الصـحف باللغـات الأوروبية للدعاية للثورة وفي الحقيقة فإن "يعقوب صنوع " بالتحديد كان أحد علامات عبقرية الثورة وعبقرية الأفغاني بالتحديد، فبفضل إسلامية الأفغاني الناضـجة والصـحيحة أستطاع أن يحشد للثورة كثير من غيـر المسـلمين علـى قاعدة الانتماء للإسلام كثقافة وكحضارة وكـوطن وكـان " يعقوب صنوع " هو أهم هذه النماذج التي انحازت للثـورة الإسلامية برغم كونهم غير مسلمين، وفي الحقيقـة فـإن يعقوب صنوع لم يكن أحد رجال الثورة أو صحافييها الكبار، بل هو رائد الصحافة المعارضة، وكانت صـحفه ومقالاتـه تأتي في الأهمية بعد صحف ومقالات النديم مباشرة.

وقد عهد إليه الأفغاني بتلك المهمة ولم يطالبه بـأن يسلم مثلا، وكان مخلصا للثورة الإسلامية ومتحمسا لها عن إيمان بالانحياز للإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن، ولم يشك أحدا في إخلاصه ولم يكن أحد يشك في إخلاصه–لأن دعـاة الثورة وقادتها وجماهيرها التي كانت تتلقف صحف صنوع وتقرأها وتوزعها، كانوا من الإسلاميين الناضـجين الـذين

يفهمون الإسلام على حقيقته ولـم يكونـوا مـن الصـنف الضعيف الإدراك الضيق الأفق الذي يشكك في أي شيء

ولم يكن يعقوب صنوع وحدة في هذا الصدد، ولكـن كان هناك أديب اسحق، وسليم نقاش، ولكن هؤلاء انحازوا إلى أعداء الثورة في النهاية، ولكن لأسباب لا تتعلـق، ولا تمت لكونهم غير مسـلمين إطلاقـا بـل لأسـباب أخـرى موضوعية وشخصية، وبالتالي يحسب موقفهم الأول علـى التأكيد على إمكان وضرورة مشاركة غير المسـلمين فـي الثورة الإسلامية؛ لأنهم ينتمون إلى الإسلام كحضارة وثقافة ووطن والتأكيد على عبقرية الأفغاني ونضـجه الإسـلامي ويحسب موقفهم الثاني في إطار موقف أي شخص انحـاز إلى أعداء الثورة في مراحل مختلفة مثـل سـلطان باشـا، شريف باشا، أو حتى على خـنفس وكـل هـؤلاء كـانوا مسلمين، أي أن المعيار هنا شخصي وفكري ومصلحـي،

أمتد التأثير الثقافي للثورة إلى كل القطاعات وانحـاز الكثيرين من المثقفين إلى الثورة من كل القطاعات أيضا من الموظفين ومن الأطباء والصـيادلة والقضـاة والمـديرين والمدرسين والمهندسين وغيرهم.

****

ومن أبرز النماذج الثقافية التي أيدت الثـورة نجـد محمود سامي البارودي وهو من أصل شركسي ومن كبـار ملاك الأراضي، أنحاز إلى الثورة منذ البداية وأرتـبط بهـا حتى أصبح رئيسا للوزراء في حكومة الثورة، وكان أيضـا من أوائل المتهمين في المحاكمة التي شكلت لعقـاب قـادة الثورة، وصدر علية الحكم بالنفي ٢٠عاما مع تجريده مـن ألقابه وامتيازاته، وهو نفس الحكـم الـذي صـدر علـى عرابي، وكان محمود سامي البارودي من كبار المثقفين في عصره، إلا أن ثقافته اتسمت بالتمسك بالإسلام وهـو مـن رواد الشعر الحديث، وله أثار أدبية كثيـرة وخاصـة فـي الشعر الذي نبغ فيه نبوغا كبيرا بحيث أنه أصبح من فحول الشعراء في الأدب العربي عموما و الأدب العربي الحـديث خصوصا .

ولا ننسي أيضا السيد أحمد رفعت الذي يمثل نموذجا عظيما للمثقف الثورى، وهو المسئول الإعلامي في الثورة ورئيس قلم المطبوعات وقد لعب دورين متميزين في هـذا الصدد فقد نجح في توصيل الرسالة الصحفية الثورية إلـى

الجماهير من خلال قلم المطبوعات كما أنه أسهم في ترجمة المواقف السياسية التـي تتخـذها الحكومـات الأوروبيـة والصحف الأوروبية ومختلف القوى السياسية الدولية سواء كانت شخصيات عامة أو أحزاب أو حكومات ممـا سـاعد الثورة كثيرا في الوقوف على موقف الـدول والحكومـات والأحزاب والشعوب من الثورة، وقد جاء في قرار اتهامـه إبان محاكمة قادة الثورة " أنـه كـاتم وكاتـب أسـرارهم، مراسلا وآمرا ومكاتبا جميع الجرائد بنشر الخطب والقصائد والأراجيف والمقالات والترهات التي أوجبت تهيج الأوباش وتجاريهم على ارتكاب أمور شنيعة وفكرات فظيعة " [(١٢٧)].

****

وبالطبع لا يمكن أن نتكلم عـن دور المثقفـين فـي الثورة دون أن نتكلم عن الأزهر كمؤسسة ثقافية، وعـن دور الأزهريين كمثقفين، وبالطبع فإننا نظلم الأزهر كثيرا لو حصرنا دوره في كونه مؤسسـة ثقافيـة أو حصـرنا دور الأزهريين في كونهم مثقفين، فالأزهر أشمل من ذلك وكـان هذا سبب أننا ناقشنا دوره في الثورة في جزء مستقل.

لعب الأزهر دورا هاما في تشكيل الثقافة قبـل ذلـك وبعد ذلك وأثناء تلك الثورة، بالإضـافة طبعـا إلـى دوره التعليمي كمؤسسة إسلامية وفي الحقيقة فـإن الإسـلام لا يعرف الفصل بين الدين والسياسة أو الـدين والثقافـة أو الدين وأي شىء.

وبالتالي ففي إطار الدور الديني للأزهـر كـان مـن الطبيعي أن يؤدي دوره في الثقافة باعتبار هذا واجب ديني، وهكذا أحتضن الأزهر دائما كل ما هو صالح ونافع للبشـر من علوم وثقافات وآداب وفنون وبالتالي كان له تأثير على كل المثقفين في هذا العصر سواء من درس بالأزهر أو لـم يدرس به سواء كان تعليمه ديني أو غير ديني، عسكري أو مدنى، سواء درس في الداخل أو درس في الخـارج عـن طريق البعثات، فإذا أضفنا إلى ذلك أن معظم مثقفـي هـذا العصر قد تأثروا بالأفغاني والأفغاني أيضا نهل مـن نفـس المنهل الذي يشكل الأزهر جزء منه ، ألا وهـو الإسـلام، لأدركنا أن معظم المثقفين في ذلك العصر قد تأثروا بصورة أو أخرى بالأزهر أو ما يمثله الأزهر، ولم يستثني من هذا الإطار إلا المغتربين الذين اعتنقوا قيم الحضـارة الغربيـة

بطريقة أو أخرى مثل شريف باشا وغيره مـن المثقفـين المغتربين، بل إن الأزهر أثر على التكوين الفكري للمثقفين السلطويين مثل الطهطاوي أو على مبارك وغيرهما الـذين استخدموا بعض وسائل التراث الإسلامي لخدمـة وتبريـر سياسات الحكام، وعلى مستوى الأزهريين، فإن الأزهر كان يقدم من الثقافة ما يسـمح بظهـور العديـد مـن الأدبـاء والشعراء والصحفيين والمبدعين عموما ".

ومن الأزهريين من يلتحق بالجيش، ومنهم من يلتحق بالمدارس العليا ليكونوا أطباء أو مهندسين ، ومـنهم مـن يلتحق بالبعثات أيضا ويتعلم في الخـارج علومـا وفنونـا متنوعة، ومن خريجي الأزهر تجد المدرسـين والقضـاة، وبكل تأكيد كان لهؤلاء جميعا أثر كبير على الثقافة عموما.

****

ومن المثقفين الموالين للثـورة كـذلك والمؤيـدين لها.نجد طائفة كبيرة من طـلاب البعثـات المصـرية فـي أوروبا، وانخرط معهم في عملية تأييد الثورة عدد كبير من المبعوثين من مختلف البلاد والشعوب الإسـلامية وهـؤلاء حرروا الصحف.وعقدوا المؤتمرات.وأرسلوا البرقيات لتأييد

الثورة.بل وطالب بعضهم المجيء إلى مصر كي يشاركوا في الثورة ويحاربوا الإنجليز [١٢٨]

****

لاشك أن الشيخ محمد عبده كان من كبار المثقفين في الفترة التي اندلعت فيهـا الثـورة العرابيـة.فهـو فقيـه كبير.وأديب فذ.يكتب الشعر والنثر ويؤلـف فـي المنطـق والفلسفة والتربية والاجتماع.

ويري بعض الأكاديميين مثل الدكتور على شلبي أن الشيخ محمد عبده هو فيلسوف الثورة ومفكرها [١٢٩] .

ويري قطاع لا يستهان به داخل الحركة الإسلامية أن الشيخ محمد عبده هو أحد أهم روافـد الفكـر الإسـلامي الثوري المعاصر وهذا هو جوهر المشكلة في الشيخ محمد عبده؛ لأن مواقفه المتناقضة جعلـت بعـض الأكـاديميين يصلون به إلى درجـة فيلسـوف فـي الثـورة العرابيـة ومفكرها،وجعلت قطاعا لا يستهان من الحركـة الإسـلامية يعتبره أحد روافد الفكر الإسلامي الثوري المعاصر.

وهذا الموقف والتقييم خطأ تماما ولا يستند إلى تحليل حقيقي لشخصية وفكر الشيخ محمد عبده.ولكن المسألة هنا

ليست مجرد خطأ في تقييم شخصية أو ظـاهرة أو موقـف تاريخى.بل هي مسألة خطيرة ذات مردود كبير علـى فكـر الحركة الإسلامية ومستقبل الثورة الإسلامية أيضا.

وعلينا أن نحلل موقف وشخصية محمد عبده لنصـل إلى التقييم الصحيح والموضوعي في المسألة.

فالشيخ محمد عبده هو أحد تلاميذ الأفغاني وقد تفتحت مواهبه الفكرية والفقهية بفضل المناخ الذي أحدثته أفكـار الأفغاني في مصر بوجه عام وبفضل تتلمذه على الأفغـاني بوجه خاص والشيخ محمد عبده طاقه عقليه وفكرية كبيـرة جدا.فقهية وأدبية على السواء فهو يكتب الفصول الممتعـة في المنطق والفلسـفة والتربيـة والاجتمـاع والأدب، بـل ويقرض الشعر والشيخ محمد عبده يقود المعارك الفكريـة دفاعا عن الإسلام ضد طبقات المستشرقين ويمتلك من قـوة الحجة ما يجعله أهلا لذلك وخير مثال على ذلك رده علـى " هانوتو " وتفنيد مطاعنه على الإسلام

وقد ألف محمد عبده عددا من الكتـب الهامـة منهـا الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ". وقـدم اجتهـادات فكرية رائعة وأسلوب عظيم في تفسيره للقرآن الكـريم ولا

مانع أن يكون " منبع النور والعلم والحكمـة كمـا وصـفه الرافعي " [١٣٠] والشيخ محمد عبده بذل جهودا مشكورة في إصلاح التعليم في الأزهر وإصلاح الأوقاف وإحياء العلـوم العربية والسلفية وتأسيس الجمعيات الخيرية لنشر التعلـيم والبر بالفقراء وإصلاح القضاء الشرعى. والشـيخ محمـد عبده له الفضل في إظهار مبادئ الإسلام على حقيقتها خالية من شوائب الجمود والبدع والشيخ محمد أيضا يمتلـك كـل الصفات الأخلاقية المحمودة، وأنه لم يكن طالب ثروة، وكان عفيف النفس، كل هذا وأكثر منه يمكنك أن تقوله في شـأن السيخ محمد عبده، أما أن تقول أنه كان قائدا ثوريا أو أنه كان مفكر الثورة العرابية أو تعده من رواد الفكر الإسـلامي الثوري المعاصر فهذا خطأ كبير وخطير، فالشيخ محمد عبده لم يكن يوما ما ثوريا أو من دعاة الثـورة ولا كـان مفكـر الثورة العرابية ولا فيلسوفها، ولا يمثل كشخصـية وكفكـر رائدا كبيرا أو صغيرا من روافد الفكر الإسـلامي الثـوري المعاصر.

ويمكنك أيضا أن تفضـل محمـد عبـده ومدرسـته وأسلوبه على أسلوب وفكر مدرسـة الثـورة الإسـلامية،

ولكن عليك في هذه الحالة أن تقول أنك غير مؤمن بـالفكر الإسلامي الثوري المعاصر، وأنك لا تري فيه فائدة أو طريقًا صحيحا للنهوض بالمسلمين، أما أن تقحم محمد عبده فـي روافد الفكر الإسلامي الثوري المعاصر فهذا هو الخطـأ ، يمكنك أن تفضل الإصلاح والتربية على الثورة، ولكـن لا تخلط بين الإصلاح والثورة بين الفكر الإصـلاحي والفكـر الثوري بل ويمكنك أن ترفض هذا وذاك وتقول أنه لا أمـل في المسلمين، ولكن الأمل في اقناع أهل أوروبا او أمريكا او روسيا أو اليابان بالإسلام، وهؤلاء جميعا أو بعضهم إذا أسلموا استطاعوا أن يعيدوا للإسلام مجده.

يمكنك أن تقول أي شيء من هذا، ونحن نحترم كـل هذه الآراء والأفكار، ولكن لا تخلط بين الثـورة الإسـلامية حتى لو كنت ضدها كأسلوب وبين محمد عبده الذي لم يمت بصله يوما للثورة، وانظر إلى الوقائع الثابتة، فمحمد عبده انحاز إلى رياض باشا المعروف باستبداده وانحيـازه إلـى النفوذ الأجنبي، وأعدي أعداء الثورة العرابية على الإطلاق وعمل رئيسا لتحرير جريدة الوقائع في عهد رياض باشـا يقول الرافعي: ولم يكن الشيخ محمد عبده من أنصار الثورة

العرابية حين شبوبها بل كان مؤيدا لرياض باشـا –، ولـم يكن يشاطر العرابيين رأيهم في ذلك ويميل إلى نظام الحكـم الفردي المقرون بالإصلاح " [١٣١].

ويقول السيد محمد رشيد رضا:" إن الشـيخ محمـد عبده رفض مطالبة عرابي بالدستور وبمشاركة الأمة فـي إدارة شئون الحكم " [١٣٢] بل ويصل الأمر إلى حد تـأليف قصيدة في تأييد رياض إذ يصف واقعة عابدين بقوله:

قامت عصابات جند في مدينتنا
لعزل خير رئيس كنت راجيـه
ذاك الذي أنعش الآمال غيرته
وخلصت القطر فارتاحت أهاليه
قاموا عليه لأمر كان سيدهم
يخفيه في نفسه والله مبديـه
كان الرئيس حليف العدل منقبة
وسيد القوم يهدي الجور يأتيه
جروا مدافعهم صفوا عساكرهم
نادوا بأجمعهم سل ما ترجيـه

فنال ما نال وانفضت جموعهم

أما النظام فقد دكت مبانيه[133]

ونحن بالطبع هنا لا نناقش القصيدة ولا ظروفهـا ولا ما تريده من معاني ولا نقول هذا الموقف خطأ أو صـواب، ولا صواب ولا نقدح في رأي الشيخ محمد عبـده ولا فـي رؤيته لظروف حادثه عابدين، ولكننا فقط نثبت أنه كان ضد حركة الجيش في واقعة عابدين وكان منحازا إلـى ريـاض الذي لا شك في أنه " أي رياض " كان منحازا إلى الأجانـب ولو حتى على حساب الخديوي أو لحسابه –إذا فلـم يكـن الشيخ محمد عبده لا مفكر الثورة العرابية ولا فيلسوفها ولا يري أن الظروف تسمح بقيام الحكم الدسـتورى، ويقـول الرافعي: ولما وقع الخلاف بين العرابيين وشريف باشا في مسألة الميزانية والمواد المتعلقة بها فـي الدسـتور كـان الشيخ محمد عبده من الناصحين لهم بالاعتدال والتريـث " [134].

ونحن هنا لا نناقش هل كان العرابيون على صـواب أم كان شريف باشا هو الذي على صواب بل نثبت أنه إلـى هذه اللحظة لم يكن الشيخ محمد عبده مع الثورة العرابيـة

ولنكمل الرحلة مع الشيخ محمد عبده يقول الرافعي:، ولكن لما تألفت وزارة البارودي أنضم الشيخ محمد عبـده إلـى العرابيين بكل قوة " [١٣٥].

إذن فقد لحق بآخر عربة في قطار الثورة بعد أن كان يخالفها وينشد الأشعار في هجائها والإشادة برياض باشـا، فهل هذا يرجع إلى أنه اكتشف أنه كـان علـى خطـأ وأن الثورة كانت على صواب فرجع عن خطئـه واسـتغفر الله لذنبه ولحق بالثورة ؟ أم أنه لما وجدها وصلت إلى السلطة باستلام زمام الوزارة قرر أن يرتبط بها ويدافع عنها بكـل قواه ؟ أم تراه يأخذ الموقف ونقيضه بـدون أسـباب ؟ الله تعالى أعلم ! ولنكمل أيضا الرحلة مع الشيخ محمد عبـده، فبعد هزيمة الثورة صدر الحكم بنفيه ثلاث سنوات فـالتحق بالأفغاني وأصدر معه مجلة العروة الوثقى التي لعبـت دورا هاما في أيقاظ الشعوب الإسلامية.

ثم عاد الشيخ محمد عبده إلى مصـر سـنة ١٨٨٩ وانقطع عن الكفاح السياسي تماما_ وأختلف في ذلـك مـع أستاذه جمال الدين_ بل وبمجرد وصوله إلى مصـر تقلـد منصب الإفتاء في الديار المصرية " سـنة ١٨٨٩ ذاتهـا "

وتراخت صلته بجمال الدين _ حتى الصلات الشخصـية _ ولم يرسل رسالة واحدة إلى السيد جمال الدين في محنتـه ومنفاه بل إن جمال الدين عندما توفي لم تجد للأستاذ الإمام " الشيخ محمد عبده " كلمة رثاء في أستاذه الروحي، وهذه الناحية هي أثر من آثار الاحتلال في أخلاق الأمة ونفسيتها "[١٣٦] كل الكلام السابق للرافعي .

وبقي أن نقول نحن كلمتنا ، فالوقائع تقول أن الشيخ محمد عبده لم يكن ثوريا ولا من دعاة الثورة العرابيـة ولا غير العرابية، وهو لا يمت للفكر الثوري الإسلامي وغيـر الإسلامي بصلة بل هو أيضا لا يمت للفكر السياسي بصـلة وخاصة في أدوار حياته الأخيرة التي انقطـع فيهـا عـن السياسة أو انقطع عن الكفاح السياسي بتعبير الرافعـي _ وقبل العمل كمفتي في ظل الاحتلال الإنجليزي وكانـت لـه علاقة طيبة بالمعتمد البريطاني اللورد كرومر ولـم يعـرف عنه أنه دعا إلى مناهضة الاستعمار الإنجليزي منذ أن عاد إلى مصر سنة ١٨٨٩ إلى أن مات _ وهو في بداية حياته ينحاز إلى رياض باشا وينتقد الثورة فإذا ما لاحت علامـات النصر للثورة أنحاز إليها بكل قواه، فلما تم نفيه عقابا على

ذلك بعد هزيمة الثورة تعاون مع جمال الدين فـي إصـدار العروة الوثقى فلما عاد إلى مصر سكن وركن إلى الإنجليز في مقابل إصلاح الأزهر والتعليم وتفسير ذلك كله في رأينا أن الشيخ محمد عبده كان رجلا مخلصا ولـم يكـن طالـب سلطة ولا ثروة، ولكنه كان يري أن النهوض بالمسـلمين يكون بإصلاح التعليم والأزهر وبتربية النشء وفي مقابـل ذلك يمكنه أن ينحاز إلى المستبدين أو المحتلين أو حكومـة الثورة أو أي سلطة كائنا من كانت _ وهذا ما نطلق عليـه المنهج الإصلاحي، وهو يختلف تماما عن المنهج الثـوري الذي من رموزه الأفغاني والنديم ومصطفي كامـل ومحمـد فريد وعبد العزيز جاويش وهو المنهج الذي يؤمن بالثورة على الاحتلال والاستبداد؛ لأنهما أو أي منهما هو السبب في الجهل والتخلف، والمنهج الثوري لا يمانع فـي الاهتمـام بالتعليم والتربيـة، ولكنـه يـدرك أن سـلطات الاحـتلال والاستبداد لن تترك أحد يفعل هذا بحرية بل في إطـار مـا تريده هذه السلطات وعلى كل فلو كان هناك فرصـة لـذلك فعلينا أن نستفيد بها إلى أقصي درجة.

المنهج الثوري يعطي الإنسان الرؤية الكلية وليست الجزئية وبالتالي تراه منطقيا في كل سلوكه وليس متـرددا تارة إلى هؤلاء وتارة إلي هؤلاء كما يفعل دعـاة المـنهج الإصلاحي، المنهج الثوري يحمل مزايا المنهج الإصـلاحي ويستفيد بالإصلاحيين داخل إطاره، ولكنه لا يحمل عيـوب المنهج الإصلاحي، المنهج الثوري هو الأفغـاني والمـنهج الإصلاحي هو محمد عبده ولا صلة بين المنهجين ولا علاقة بين محمد عبده حتى ولو لحق بقطار الثورة فـي اللحظـة الأخيرة _ حتى ولو كان تلميذا للأفغاني وحتى إذا شارك في تحرير العروة الوثقى فذلك كلـه يـأتي فـي إطـار تـردد الإصلاحيين وعملهم من خلال أي سلطة أو فرصة متاحـة من أجل الإصلاح والتربية ولـو علـى حسـاب مناهضـة الاستعمار أو الاستبداد _ وفي إطار أن المنهج الثـوري لا يمانع في الاستفادة من قدرات الإصلاحيين وخاصة من كان منهم في ذكاء محمد عبده فهذا سبب استعانة الأفغاني بـه وسماح الثورة العرابية له بتأييدها في آخر مراحلها.

وبديهي أن المنهج الثوري لا يمانع في الاستفادة من أي شيء في الدنيا في إطار الشرع وفي إطار عدم التخلـي عن المبادئ الرئيسية للمنهج الثوري.

ونعود فنكرر أن من حق أي إنسـان أو جماعـة أو مجموعة أن تتبني وتدافع عن سلوك مدرسة وفكر محمـد عبده، ولكن عليها الا تخلط بينه وبين الفكـر الثـوري أو تقحمه عليه إقحاما _ من حقها أن تلعن الأفغـاني والنـديم وعرابي والثورة والحركة وأي شيء في مقابل الدفاع عـن سلوك وفكر محمد عبده، ولكن عليها أن تعرف أن محمـد عبده قد لعن أيضا الثورة والحركة السياسية وكل ما يمـت إلى كلمة سياسة بصلة وكل مشتقات اللغة من لفظ سـاس من فعل وفاعل ومفعول ونائب فاعل وهلـم جـرا، أمـا أن تدعي أنك ثوري أو حركي أو حتى سياسي ثم تتبنـي فكـر محمد عبده كرافد للثورة أو السياسة فهذا هراء.

السلطات الحاكمـة سـواء كانـت اسـتعمارية أو استبدادية تستفيد من الإصلاحيين كثيرا وتحركهم لصالحها، فهي من ناحية تتركهم يمارسون نشاطهم الإصلاحي حتـى تظهر تلك السلطات بمظهر غير معادي للإسلام أو الشـعب

ثم تضغط على هؤلاء الإصلاحيين شيئا فشيئا حتى تحصل منهم على التأييد والشرعية في مقابل عدم ضرب مشروعاتهم الإصلاحية، وهكذا لم يكن عجيبا أن ينضم الشيخ محمد عبده إلى حزب الأمة الذي ينادي بالتعاون مع الإنجليز وكان يشيد بإنجازات الاحتلال في مصر.

دور كبار الملاك.. الأرستقراطية الزراعية

حرص النفوذ الأجنبي في إطـار الاحـتلال السـلمي لمصر على السيطرة الكاملـة علـى التجـارة والشـركات والبنوك ودمر أي محاولة صناعية بلا هوادة وكان الهـدف من ذلك هو نهب مصر واحتلالها سلميا من ناحية. وصياغة اقتصادها بحيث لا يمكن ظهور نهضة صـناعية أو تـراكم رأسمالي تجاري مصري يمكن توجيهه إلـى الصـناعة _ والشيء الوحيد الذي سمح به الاستعمار لغير الأوروبيـين هو الاستثمار الزراعي. وبالطبع كان ذلـك لامتصـاص أي فائض مالي غير أوروبي في مصر بعيـدا عـن الصـناعة والتجارة من ناحية _ واستغلال هذا الفائض المـالي غيـر الأوروبي في زيادة الرقعة الزراعية المصرية الموجهة إلى إنتاج المحاصيل النقدية التصديرية مثل القطن _ أي التـي تخدم عملية النهب الاستعماري أساسا ولـم يتـرك النفـوذ الأجنبي هذا القطاع وهو " الاستثمار الزراعي " أيضا بعيدا عن مشاركته بل وجدنا الأجانـب والمـرابين مـن جميـع الجنسيات الأوروبية يحاولون شراء أي قـدر ممكـن مـن الأراضي الزراعية عن طريق إغـراق الفلاحـين أو حتـى

الأمراء في الديون الربوية أو عن طريق إفلاس الفلاحين الصغار والمتوسطين بواسطة الخمارات ووابورات المياه والتحكم في شراء الحاصلات وغيرها من الوسائل. والمحصلة الأخيرة هو أن الأجانب كانوا أيضا جزءا من طبقة كبار الملاك.

والأرستقراطية الزراعية تلك أو طبقة كبار الملاك نشأت أصلا بطريقة غير مشروعة ، فقد نشأت عن طريق المنح والإكراميات التي منحها محمد على للحاشية أو كبار الموظفين أو كبار ضباط الجيش أو حتى المثقفين المرتبطين به مثل الطهطاوي ، وأستكمل كل من سعيد وإسماعيل هذا الأمر. أي أن هذه الطبقة نشأت أصلا عن طريق الارتباط بالحاكم المستبد وتقديم الخدمات له فحصلت على المكافأة بمنحها أبعادية أو جفلك أو غيرها من المسميات التي أطلقت على مساحات الأرض الواسعة. وكامن من الطبيعي أن يعمل كل من حصل على مساحة كبيرة من الأرض على زيادتها بلا قناعة أو رحمة بشراء الأراضي طوعا أو كرها من صغار الفلاحين.

ومن ناحية النفوذ الأوروبي، فإنه لم يعترض علـى هذا بل شجعه وشارك فيه للأسباب التي ذكرناها.

إذن فهذه الطبقة مرتبطة بالحكم المستبد ، ولا تجـد حساسية تجاه النفوذ الأجنبي، وكانت هذه الطبقة تتكون من الأوروبيين _ الأسرة الخديوية _ وحاشية الخديوي سـواء ممن الأتراك أو المصريين ، وكنت تجد في هـذه الطبقـة الأوروبي مثل عائلات دريفو وخريستو والتركي مثل شريف باشا والمصري مثل رياض باشا والطهطاوي، وبـديهي أن الأسرة الخديوية كانت تحظي بالنصيب الأكبر فـي ملكيـة الأراضي، ولأن الثورة العرابية كانت ثورة إسـلامية فـإن من الطبيعي أن تفكر في إعادة تلك الأراضي المنهوبة إلـى الفلاحين؛ لأنها أراضي منهوبة مـنهم أولا ولأن الإسـلام يعطي الأرض لمن يزرعها ولا يسمح أساسا بملكية الأرض ملكية فردية بل هي ملكية عامة للأمـة كلهـا يقـوم مـن يزرعها بالحصول على ناتج غلتها ولـيس غيـره.، وفـي الإطار السابق يمكننا أن نفهم موقف كبار الملاك من الثورة العرابية فالأوروبيون منهم بداهة كانوا ضد الثورة في كل مراحلها والمرتبطون بالخديوي ارتباطا مباشرا مثل رياض

والطهطاوي وعثمان باشا رفقي كانوا أيضا ضد الثورة في كل مراحلها، ولكن هناك نموذجان متميزان فقد كان هنـاك بعض كبار الملاك بقيادة شريف باشا لم يقفوا ضد الثـورة بصورة مباشرة منذ البداية ؛ لأنهم كانوا ذوي ثقافة غربية ويريدون في إطار تلك الثقافة أن تحكم مصر بواسطة نظام دستوري على النمط الأوروبي إلا أن هذه المجموعـة مـا لبثت أن انحازت إلى معسكر أعداء الثـورة وخاصـة بعـد الخلاف حول موضوع الميزانية والنموذج الثـاني المتميـز كان نموذج مجموعة فضـلات انتمائهـا الإسـلامي علـى مصالحها بدرجات متفاوتة فمنهم محمود سامـي البارودي باشا الذي انحاز إلى الثورة في كل مراحلها وكان أحد كبار زعمائها بل هو رئيس وزراء الثورة وكان المتهم الثـاني بعد عرابي أثناء المحاكمة وصدر عليه نفس الحكـم الـذي صدر على عرابي وهو النفي المؤبد ، الأكثر من هـذا أنـه ظل متماسكا ومخلصا لفكرة الثورة طـوال المنفـي وبعـد العودة من المنفي في حين تراجع كثيرون أو ضعفوا.

ومنهم بعض أمراء البيت الخديوي نفسه الذين منعهم شرفهم الإسلامي من تأييد الخـديوي عنـدما انحـاز إلـى

الإنجليز. مضحين بروابطهم الأسرية ومصـالحهم وربمـا بحياتهم ، فلو فكروا في تلك المسائل؛ لانحازوا إلى الجبهة الأقوى خصوصا بعـد نـزول الجـيش الإنجليـزي إلـى الإسكندرية وكان من هؤلاء الأمير إبراهيم باشـا، الأميـر كامل باشا فاضل " ابن عم الخديوي توفيق " ، الأمير أحمد باشا كامل. وقد وقع هؤلاء على قرار عزل الخديوي توفيق والتمسك بعرابي كقائد للجـيش المصـري فـي مواجهـة الإنجليز ، كما قام بعض أعضاء الأسرة الخديوية ليس فقط بإعلان الولاء للثورة وعزل توفيق الخائن بل تبرع بعضهم للمجهود الحربي للثورة مثل والدة الخديوي إسماعيل التـي تبرعت بجميع خيول عرباتها وكذلك حرم خيري باشا وكثير من الذوات " على حد تعبير عرابي في مذكراته ".

دور الأعيان في الثورة

الملاحظة الأولي الخاصة بدور الأعيان فـي الثـورة العرابية هو أن المراجع التاريخية والدراسات الخاصة بتلك الفترة تختلف اختلافا كبيرا في تقييم دور الأعيان في الثورة _ فالبعض يجعل الثورة العرابية ثـورة أعيـان والـبعض الآخر يري أن الأعيان كطبقة كانوا ضد الثورة فـي جميـع مراحلها وفي الحقيقة فإن هـذا الـرأي وذاك خاطئـان _ والخطأ هنا جاء أيضا مثل كل الأخطاء التي تقع فيه تلـك الدراسات بسبب استنادها إلى الفكر الثوري الأوروبي فـي تحليل أحداث الثورة أو أحداث بلادنا عموما ورغم اخـتلاف الظروف جملة وتفصيلا.

يجب في البداية أن نحدد المقصود هنـا بالأعيـان. وسوف نأخذ بالرأي الذي أجمعت عليـه كافـة المصـادر والدراسات وهو أن هؤلاء الأعيان هم عمد البلاد ومشايخها وقد كان لهم نفوذ كبيرة وخاصة في الريف، وإذا نظرنا إلى تشكيل المجالس النيابية في تلك الفترة ففي مجلس ١٨٦٦ بلغ عدد العمد ٥٨ عضوا من مجمـوع الأعضـاء البـالغ عددهم ٧٥ عضوا وفي مجلس ١٨٧٠ كـانوا ٦٣ عضـوا

وفي مجلس ١٨٧٦ بلغ عددهم ٦٠ عضوا وكان هذا طبعا بسبب قوانين الانتخاب.

وهؤلاء الأعيان عادة يمتلكون أكثر من ١٠ أفدنـه، ولكن لا تصل درجة ملكياتهم إلى درجة كبار الملاك أبـدا ، وعلى سبيل المثال فقد ورث عرابي عن والده ثمانية أفدنه وكان والده هو عمدة قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية _ إذا فملكية ولد عرابي عمدة القرية تتراوح بـين ٢٠، ٣٠ فدان على الأكثر.

إذن فالأعيان إمـا مـن طبقـة صـغار المـلاك أو متوسطيهم، وإذا حاولنا أن نقيم دور الأعيان في الثورة من خلال مجلس النواب لوجدنا أن مجلس النواب وقـف مـع الثورة في خلافها مع شريف باشـا حـول مسـألة نظـر الميزانية ، ثم تقاعس هذا المجلس نفسـه عنـدما أنحـاز الخديوي للأجانب ولما طلب عرابي إلى مجلس النواب خلع الخديوي رفض هذا المجلس ذلك رغم الضغط الذي مارسه الضباط على النواب في ذلك الاجتماع ولم يوافق على خلع الخديوي إلا خمسة نواب هم: أمين الشمسي، مهنـي أبـو عمر، مراد السعودي، أبو عبد الله، محمد جلال ، واضطرت

قيادة الثورة إلى عقد مجلس عرفي لخلع الخديوي _ مع أن المروض قانونا أن يضطلع مجلس النواب بتلك المهمـة _ ونجد أن عددا من النواب (٥ نواب) قد وقع علـى قـرار المجلس العرفي بعزل الخديوى ، على أنه ليس من المنطق ولا العلمية أن نحصر ونقيم دور العيان من خـلال مجلـس النواب وحده.

فإذا كان الأعيان هم العمد والمشايخ فإن الكثير مـن هؤلاء العمد والمشايخ قد أنحاز إلى الثـورة فـي جميـع مراحلها وخاصة في المراحل الحرجة _ فوثـائق الثـورة العرابية تقول أن كثير من الأعيان جاءوا إلى القاهرة إبـان أحداث ٩ سبتمبر ١٨٨١ لتأييد عرابي وكثير منهم قد وقع على التوكيل الذي يخول عرابي حق التكلم باسم الأمة قبيل أحداث ٩ سبتمبر، ونجد أيضا أن ٥٢ عمدة وشـيخ و٣٦ من الأعيان " عمدة سابق أو شيخ سـابق أو مـن صـغار الملاك ومتوسطيهم " قد وقع على عزل توفيـق " مجمـوع الذين وقعوا كان ٢٤٧ يمثلون مختلف طوائف البلاد " بـل نجد أيضا أن الكثير من الأعيان والعمد والمشايخ قد تبرعوا للمجهود الحربي للجيش في مواجهة الإنجليز مثـل أسـر

حميد و أبو ستيت و موسي ميزار والاسـيوطي بسـوهاج وراضي بالواسطي وزغلول بالغربية وجلال بالمنيا وعبـد الله بالشرقية، وغيرهم كثيرون " [(١٣٧)]

ولعب كثير من العمد والمشايخ والأعيان دورا هاما في تنظيم وحشد المتطوعين للثورة وكذلك الدعم المالي، بل ونجد أيضا عددا من هؤلاء في قائمة الذين صدرت ضـدهم أحكام عند محاكمة قادة الثورة بلـغ عـددهم حـوالي ٤٠ شخصا ذكر الرافعي أمامهم عمدة وشيخ أو من الأعيـان " [(١٣٨)].

وعلى الجانب الآخر نجد أن معسكر أعداء الثورة قد ضم أيضا عددا لا يستهان به من الأعيان والعمد والمشايخ _ بل نجد أن الرأس المدبرة وأهم الشخصيات التي قامـت بالدور الخياني هو سلطان باشا " من الأعيان " وقد استطاع هذا أن يجند الكثير من العمد والأعيان في معسكر الخيانـة مثل: السيد الفقي عمدة كمشيش، وأحمد عبد الغفار عمـدة تلا، سعود الطحاوي شيخ الهنادي، محمد صـالح الحـوت عمدة الصالحية وغيرهم.

وإذا حاولنا أن نأخذ دلالة الأرقام نجد أن خمسة فقط من مجلس النواب المشكل من الأعيان أساسا هـم الـذين وافقوا على خلع الخديوي في حين رفض الآخرون وأن ٥٢ عمدة فقط من عمد البلاد الذين من المفـروض أن يكونـوا بعدد القرى والمدن الصغيرة في ذلك الوقت هم الذين وقعوا على قرار المجلس العرفي والباقون إما رفضوا وإما كـانوا على الحياد.

ومحصلة كل هذا أن الأعيان شاركوا في الثورة فـي معظمهم. ولكن قطاع لا يستهان به مـنهم انحـازوا إلـى معسكر أعداء الثورة أو مارس الخيانة وشارك فيها مباشرة بحيث لا يمكن اعتباره مجرد استثناء أو حالات فردية _ بل يشكل ظاهرة متسعة ولعل تعبير الدكتور على شلبي يعكـس ذلك حيث يقول " أن ذلك لا يعني أن كل الأعيان قد تخلـوا عن الثورة " [١٣٩]، ولكن الأصـح أن نقـول أن الأعيـان شاركوا في الثورة في معظمهم وأن هناك قطاعا متسعا قـد خان الثورة أو انحاز إلى معسكر الأعداء وأنه قطاع يشكل ظاهرة وليس مجرد استثناءات أو حالات فردية.

حاول لويس عوض كعادته أن يسيء إلـى الثـورة العرابية؛ لأنها كانت موجهة ضد النفوذ الأجنبي الذي يعمل هو في خدمتـه، فـأراد أن يتجاهلهـا ببعـدها الإسـلامي والـوطني، فحصـرها فـي مجـرد ثـورة أعيـان علـى الأرستقراطية الزراعية ، أي مجرد ثورة قطاع صغير مـن المجتمع على قطاع آخر، بل ووضع عنوان دراسته كالتالي " الثورة العرابية ثورة أعيان " !!

ولويس عوض طبعا يريد ألا تكون الثورة العرابيـة ولا أي ثورة أو فكرة ضـد الاحـتلال الأجنبـي أو النفـوذ الأجنبي، فبدلا من أن يري الحقائق الكبيرة في الثورة مثـل كونها ثورة شاملة ضمت جميع الفلاحـين _ الأزهـريين و المثقفين و قطاع كبير من الأعيان و بعض كبار المـلاك و الموظفين والتجار بل طلبـة البعثـات، بـل وزعماءهـا الإسلاميين حتى النخاع مثل الأفغاني والنديم وعرابي، نجده يتجاهل ذلك كله ويبلعه ويحصرها في إطار ضيق هو ثورة الأعيان ،مع أن الأعيان بالذات كانت الخيانة فـيهم تشـكل ظاهرة وليست مجرد استثناء على حد قول الـدكتور علـى شلبي الذي سبق إثباته ونعيد إثباته " ولا يعني ذلك كله أن

كل الأعيان قد تخلوا عن الثورة " ومع أن مجلس النـواب الذي هو بالتحديد قيادة الأعيـان وممـثلهم رفـض خلـع الخديوي فيما عدا خمسة أعضاء، ولكن لويس عوض هـو لويس أجاكس عوض دائما، فهو لا يريد الثورة العرابية أن تكون ثورة أمة ضد النفوذ الأجنبي ومستعد أن يتجاهل كـل الحقائق في سبيل ذلك.

دور الموظفين في الثورة

لعب الموظفون دورا هاما في الثـورة ، مثـل كـل الشعب والطوائف ونجد أن العديد من الأطباء _ المهندسين _ المديرين _ الصيادلة _ المدرسين- القضاة قد إنحاز إلى الثورة بل وصدرت ضدهم الأحكام بعد هزيمـة الثـورة _ وقائمة المحكومين موجودة لمن أراد مراجعتها في الرافعي. ونجد أن ٦ من وكلاء الوزارات و ٨٤ من كبار المـوظفين و ٥ من الموظفين المعية " السراي الخـديوي " و٦ مـن القضاة قد وقعوا جميعا على قرار خلع الخديوي ، بل ولعب الموظفون دورا هاما في حشد وتعبئة الجمـاهير لصـالح الثورة وقاموا بإدارة الجهاز الإداري بكفاءة عاليـة رغـم خيانة الوزارة وغياب مجلس النواب وذلـك فـي الفتـرة الواقعة من خيانة الخديوي وإسماعيل باشا راغب رئـيس الوزراء وذهاب هؤلاء إلى معسكر الإنجليز وحتى احـتلال القاهرة ، أي أدار هؤلاء الموظفين الجهاز الإداري للدولـة طوال فترة الحرب وهذه الفترة شـهدت ظهـور المجلـس العرفي و إدارته لكل مرافق الـبلاد اعتمـادا طبعـا علـى

الموظفين الذين انحازوا إلى الثورة وتخلوا عن الخـديوي ورئيس وزرائه.

دور الحرفين في الثورة

قد يبدو للبعض أن دور الحرفين فـي الثـورة كـان ضئيلا _ فقد وقع مثلا ٣ حرفيين فقط علـى قـرار خلـع الخديوي من مجموع ٢٤٧ شخصا يمثلون كافة الطوائـف، كما خلت قوائم المحكوم عليهم من الحرفين. ولكن ذلك في الحقيقة لا يعكس ضآلة دورهم في الثورة، ولكنـه يعكـس حقائق أخرى ربما كانت من أهم أسباب الثورة ذاتها.

والحقيقة أن محمد على كان قد ضـرب الحـرفيين والصناع وحولهم إلى أجراء عنده وتمت تصفية معـاملهم ومصانعهم وحرفهم ونقاباتهم؛ وهي التي لعبت دورا كبيـرا في الثورة ضد الفرنسيين، ثم ضد الاستبداد ما بين ١٧٩٨ _ ١٨١٠ .

وعندما انهارت صناعة محمد على لم يجد هـؤلاء طريقا آخر إلا العودة إلى القرى والعمل كفلاحين حيث لـم يعد للقطاع الخاص الحرفي والصناعي سواء كان كبيـرا أو صغيرا وجود وبالطبع فإن النفوذ الأجنبي الذي سيطر على

مصر ابتداء من ١٨٤٠ استهدف أساسا منع ظهور صناعة وحرف بالمرة . وإذا اضطر إلى شيء منهـا فـي أضـيق الحدود فإن ذلك يكون عن طريق أجانب فقط إذن فلم يكـن هناك معامل ولا مصانع تسمح بظهـور عمـال وحـرفيين صناعيين وكانت هذه أهم أهداف النفوذ الأجنبي فـي منـع ظهور أي نهضة وخصوصا النهضة الصناعية، وقد فكـرت الثورة في ضمن ما فكرت في إنشاء بنك أهلي، والاهتمـام بالعلوم والصناعات في محاولـة لوضـع قواعـد نهضـة صناعية .

وكان هذا الوعي الثوري بالمسألة أحـد أسباب قيام أوروبا بتوكيل بريطانيا بغزو مصر وذبح الثورة.

****

دور التجار في الثورة

وما حدث مع الحرفيين والصناع حـدث أيضـا مـع التجار _ فمحمد على قضي على التجار المصريين بنظـام الاحتكار ولما أنهار نظـام محمـد علـى صـمم النفـوذ الأوروبي الذي سيطر على مصر بدءا من ١٨٤٠ على عدم السماح بظهور تجارة أو صناعة وطنية، وأمسك بكل خيوط التجارة الداخلية والخارجية في يده حتـى ينهـب مصـر ، وحتى يمنع ظهور تراكم رأسمالي يمكـن أن يوجـه إلـى الصناعة، ومع هذا فإن التجار المصريين الذين اخترقوا هذا الحصار الأوروبي كانوا من أكبر المؤيدين للثورة بل ومـن زعمائها وعلى سبيل المثال فإن ٤٣ من التجار قد وقعـوا على قرار المجلس العرفي بعزل الخديوي توفيق والتمسـك بعرابي من مجموع ٢٤٧ شخصا وقعوا على القـرار مـن مختلف الطوائف وفي إطار دعم المجهود الحربي للثـورة نجد أن الكثيرين من التجار قد تبرعوا بالأقمشـة والغـلال والأموال وعلى راس هؤلاء نجد السيد حسن موسي العقاد وموسى ميزار وأمين الشمسي.

وعلى مستوى المشاركة في أعمال الثورة والانتمـاء إلى الخلايا الثورية نجد مثلا أن السيد حسن موسي العقـاد وهو كبير تجار القاهرة، وورث عن أبيه التاجر أيضا السيد موسي العقاد أكثر من ١٠٠ ألف جنيـه ، عـدا الأطيـان والعمارات، نجده كان منذ البداية- وحتى قبل اندلاع الثورة العرابية- أحد تلاميذ الأفغاني، وكان قلبه يضطرم بـالثورة والمعارضة فعارض الخديوي إسماعيل معارضة كبيرة مما أدي إلى صدور حكم بنفيه ٥ سنوات إلى السودان فلما سقط إسماعيل، ومع بداية الثورة عاد السيد حسن موسي العقاد إلى مصر وشارك في الثورة في جميع أطوارها وأحوالهـا من توقيع للعرائض إلى تبرع للمجهود الحربي، إلى التفكير والتخطيط، إلى حشد الجماهير وغيرهـا، وعنـد انهزمـت الثورة تمت محاكمته وقضي عليه بالنفي المؤبد وهو نفس الحكم الذي صدر على عرابي بل الأكثر من هذا كلـه أنـه أظهر تماسكا وصبرا في المحاكمة، بل وظل يفخر بالانتماء للثورة ولم يبرر أو ينكر أي عمل أسند إليه، فهو يعتـرف بأنه هو الذي كتـب الأوراق المضـبوطة والتـي تصـف الخديوي توفيق بالكفر والمروق والخيانة بـرغم أن تلـك

الأوراق لم تكن بخطه، وعندما سأله المحقق عـن ثروتـه الكبيرة أين ذهبت قال أنه أنفقها على الثورة.

أما السيد أمين الشمسي - وهو كبير تجار الزقازيق - فتقول وثائق الثورة: إنه كان من أول الذين انضموا إلى الخلايا الثورية ، وأنه عندما نقلت الفرقة العسـكرية التـي كان يقودها عرابي إلى الشرقية كان السيد أمين الشمسـي ينظم اللقاءات لعرابي مع أهالي الشرقية وأعيانها، ويـنظم عمليات التحريض والدعاية للثورة في محافظة الشرقية.

ليس هذا فحسب بل إن السيد أمين الشمسـي هـو الذي قدم الاقتراح العبقري بمنع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها وقد ناقشنا من قبل مدلول وأهمية مثل هذا الاقتراح وكذلك كان يفكر مع مجموعة من التجار في أنشـاء بنـك أهلي لتمويل صناعة وطنية ، ولـم يكـن عجيبـا أن تـتم محاكمته بعد هزيمة الثورة ويصدر حكـم بتغريمـه ٥٠٠٠ جنيه ووضعه تحت الإقامة الجبريـة والمراقبـة لمـدة ٥ سنوات.

دور الفلاحين في الثورة

كان الفلاحون هم العمود الفقري للثورة وكانوا أكثـر الفئات حماسا وإخلاصا وثورية وتأثيرا في دعم الثورة، وقد كان هذا طبيعيا بل بديهيا فـالمعروف أن الفلاحـين أكثـر الفئات تمسكا بالإسلام وأكثرها حماسا له وأكثرهـا أيضـا استجابة للدعاية الدينية الإسلامية ، والفلاح المسلم عموما والمصري خصوصا لا يتحرك إلا في إطار الإسلام وبشرط الحصول على الفتوى الشرعية لأي عمل كبير أو صـغير، وقد لعب النديم دورا هاما في توعية الفلاحين وتحريضـهم بالوسيلة الوحيدة التي يعرفونها وهي الدعاية الإسلامية كما لعب عدد كبير جدا من علماء الأزهر الصغار والمتوسـطين الذين كانوا من أبناء كل قرية وكل مدينـة ريفيـة والـذين كانوا يعتلون المنابر في عشرات الألوف من المساجد فـي خطب الجمعة أو الدروس الدينية المختلفة أو خطب الأفراح والمآتم ، لعب هؤلاء دورا كبيرا في تعبئة الفلاحين خلـف الثورة وإعطائهم الفتاوى الشرعية لكـل عمـل يمكـن أن يقوموا به، فالثورة على الاستبداد وظلم الخديوي فريضـة شرعية والكفاح ضد الاستعمار أيضا فريضة شرعية بل أن

الغزو الإنجليزي هو حرب صليبية ضد الإسلام ، ليس هـذا فحسب بل إن الوجدان الشعبي يفرز حماسا وثورية بوسائله الخاصة، فقد إعتبر الفلاحون عرابي وليا من أوليـاء الله الصالحين وأنه من السلالة النبوية الشـريفة، وأن هنـاك نصوصا دينية تؤكد انتصار عرابي وعلو شأنه".

كان الفلاحون هم أكثر الفئات مساهمة فـي الثـورة؛ لأنهم كانوا الأكثر حماسا للإسلام، وكانوا الأكثر عنفا فـي ثوريتهم؛ لأنهم الأكثر نقاء في إسلامهم ولم يكن التغريب قد أستطاع أن يصل إليهم أو يفسدهم. وكانوا الأكثر تنظيمـا؛ لأن تنظيمهم موجود دائما ومراكزهم التنظيميـة وقيـادتهم موجودة على هيئة تنظيم دقيق دائما، تنظيم المسجد محوره ومركزه وعلمـاء الـدين وأئمـة المسـاجد هـم القـادة الطبيعيون. وهناك اجتماع أسبوعي جماهيري واحد علـى الأقل في يوم الجمعة من كل أسبوع. وهكـذا كـان حشـد الجماهير الفلاحية سهلا واستجابتهم هائلة.؛ لأن الوصـول إليهم سهل وميسورمن خلال المسجد والعلماء ولأن اللغـة التي يفهمونها هي لغة زعماء الثورة الكبار والمتوسـطين والصغار ألا وهي الإسلام.

****

ومنذ اللحظة الأولي للثورة كانت جماهير الفلاحين خلف الثورة فعقب حادث ١ فبراير ١٨٨١ جاء الفلاحون إلى القاهرة لتأييد عرابي جماعات وأفرادا، وقبل تقديم مطالب الأمة في ٩ سبتمبر ١٨٨١ كان الفلاحون قد وقعوا على توكيل لعرابي بأنه يمثل الأمة ويتحدث باسمها، وجاءوا بأنفسهم إلى ميدان عابدين في مظاهرة شعبية كبيرة لدعم الجيش وكان النديم وراء ذلك ومعه جيش من الأزهريين- القيادات الطبيعية للفلاحين-، وعند االغزو الإنجليزي لمصر دفع الفلاحون آخر مليم في جيبهم من أجل الجيش وآخر حفنة خبز وآخر حزمة حطب وهذا هو ما يملكونه.

ومن كان يملك حمارا أو جاموسة قدمه عن طيب خاطر إلى الجيش، وتطوع مئات الألوف من الفلاحين لصد الغزو الصليبي وهم الذين كانوا دائما يحاولون التهرب من التجنيد بأي وسيلة إلى حد إتلاف بعضهم لأجزاء أو أعضاء في أجسامهم، ولكن القضية هنا واضحة أنه جهاد في سبيل الله لصد الغزو الصليبي الأوروبي ويقول د. على

شلبي في هذا الصدد " أن الفلاح أصبح يقدم نفسه متطوعا بإرادته؛ لأن الحرب بين مصر والإنجليز. من وجهة نظـره حرب دينية مقدسة. [(١٤٢)]

وتشير وثائق الثورة العرابية إلـى مـدي اسـتجابة الفلاحين لدعم الجيش بالنفس والمال فعلى سـبيل المثـال تقول تلك الوثائق " كان عبد ربه يوسف عبده من كفر عبد الخالق بمدرية المنيا يمر على النواحي وينادي هيا نتوجـه لطرف عرابي الذي هو من نسل المبرور. بعثه الله لحمايـة الدين والوطن وسيجعله الله واليا على القطـر المصـري، وعلى الفور قام الفلاحون بالتجهيزات العسكرية من مشتري أسلحة وخيول وخيام وما يلزم من الذخائر صحبة المشايخ بزيادة ألفين وخمسمائة نفر ". [(١٤٣)]

كان الفلاحون يتمتعون بوعي كبيـر وتنظـيم دقيـق محوره المسجد وقادته الأزهريون من أبناء الريف والمـدن الريفية. وكان الفلاحون يعرفون أن الأراضي الزراعية هي حق شرعي لمن يزرعها وفقا للفقـه الإسـلامي وأن تلـك الأرض لهم بمقتضي الإسـلام. وأن الأجانـب والحاشـية الخديوية قد سلبتها منهم، وأن استردادها واجـب شـرعي

فقامت الحركات الفلاحية في إطار الثورة بالاستيلاء على الأراضي، ففي الغربية هاجم الفلاحون من ناحية قلين بقيادة شيخهم الساعي منصور دائرة حيدر باشا، واستولوا على محصولاتها من الغلال، وغيرها، وقدموها لسلطات الثورة [١٤٤] وفي القليوبية هاجم الفلاحون أبعادية محمد بك صدقي واستولوا على المحاصيل والمواشي وأعلنوا أنهم سوف يقدمونها للجهادية. [١٤٥]

وفي مديرية الجيزة قام الفلاحون في سبتمبر ١٨٨٢ بتقسيم أراضي الوسية المملوكة لحيدر باشا بناحية السمحة وقاموا بزراعتها ذرة شامي. [١٤٦] .

وفي أسيوط هاجم الفلاحون في قرية دلجا جفلك الروضة وقاموا بتقسيم الأطيان وزرعوها خضارا. [١٤٧] .

وفي أسيوط أيضا قام الفلاحون بناحية أم القصور بالاستيلاء على أراضي الخواجات شنودة مرقص وولده مشرقي وقاموا بزراعتها لحسابهم. [١٤٨].

ليس هذا فحسب، بل كان الفلاحون بفضل الوعي والفتاوى الشرعية يعرفون أن الثورة موجهة إلى النفوذ الأجنبي فمارسوا العنف الثوري لتحقيق ذلك.

ففي قرية السلامية دقهلية قام الفلاحون بالاستيلاء على الأسلحة التي خبأها أحد التجار اليونانيين في عزبته. (١٤٩)

وفي بلبيس هاجم الفلاحون محلات لثلاثة أجانب واستولوا على ما بها من سلاح بلغ ١٧ بندقية، و ٣٧٣ خرطوشة وسيف. (١٥٠).

وفي طنطا أمسك الفلاحون بالنصارى واليهود والاروام وهجموا عليهم وكسروا دكاكينهم وازداد عدد القتلى لدرجة امتلاء ٦ عربات كارو بهم (١٥١)

وفي سمنود اعتدي الفلاحون على أجانب وقتلوا بعضا منهم (١٥٢)، وفي مديرية البحيرة هاجم الفلاحون في قرية منية سلامة ثلاث من المرابين اليهود وهددوهم بالقتل ما لم يستردوا منهم سندات الديون التي سبق أن حررها لهم الفلاحون (١٥٣).

وفي قسم منفلوط قام بعض الفلاحين بالاستيلاء على أطيان ومنازل كبار الملاك الأجانب وقاموا بتقسيمها فيما بينهم (١٥٤).

دور العربان والبدو في الثورة

وككل فئات المجتمع في مصر شارك البدو والعربـان في الثورة يقول الدكتور على شلبي " شاركت قبائل البـدو إلى جانب جيش الثورة فـي المعـارك التـي دارت بـين المصرين والإنجليز ولم يشذ عن ذلك إلا عربـان الهنـادي بالشرقية الذين سقطوا في الخيانة بواسطة شيخهم سـعود الطحاوي الذي أغراه سلطان باشا "

ويضيف الدكتور على شلبي " أنه قد تطـوع عـرب الجوابيص بكوم حمادة بمديرية البحيرة وعربان الكريمـات بالواسطي وعربان الحرابي بالفيوم وعربان قبيلة النجمـة بالجيزة وعربان فوايد بحري وعربان فوايد قبلي وعربـان الرماح " (١٥٥).

الثورة العرابية ثورة إسلامية شاملة

إسلامية الثورة العرابية هي من البديهيات، لكننا في زمن يحاول فيه البعض إنكار البديهيات أو الالتفاف حولها.

الثورة العرابية كانت ثورة إسلامية شاملة على النفوذ الأجنبي وعلى الاستبداد ومحاولة إسلامية لوضـع قواعـد نهضة حضارية إسلامية في مصر وبالذات نهضـة علميـة وصناعية كانت الثورة العرابية إسلامية علـى مسـتوى زعمائها وعلى مستوى وسائلها وعلى مستوى جماهيرها.

فعلى مستوى زعمائها الأفغاني، النديم، عرابي، على فهمي، عبد العال حلمي، محمود سامي البارودي، محمـود فهمي، يعقوب سامي، طلبه عصمت، فالأفغـاني والنـديم كانـا زعيمـين إسـلاميين فـي منهجهمـا ووسـائلهما وجماهيرهما، وهذا أمر أعترف به الجميع حتـى رفعـت السعيد نفسه [١٥٦] .

بل الأكثر أن النديم متهم بالهوس الديني عند بلنـت وصابونجي ورفعت السعيد وصلاح عيسى [١٥٧].

وعرابي وزملاؤه تعلموا في الكتاتيب ثم قضوا عددا من السنين في الأزهر، - ٤ سنوات فـي حالـة عرابـي-

واشتهر عنهم التمسك بـالأخلاق ولنأخـذ عرابـي كمثـال باعتباره أبرزهم ، خرج عرابي من بيئة إسلامية خالصـة فعلى واجهة المنزل الريفي البسيط في قرية هريـه زرنـه بالشرقية والذي تربي فيه عرابي صغيرا تجد كتابة هـي " الله - محمد " _على _ رب يسر ولا تعسـر " [١٥٨] وفـي كتاب القرية حفظ عرابي القرآن والكتابة والحساب وشـيء من الفقه ثم ذهب إلى الأزهر حيث قضي أربعـة سـنوات كاملة يتلقي العلوم الإسلامية ثم يعود إلى القريـة فيناديـه أهالي القرية " الشيخ أحمد" [١٥٩] .

ثم تبدأ رحلته في الجيش إلى أن يصبح من زعمـاء الثورة. وعرابي في سلوكه الشخصي أزهري متشدد كمـا يعترف بذلك رفعت السعيد وأنيس منصور [١٥٩] إلى درجة الجمود من وجهة نظرهما طبعا.

فهو يرفض أن تتعلم أبنته اللغة الإنجليزية ففي أحدي رسائله: أن تعلمها لغة قوم لا يعود علينا وعليها منهـا إلا الضرر والفضيحة والعار فيقتضي تفهيمها بذلك في حضور أخواتها " [١٦١] وفي المنفي يـدعو أهـل سـيلان مـن المسلمين إلى أنشاء مدرسة إسلامية ويمر على البيوت بيتا

بيتا يجمع التبرعات " [١٦٢] بل وعرابي عندما يتفق مع زملائه على شيء يقسم الجميع على المصحف والسيف " [١٦٦].

وبلنت يقول " إن أفكار عرابي مبنية على أساس معرفة التاريخ ومن اتجاه أصيل موروث من النزعات الإسلامية المتحررة " [١٦٧].

وعندما يسأل بلنت عرابي عن أهدافه يقول أنه نفس موقف المسلمين الذين قالوا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يا أمير المؤمنين أنك تنهج طريق العدل والخير وذلك يثلج قلوبنا لكننا لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف " [١٦٨].

وفي ٢ يوليو سنة ١٨٨٢ يقول عرابي في رسالة لبلنت: لقد أمرنا نبينا الكريم وقرآننا العزيز ألا نبدأ الحرب ولا نسعى إليها، ولكن تعاليم ديننا تحضنا على مقاومة أي اعتداء على وطننا وعلى أن نستشهد في سبيله ، إن أي اعتداء علينا سوف يوقع بكم أضرارا جسيمه؛ لأن رصاصة واحدة ضد مصر سوف تعني حربا دينية شاملة تمتد من دمشق حتى الهند، إن المسلمين جميعا يرون أن مصر هي

مفتاح مكة والمدينة وأن سيولا من الدماء سوف تنهمر في كل أسيا وأفريقيا دفاعا عنها ولتتأكد انجلترا أننا مصممون على القتال.. على الشهادة في سبيل الله فلقد حضنا نبينـا الكريم على الاستشهاد " (١٦٩) .

ويقول صلاح عيسى:" والحقيقـة أن عرابـي كـان متدينا إلى الدرجة التي لا تخطئها العين وربما بالغ في ذلك بعض الشيء وكان يحيط نفسه برجال الـدين؛ لأنـه كـان مسلما ورعا، وكانت الأوقات التي يجب عليه أن يقضيها في تنظيم وسائل الدفاع يصرفها في الدعاء والصلوات ويضيف صلاح عيسى بعد أن يضع نقطة والواقع أن تدينـه كانـت تشوبه بعض المعتقدات ليست من الدين في شيء منها مثلا اهتمامه الزائد بالأدعية " (١٧٠). وهنا إسلامية عرابي كبيرة وواضحة لا يستطيع صلاح عيسى أن يبلعها إذا فلابـد أن يشوهها ويشوه معها الدين ويمارس فذلكته المعهودة.

صلاح عيسى يريد أن يقول إن عرابي بسبب تدينـه لم يأخذ بالوسائل وقضي أوقات التدبير في الدعاء والصلاة، وطبعا هذا كذب وافتراء وجهل _ فهو كذب؛ لأن عرابي كان يأخذ بالوسائل ،فالذي يستطيع تفجير أو قيادة ثـورة تظـل

منتصرة على الخديوي والنفوذ الأجنبي وتضـطر بريطانيـا للتدخل العسكري لذبحها وإنفاق ٣ مليون جنيه إسـترليني و٥٦ ألف جندي ومدافع وأساطيل ليس بالطبع رجل لا يأخذ بالأسباب، بل والمعارك التي خاضها العرابيون تؤكـد ذلـك وكانت هزيمتهم لأسباب كثيرة تتعلق بظـروف المسـلمين عموما والحضارة الإسلامية في هذا الوقت ولم يكن لعرابي ذنب فيها وتتعلق أيضا بعدم تكافؤ القوى العسـكرية بـين العرابيين وإنجلترا المدعومة أوروبيا ولم يكن أيضا لعرابي ذنب في هذا، وتتعلق أخيرا بالخيانة وغيرها من الأسـباب التي هي من باب الأخطاء، وليست من باب التواكـل مـثلا وعدم اتخاذ وسائل الدفاع كما يريد صلاح عيسى أن يقول هذا عن الكذب.

أما عن الجهل فهو عدم إدراك صـلاح عيسـى أن الدعاء والصلاة لا يتعارضان مع الأخذ بالأسباب، بل ذلـك يؤكد الأخذ بالأسباب؛ لأن الروح المعنوية حتـى بالحسـاب المادي الملحد أمر مطلوب ومرغوب وهل هناك أفضل من الروح المعنوية عن طريق الصلاة مـن جنـود وقيـادات إسلامية ولأن الصلاة والدعاء هنا ضروري للمسلم؛ لأنـه

يعرف أن الكون بيد الله وأن النصر من عند الله خاصة وأن القوى المعادية متفوقة .

ويا عيسي: ألا تعرف أن المسلمين الأوائل انتصروا على إمبراطوريتين في زمن قياسي، وكانوا أيضا يصـلون ويدعون في كل الأحوال؟

أتجهل أم تتجاهـل أن المسـلم يعـرف أن الصـلاة والدعاء ليستا بديلا عن العمل والتدبير،وأنهما يؤكدانه؟!!

أتجهل أم تتجاهـل أن الإسـلام يـدعو إلـى الأخـذ بالأسباب؟

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة

أو كنت لا تدري فالمصيبة أعظم

فعرابي كان منحازا إلى الفقراء ويميـل إلـى العـدل لإسلاميته،وهذا أمر طبيعي ومفهوم لكـن صـلاح عيسـى يفسره بقوله: إن هذا كان نوعا من الشعور الديني الجارف الذي يدعو إلى الرحمة والمودة والتصدق على الفقراء وأن هذا كان من الرومانتيكية وافتقاد الوعي!! (١٧١).

ما كل تلك السفسطة؟!!

هل انحياز الثورة الإسلامية العرابيـة إلـى الفقـراء مجرد رومانتيكية وافتقاد للوعي ومجرد دعوة إلى الرحمـة والمودة والتصدق ؟!

إذا كنت ترى ذلك فأنت لا تعرف شيئا عن الإسلام ولا عن الثورة العرابية !!

ألا تعرف – مثلا- : أن الثـورة العرابيـة حرضـت الفلاحين على الاستيلاء على الأراضي، وقالت لهـم هـذه أرضكم، بل وصدرت الفتاوى الشرعية من العلماء وخطباء المساجد بذلك؟

ألم يقم الفلاحون الذين علمتهم الثـورة الـوعي أو تعلمت منهم الثورة الوعي، لا فرق ، أ لم يقوموا بالاعتداء على الأجانب والمرابين وانتزاع ممتلكاتهم في إطار العنـف الثوري ضد النفوذ الأجنبي وفي إطار الاستفادة بـذلك فـي المجهود الحربي؟

ألم يكن من برنامج الثورة توزيع الأراضي المصادرة من الأجانب والخديوي والحاشية والخونة على الفلاحين؟

ألم يتحدث النديم والأفغاني وغيرهمـا عـن الـذين يأكلون ويسرقون عرق الفلاح؟ هل هذا كلـه لـه علاقـة

بالرحمة والصدقة؟ أم تفتري على الحقائق وتلويها لغـرض في فكرك وقلبك؟

ألم تفكر الثورة في إنشاء بنك أهلي؟ ألم تحاول منع تصدير الغلال حتى لا ترتفع أسعارها على الفقراء؟ ناهيك عن دلالة ذلك فيما يتصل باستقلال السوق وقطع خيوط التبعية.

أما رفعت السعيد فقد كان أكثر احتراما لنفسه ، فهـو يعترف بأن" عرابي لم يكن مناضلا مصريا فحسب، لكنه كان أملا لكل البلاد الإسلاميةو كـان رمـزا لنضـالها الصـامد الشجاع " بل ويضيف " كانت الجماهير المسلمة فـي كـل مكان.. سلاحا لعرابي في معركته " (١٧٢).

نعم كان عرابي إسلاميا أيضا في جماهيره، فالجماهير التي كانت تدرك عن وعي أنها ثورة إسلامية ضـد النفـوذ الأجنبي والاستبداد ولأنها ثورة إسلامية فهي منحازة إلـى الفقراء، وعن وعي أيضا كانت الجماهير تدعو لعرابي على المنابر " الله ينصر عرابي بجيش مـن المـؤمنين " وعـن وعي أيضا كانت الجماهير تردد أن عرابي هو سليل بيـت النبوة عن طريق سيدنا الحسين وأنه مؤيد من الله تعـالى، وأن هناك نصوص دينية بذلك. وطبعا هذه الأشياء لا تروق

للسادة العلمانيين وسيقولون أن هذا جهل وخرافات ووقوع في الغيبية وغيرها من الترهات، ولو أن هذه الجماهير لـم تقاتل أو لم تتطوع للقتال أو لم تدفع آخر رغيـف عنـدها لدعم الجيش لكان هذا جائزا، هـذه واحـدة ، والثانيـة أن هؤلاء أنفسهم يشيدون بجـان دارك مـثلا ويكتبـون فـي خرافاتها المسرحيات والقصائد !! هل لمجرد أنها أوروبيـة أو فرنسية ولن نقول مسيحية ؟!.

إذن فجماهير عرابي كانت إسلامية في مصـر وفـي خارج مصر فمثلا أهالي سوريا يتظاهرون تأييدا لعرابـي ويرسل أهل الشام السلاح والرجـال والتبرعـات لعرابـي، والمهدي يفكر في أسر جوردون ليبادله بعرابي ، بل وفي الهند يثور المسلمون على الإنجليز تأييدا لعرابي مما جعـل الإنجليز يحددون إقامة الأفغاني بها.

وفي سيلان " ما أن نزل عرابي حتى هتفت الجماهير وهجمت عليه يقبلون قدميه ويديه " (١٧٣) ويحدث ذلك فـي تركيا وتونس والمغرب وكل بـلاد الإسـلام. إذن فعرابـي إسلامي في منهجه وفي سلوكه وفي جماهيره وكذلك كـان الأفغاني والنديم والبارودي وكل زعماء الثورة.

أما عن وسائل الثورة فقد اتخذت الثورة من المسجد مركزا للتنظيم والتعبئة والدعاية وكان الأزهريـون علمـاء وطلابا هم جهاز الدعاية الثوري وكانـت صـحافة الثـورة وخطب الزعماء وكل أقوالهم تستند إلى الآيـات القرآنيـة والأحاديث الشريفة بل أن الثورة كانت تحصل دائمـا علـى الفتوى الشرعية في أي حركة تقوم بهـا ولعـل الفتـوى الشرعية بخلع الخديوي توفيق أشهر هذه الفتـاوى. وفـي الحقيقة فإن هناك إجماعا بين جميع البـاحثين والدارسـين والمؤرخين على أن الثورة اعتمدت فـي دعايتهـا علـى الإسلام وحده إلا أن بعض هؤلاء لأسباب لا نعرفهـا لعلـه الخجل من الإسلام والعياذ بالله قال إن الثورة اعتمدت على الخطاب الديني وحده" وقال آخرون إنهـا اعتمـدت علـى الدعاية الدينية !!

المهم أنه لا خلاف على تلك المسألة فحتى صـلاح عيسى يقول " إن أحد أخطاء الثورة كـان اعتمادهـا فـي التجنيد السياسي على وجه واحد هو الوجه الديني" (١٧٣).

ولأن الثورة كانت إسلامية فإنها أدركـت أن الغـزو البريطاني هو حرب صليبية جديدة، فأعلنت الثـورة ذلـك

للجماهير، ولم تكذب عليها أو تخفي عنها الحقـائق رغـم إدراكها أنها مستهدفه للاتهام بالتعصب الـديني. ولكنهـا كانت ثورة شجاعة وغير متعصبة فأعلنت الحقائق كما هى.

ولأن الثورة كانت إسـلامية فقـد تعرضـت للحقـد الصليبي الأوروبي، وتناست أوربا كل تناقضاتها، وتركـت لبريطانيا التهام الكعكة كلهـا فـي مقابـل ذبـح الثـورة الإسلامية، بل إن فرنسا التي كان لها من النفوذ في مصـر أكثر مما لانجلترا فضلت أن تضحي بهذا النفوذ في سـبيل ذبح الثورة الإسلامية.

وكانت الثورة العرابية أيضا إسلامية فـي برامجهـا وأهدافها فكان على رأس أهدافها الـتخلص مـن النفـوذ الأجنبي وبناء قاعدة لنهضة إسلامية حضارية شامله تكون محورا لعالم إسلامي أكثر قوة أو على الأقل تكـون عصـا غليظة في عجلة المشروع الاستعماري في شمال أفريقيـا، وكان من أهدافها أيضا القضاء على الاستبداد، وبناء نظـام ثوري مستمد من الإسلام؛ ولأنها كانت إسلامية فلم تكتـف بمجرد المطالبة ببرلمان بل ببرلمان يعكـس كـل الفئـات ويمثلها ولا يقتصر على الوجهاء والأعيـان.ولأن الثـورة

كانت إسلامية فقد اهتمت باستقلال السوق وفكرت في إنشاء بنك أهلي ووضع قواعد نهضة صناعية وعلميـة ولأنهـا كانت ثورة إسلامية فلم تكـن متعصـبة ولا طائفيـة بـل استطاعت أن تحشد خلفها " وخاصة الأفغاني " كثيـرا مـن غير المسلمين على قاعدة الولاء والانتماء للإسلام وحضارة ووطن.

ولأنها كانت ثورة إسلامية فقد انحازت إلى الفقـراء والمستضعفين ودافعت عنهم، ولأنها كانت ثـورة إسـلامية فقد أدركت أن الطريق الوحيد للتعبير هـو طريـق الثـورة وليس الإصلاح من داخل النظام، وأن الفقراء هم جماهيرها الحقيقيون والطبيعيون.

ولأنها كانت ثـورة إسـلامية فقـد كانـت شـاملة واستطاعت أن تحشد معها كل فئات المجتمع.... الأزهـر، الفلاحين، معظم المثقفين، معظم المـوظفين، الحـرفيين، أغلب البدو والعربان، قطاع كبير من الأعيان، بـل بعـض كبار الملاك وبعض أمراء البيت الخديوي نفسه.

ولم يكن غير الإسلام قادرا على حشد كل تلك القـوي والفئات الاجتماعية في صعيد واحـد، وإذا راجعنـا قـرار

المجلس العرفي بخلع الخديوي والتمسك بعرابي باعتبـاره يمثل الفئات التي وقفت مع الثورة حتى في أحلك اللحظـات نجد أن الموقعين كانوا ٣ من أفراد البيت الخديوي. ٤٣ من علماء الدين، ٦ من وكـلاء الـوزارات، ٤٨ مـن كبـار الموظفين، ٥ من موظفي المعية " السراي الخديوية " و١٧ من كبار العسكريين، ٣٦ من الأعيان، ٦ من القضـاة، ٤٣ من التجار، ٥٢ من العمد، ٣ من المهنيين، ١١ من علماء الإسلام من غير ذوي الوظائف الرسمية.

على أن الملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا أن الحماس للثورة والمساهمة فيها ارتبط بالحمـاس للإسـلام. فـأكثر الفئات مشاركة وحماسا للثورة كانوا من الفلاحين وهم أكثر الفئات حماسا للإسلام أمس واليوم وغدا إن شاء الله يليهم الأزهر والمثقفين وهكذا. وأن أكثر الفئات عـداء الثـورة كانوا إما مرتبطين بالسراي وإما مغتربين ثقافيا وإما خونة.

إذا فإسلامية الثورة العرابية لا شبهة فيها ومع ذلـك نجد بعض ذوي النفوذ المريضة يحاول أن يفسـر الثـورة على أساس قومي أو طبقي.

فهناك من يقول: إن الثورة كانت ثورة مصرين علـى جراكسة وهؤلاء طبعا يغفلون الكثير مـن الحقـائق، ففـي معسكر الثورة، بل في أكبر قياداتها نجـد جراكسـة مثـل محمود سامي البارودي وكل من إبراهيم باشا والأمير كامل باشا والأمير أحمد باشا بل ومن الذين تبرعـوا للمجهـود الحربي للثورة كثير من الأمراء والجراكسة، وفي معسـكر أعداء الثورة والخونة نجد رياض باشا " مصري من عائلة الوزان " وسلطان باشا. على مبارك باشا، على خنفس، عبد الرحمن بك حسن، أحمد بك السيوفي. مسـعود الطحـاوي، محمد البقلي وغيرهم. وكل هؤلاء مصـريون وقـد لعبـوا أدوارا في غاية الخطورة ضد الثـورة فـي كـل مراحلهـا فرياض باشا مثلا كان من أعدي أعداء الثـورة بـل وهـو المصري كان وراء تجنيد عـدد مـن الضـباط الجراكسـة لاغتيال قادة الثورة، وسلطان باشا دوره معروف في حشـد كل القوى والفئات التي انحازت إلى الخديوي. بل وتجنيـد الخونة من ضباط الجيش الذين تسببوا في هزيمة الثورة.

ليس هذا فحسب بل إن الأب الروحي للثورة وواضع بذورها هو جمال الدين الأفغاني، وواضح أنه لم يكن مصريا

بل والأكثر من ذلك أن عرابي نفسه كان من أصل عراقـي وراجع الرافعي ص ٨٢ ـ ٨٦ من كتاب الثورة العرابيـة والاحتلال الإنجليزي. دار المعارف ١٩٨٣ الطبعة الرابعـة حيث يقول: " إن عرابي من عائلة بدوية عراقية " بل وكان متزوجا من شركسية هي كريمة مرضعة الأمير إلهامي باشا أخت حرم الخديوي توفيق من الرضاعة ".

ومن الظلم للثورة أن نحصرها فـي هـذه الجزئيـة الضيقة فلا زعماؤها ولا فكرها ولا برامجها ولا سلوكها ولا القوى الاجتماعية التي ساهمت فيها يمكن أن تـؤدي إلـى شيء إلا أن الثورة كانت إسلامية، وإذا كان هنـاك مطلـب جزئي للثورة بإنصاف الضـباط المصـريين فهـذا يؤكـد إسلامية الثورة؛ لأن رفض الظلم فريضة إسلامية حتى ولو كان الظالمون مسلمين ، وعموما التفرقة في المعاملة بـين الضباط كانت ترجع إلى مدي ارتباطهم بالخديوي وولائهـم له ليس أكثر.

ويحاول البعض الآخر تفسير الثـورة علـى أسـاس طبقي، وبادئ ذي بدء فالإسلام لا يرفض الثورة الطبقية بل هو يحرض عليها ويجعلها فريضة على المستضعفين ضـد

المستكبرين، أي إذا كان هناك ظلم طبقي فالإسلام يفرض ثورة الطبقات المظلومة ضد الطبقات أو الطبقة الظالمة، ولكن هذا شيء وتجاهل الحقائق شيء آخر فالملاحظ أن كل الفئات والطبقات شاركت في الثورة: الفلاحون، المثقفون، الأزهريون، العلماء، الموظفون، خلايا البعثات، بعض الأعيان، البدو، والعربان، التجار، المهنيين، بل وبعض كبار الملاك مثل البارودي وبعض أمراء البيت الخديوي أيضا وكانت درجة المشاركة ترتبط بالولاء والحماس للإسلام وفي الحقيقة فإنه ليست الثورة العرابية وحدها هي الثورة الإسلامية فكل الثورات والانتفاضات التي ظهرت في المنطقة عموما وفي مصر خصوصا كانت إسلامية؛ لأن الإسلام هو الأيدلوجية الوحيدة القادر على تثوير الجماهير وحشدها وتحقيق الثورة. ولأن طبيعة الظروف والتحديات التي مرت بها المنطقة كانت منذ فترة طويلة جدا ومازالت تحتم هذا الطرح، وأي قراءة موضوعية لتلك الظروف والتحديات تؤكد أنها تأتي في إطار الصراع بين الحضارة الإسلامية بما تمثله من توحيد وحق وعدل وحرية وإعلاء

لكرامة الإنسان وبما تمثله الحضارة الأوروبية الإغريقيـة أساسا من وثنية وظلم وقهر وإهدار كرامة الإنسان.

ولعله من الطريف أن نترك رفعـت السـعيد بنفسـه يعترف بهذا في كتابه " الأساس الاجتماعي للثورة العرابية" _ القاهرة ١٩٦٦، مكتبة مدبولي ص ٩٣) حيث يقـول " والحقيقة أن الإسلام يمثل في مصر بالذات شيئًا بالغ الأثـر في حياة الجماهير وأن نابليون لم يكن ساذجا عندما تمسح بالإسلام، فهو يعلم أن الإسلام هو الحقيقة الكبرى في حياة المصريين " وينقل رفعت السعيد عددا من الآراء التي تؤكد ما ذهب إليه مثل قول إدوارد ديسـي " إن الإيمـان بـالله وبرسوله محمد يمثل مكانا هاما وغير عـادي فـي حيـاة المصري، مكان هام جدا بحيث أن تجاهله يعتبر تجاهلا لأحد العناصر الحاسمة في المسألة المصرية. وأنه ما أن يشـعر الفلاح المصري أن الإسلام مهدد في أي مكان مـن الأرض حتى يستفز للدفاع عنه "

ثم يعود رفت السعيد ليقول (في ص ١٠٠) من نفس المرجع المذكور " والحقيقة أن المسلم لم يكن يشعر بالغربة في أي مكان يحل فيه من دار الإسلام، وقد اعتاد المسلمون

على التنقل بحرية عبر المنطقة كلها بحيث أنك تجد شخصا في الإسكندرية وله أخ في بغداد أو فارس. ويضيف رفعـت السعيد وعبر المنطقة كلها كانت التيارات تختلط وتمتـزج بسرعة وقوة جنود الإسلام والولاة ورسل البريد والشعراء والرحالة يجيئون كل مكان مؤكدين وحدة الرابطة الإسلامية وأن ذلك كله ينعكس على مصر فيتخذ أكثر الصراع طابعـا دينيا. ويتأكد ذلك الطابع بقيادة مشايخ الأزهر له.

هوامش

(١) على مبارك الخطط الجديدة لمصر القـاهرة ومـدنها. مطبعة بولاق ١٣٠٥

(٢) محمد رشيد رضا. تاريخ الأستاذ الإمام.

(٣) عباس العقاد. محمد عبده. سلسلة أعلام العرب.

(٤) نقلا عن الرافعي. عصر إسماعيل. ج٢ ص١٤٨. طبعة دار المعارف ١٩٨٢.

(٥) رفعت السعيد. الأساس الاجتماعي للثـورة العرابيـة. ص٨١. مكتبة مدبولي سنة ١٩٦٦.

(٦) رفاعة الطهطاوي. مناهج الألباب المصرية.

(٧) رفعت السعيد. مرجع سابق. ص٨٨

(٨). (٩). (١٠). (١١) الرافعي. – مرجع سابق ص١٤: ١٤١.

(١٢) ديلفرد بلنت. التاريخ السـري للاحـتلال الإنجليـزي لمصر.

(١٣) د. الحديدي. عبد الله النديم. سلسلة أعلام العرب.

(١٤) التبكيت والتنكيت ١٥. ٨. ١٨٨١.

(٢٢) روزنشتين. تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده. ترجمـة على شكري الطبعة الأولي ١٩٣٧.

(٢٣) د. عبد المنعم الدسوقي. مائـة عـام علـى الثـورة العرابية. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.

(٢٤) الرافعي. الثـورة العرابيـة والاحـتلال الإنجليـزي. ص١٣٤. طبعة دار المعارف.

(٢٥) الرافعي. المصدر السابق ص١٣٦.

(٢٦) الرافعي. المصدر السابق ص١٣٥.

(٢٧) الرافعي. المصدر السابق ص١٦٤.

(٢٨) الرافعي. المرجع سابق ص١٥٣.

(٢٩) الرافعي. المرجع سابق ص١٥٣.

(٣٠) رسالة المسيو سنكفكس إلى وزير خارجية فرنسا في ١٥ نوفمبر ١٩٨١. الكتاب الاصفر١٨٨١. ١٨٨٢. وثيقة رقم (١).

(٣١) الرافعي. مرجع سابق ص١٨١.

(٣٢) الرافعي. مرجع سابق ص٢. ٥.

(٣٣) الوقائع المصرية ١٥ فبرأير ١٨٨٢.

(٣٤) الكتاب الاصفر سنة ١٨٨٢ وثيقة ٦٢. ٦٣.

(٣٥) الرافعي. مرجع سابق ص٢٤٩.
(٣٦) الرافعي. مرجع سابق ص٢٤٩.
(٣٧) بلنت. مرجع سابق. ص٢٦٦.
(٣٨) كرومر. الثورة العرابية ص٢. ٤.
(٣٩) صلاح عيسى. الثورة العرابية. دار المستقبل العربى. القاهرة ١٩٨٢ ص٩٤.
(٤.) أمين عفيفي. تاريخ مصر الاقتصادي والمالي في العصر الحديث. القاهرة ١٩٥٣.
(٤١) د. حسن حنفي. الدين والثورة في الثورة العرابية. دار الموقف العربي ١٩٨١ ص٤٥.
(٤٢) د. على شلبى. دور القوى الاجتماعية في الثورة العرابية. مائة عام على الثورة العرابية. الأهرام. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. ص٣٨.
(٤٣) د. على شلبى. نفس المرجع ص٣٨.
(٤٤). (٤٥). (٤٦). (٤٧). (٤٨). (٤٩). روزنشتين. مرجع سابق ص١. ٦.
(٥٠) احمد عرابي. مذكرات. دار الهلال ١٩٥٣.
(٥١) احمد عرابي. مرجع سابق.

(٥٢) كرومر. مرجع سابق.

(٥٣) الرافعي. مرجع سابق.

(٥٤) صلاح عيسى. مرجع سابق ص٤١١.

(٥٥) جون نينيه. عرابي باشا ص١٧٥.

(٥٦) جون نينيه. نفس المصدر.

(٥٧) من مذكرات الشيخ محمد عبده ص٢٥. تاريخ الاستاذ الامام لمحمد رشيد رضا.

(٥٨) مذكرات عرابي ص٣١٥.

(٥٩) محمود فهمي باشا. البحر الزاخر ج٢ ص٢٢. .

(٦٠) محمد صبيح. نقلا عن رفعت السيد. مرجع سابق.

(٦١) نفس المرجع.

(٦٢) نفس المرجع.

(٦٣) الرافعي. مرجع سابق ص٣٦٤.

(٦٤) الرافعي. مرجع سابق ص٣٦٥.

(٦٥) الرافعي. مرجع سابق ص٣٧٣.

(٦٦) الكتاب الأزرق ١٨٨٢ مجموعة ١٨ وثيقة رقم ١٣٢.

(٦٧) الكتاب الأصفر ١٨٨٢ وثيقة رقم ٦٤.

(٦٨) الرافعي. مرجع سابق ص٣٧٥.

(٦٩) جون نينيه. مرجع سابق. ص١. ٥.

(٧٠) بلنت. مرجع سابق ص٣. . . ٣٥٢.

(٧١) عرابي. مرجع سابق ص٣٩٧.

(٧٢) نينيه. مرجع سابق.

(٧٣) عرابي. مرجع سابق

(٧٤) بلنت. مرجع سابق. ص٣. ٢.

(٧٥) محمد عبده. نقلا عن محمود الخفيف. عرابي المفتري عليه ص٣٦٦.

(٧٦) نينيه. مرجع سابق ص٢١٦.

(٧٧) عرابي. مذكرات مرجع سابق.

(٧٨) عرابي. مذكرات مرجع سابق.

(٧٩) الرافعي. مرجع سابق ص٤٤٤.

(٨٠) مذكرات عرابي. مرجع سابق.

(٨١) مذكرات عرابي. مرجع سابق.

(٨٢) نقلا عن رفعت السعيد. مصدر سابق ص٢١١.

(٨٣) الرافعي. مرجع سابق ص٤. ١.

(٨٤) الرافعي. مرجع سابق ص٤. ٢.

(٨٥) مذكرات عرابي. مرجع سابق.
(٨٦) الرافعي. مرجع سابق ص٤. . .
(٨٧) محاكمـة العـرابيين. طبعـة جريـدة المحروسـة بالإسكندرية ١٨٨٤.
(٨٨) نفس المرجع.
(٨٩) نفس المرجع.
(٩٠) على الحديدي. خطيـب الوطنيـة عبـد الله النـديم. القاهرة. ١٩٦٢.
(٩١) عرابي. مذكرات. ص٢٢٩.
(٩٢) الرافعي. مرجع سابق. ص١١٩.
(٩٣) سليم نقاش. مصر للمصريين ج٤ ص٩. .
(٩٤) جون نينيه مرجع سابق.
(٩٥) محمد رشـيد رضـا. تـاريخ الأسـتاذ الإمـام ج١ ص٢٤٨.
(٩٦) الرافعي. مرجع سابق ص٣٣٧. ٣٣٨.
(٩٧) صلاح عيسى. مرجع سابق ص٧٧.
(٩٨) الرافعي. مرجع سابق ص٤٧. ٤٨. ٤٩.
(٩٩) الرافعي. ص٢٢٥ إلى ٢٤٤. عصر إسماعيل. ج٢.

(١٠٠) دافيد؛ لاندز. بنوك وباشاوات ص٨. .

(١٠٢) ١) دافيد؛ لاندز. بنوك وباشاوات.

(١٠٢) دافيد؛ لاندز. مرجع سابق.

(١٠٣) دافيد؛ لاندز. مرجع سابق ص٨. .

(١٠٤) محفوظات وزارة الداخلية. خطاب عمدة الإبراهيمية إلى مديرية الشرقية ديسمبر ١٨٨. .

(١٠٥) بلنت. مرجع سابق.

(١٠٦) د. على شلبى. مائة عـام علـى الثـورة. مركـز دراسات الأهرام ص١٣٧. ١٣٨.

(١٠٧) عرابي. مذكرات. مرجع سابق.

(١٠٨) د. على شلبى. مرجع سابق ص١٣٨.

(١٠٩) الرافعي. مرجع سابق. ص٤٢٤ وما بعدها.

(١١٠) صلاح عيسى. مرجع سابق ص١٣٧.

(١١١) صلاح عيسى. مرجع سابق ص١٣٧.

(١١٢) رفعت السعيد. المؤلفات الكاملة. مرجـع سـابق. ص٢١ المجلد الأول.

(١١٣) رفعت السعيد. المؤلفات الكاملة. مرجـع سـابق. ص٥٣ المجلد الأول.

(١١٤) لويس عوض تاريخ الفكر المصري الحـديث مـن عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ ج ٢ ص ٢١٩.

(١١٥) أحمد عبد الرحيم مصطفي. تطور الفكر السياسـي في مصر الحديثة —القاهرة -البحوث والدراسات العربيـة ١٩٧٣ ص ٣١.

(١١٦) نفس المصدر.

(١١٧) عبد المنعم إبراهيم الدسـوقي _ عبـد الله النـديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية _ القـاهرة _ دار الكتاب الجامعي ١٩٨. ص ٤. ٨

(١١٨) نفس الرجع.

(١١٩) التنكيت والتبكيت _ العدد الأول ٦ يونيو ١٨٨١.

(١٢.) د. لطيفة سالم _ مائة عام على الثورة العرابيـة – _. مرجع سابق

(١٢١) التنكيت والتبكيـ ـت.

(١٢٢) التنكيت والتبكيت عدد ١٧ ٩ أكتوبر ١٨٨١.

(١٢٣) لطيفة سالم مرجع سابق ص ٢٧٩.

(١٢٤) التنكيت والتبكيت عدد ٦ في ١٧ يوليو ١٨٨١.

(١٢٥) الطائف. العددان ٣. ٧. أغسطس ١٨٨٢.

(١٢٦) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٣١.
(١٢٧) محافظ الثورة العرابيـة _ محفظـة (٧) دوسـية (٣٨).
(١٢٨) وثائق الثورة العرابية محفظة رقم ١٤ ملف ٢٩٧.
(١٢٩) على شلبي. مائة عام على الثورة العرابية مرجـع سابق ص ١٤١.
(١٣.) الرافعي _ مرجع سابق ص ٤٧١.
(١٣١) الرافعي. مرجع سابق ص ٤٦٨.
(١٣٢) محمد رشيد رضا _ تاريخ الاستاذ الامـام _ ج ١ ص ١٤٧.
(١٣٣) تاريخ الاستاذ الامام ج ١ ص ١٥٢.
(١٣٤) الرافعي مرجع سابق ص ٤٦٨.
(١٣٥) الرافعي مرجع سابق ص ٤٧. .
(١٣٦) مذكرات عرابي مرجع سابق.
(١٣٧) وثائق الثورة العرابية مرجع سابق.
(١٣٨) الرافعي مرجع سابق ص ٤٢٣ وما بعدها.
(١٣٩) على شلبي مائة عام على الثـورة العرابيـة. ص ١٥٥.

(١٤.) لويس عوض مرجع سابق ص ١٣٥: ١٧٢.
(١٤١) د. لطيفة سالم. القوى الاجتماعيـة فـي الثـورة العرابية القاهرة. ١٩٨١ ص ٣٢٤.
(١٤٢) د. على شلبي مرجع سابق ص ١٧٥.
(١٤٣) وثائق الثورة العرابية محافظ ٧. ١٢. ١٣ ملفـات ١٨. ١٨٧. ٣٥٧
(١٤٤). (١٤٥). (١٤٦). (١٤٧). (١٤٨) وثائق الثـورة العرابية.
(١٤٩). (١٥٠). (١٥١). (١٥٢). (١٥٣). (١٥٤) د. على بركات. تطور الملكية الزراعية في مصر وأثره علـى الحركة السياسة ١٨١٣ _ ١٩١٤، القـاهرة دار الثقافـة الجديدة. ١٩٧٧.
(١٥٥) د. على شلبي _ مرجع سابق ص ١٧٦.
(١٥٦). (١٥٧) تم كتابة تلك المراجع والاقوال ومناقشتها في المتن والهوامش من قبل.
(١٥٨) أحمــد بهجــت _ مقــال _ جريــدة الأهــرام ١٩٦٢/١١/١٩.
(١٥٩) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٢٧.

(١٦٠) رفعت السعيد _ مرجع سـابق ص ١٣٨ _ أنـيس منصور. مقال آخر ساعة ١٩٥٩/٨/١٢.

(١٦١) نفس المصدرين السابقين.

(١٦٢) رفعت السعيد _ مرجع سابق ص ١٣٩.

(١٦٦) الرافعي مرجع سابق.

(١٦٧) بلنت _ مرجع سابق _ رسالة إلى جلاد ستون فـي ٢٠ ديسمبر عام ١٨٨١.

(١٦٨) بلنت مرجع سابق.

(١٦٩) بلنت ـ مرجع سابق ص ٢٧٢.

(١٧٠) صلاح عيسى ـ مرجع سابق ص ٤٣٤.

(١٧١) رفعت السعيد ـ مرجع سابق ص ١٨٧. ١٨٨.

(١٧٢) الأوبزر رفرز السيلانية ١٨٨٣/١/١١.

(١٧٣) صلاح عيسى. مرجع سابق ص ٤٢٧.